

مَحَطَاتُ نَبِيِّنَا

مَحْطَاتُ نَبِيِّنَا

مُحَاضِرَاتُ

سَمَاحَةُ الشَّيْخِ حَيْدَرُ السَّنْدِي لِرَحْمَتِهِ

تَقْرِيرُ

الشَّيْخِ عَلِيِّ يَا سِينِ الْجَانِحِيِّ



مقدمة المركز

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل خلق الله أجمعين
محمد وآله الطيبين الطاهرين، وبعد..

لا شك في أن بحث النبوة من أهم الأبحاث الدينية، فإن الركن الثاني بعد التوحيد وشؤونه في الأديان الإلهية السماوية ركن النبوة، والسفارة بين الله تعالى وبين خلقه، وهذا ما يجعل البحث عن النبوة بحثاً مركزياً وأساسياً في الجدالات والسجلات الفكرية الواقعة بين المتدينين بالديانة السماوية وغيرهم، ومن الطبيعي أن يفرز الجدل جملة من الأسئلة، فتكون أجوبتها أبحاثاً مترابطة تدور حول مركز النبوة، كما إن الأسئلة المستجدة سوف تكون سبباً لتطور البحث وتعمقها، وترامي أطرافه، وتشعب مسائله، وإذا أضفنا إلى هذا تطور وسائل الإعلام، وطرق التواصل، وتوسع دائرة المهتمين بأبحاث الدين؛ فإننا سوف ننتهي إلى أن المرحلة تتطلب القيام بعملين:

١- متابعة الجديد، ورصد آخر المستجدات، وبيان الأجوبة العلميّة على ما ينتهي إليه العقل البشري من تساؤلات.

٢- تجديد الخطاب بجعله سهلاً متيسراً لأغلب طبقات المجتمع ولو كانت مستوياتها الثقافية متدنية؛ لتعم الفائدة، وتتحقق مواكبة ما يتلقاه الناس من أنظار مختلفة.

وقد بذلت في هذا السبيل عدة محاولات، ومن أنجحها هذا الكتاب المائل بين يدي القارئ العزيز، وهو (محطات نبويّة) لسماحة الشيخ حيدر السندي رحمته الله، فقد أشتمل على أبحاث نبويّة متعددة بنحو متسلسل، وحاول أن يوظف آخر النتائج العلميّة في تشييد المطالب، ودفع الشبهات، وكل ذلك جاء بأسلوب متوسط في العمق، وسهل في البيان والعرض؛ ليكون مادة سريعة الانتشار والاستيعاب، وإذ يقدم مركز الإمام الحجة عليه السلام لخدمة الطلاب هذا الكتاب النفيس للقراء الكرام فإنما هو يفعل ذلك لما فيه من قيمة علميّة جديرة بالعناية والاهتمام.

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل

مركز الإمام الحجة عليه السلام لخدمة الطلاب

٢٠ / ربيع الثاني / ١٤٤٣ هـ

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين،
والمبعوث رحمة للعالمين محمد وآله الطيبين الطاهرين، وبعد..

فقد مَنَّ الله تعالى عليّ أن وفقني لخدمة مقام النبوة العظيم في سلسلة
محاضرات، ألقيتها في العشرة الأولى من شهر محرم الحرام لعام: ١٤٤٢ من
الهجرة النبويّة المباركة، وقد قام ساحة الشيخ المجد علي بن الحاج ياسين
الحاجي (وفقه الله تعالى) بكتابة هذه المحاضرات، فقمّت بمراجعتها، وإضافة
جملة من المطالب والشواهد إليها، حتى صارت بهذه الكيفية الماثلة بين يدي
القارئ الكريم، وإذ أشكر الله تعالى على هذا التفضل والتوفيق، وأدعو
لساحة الشيخ الحاجي أن يُكْتَبَ دوام له التوفيق والتسديد، وأن يجعله من
أعلام الطائفة الكبار العاملين والمقبولين عنده تعالى، فإنّي أرجوه عز وجل أن
يتقبّل هذا الجهد وينفع به، إنه جواد كريم سميع مجيب الدعاء.

حيدر بن الحاج عبد الله السندي

الأحساء

١٥ / ١ / ١٤٤٢ من الهجرة المباركة

بين يدي الكتاب

سوف نتحدث - إن شاء الله - في محطات نبوية حول (مقام النبوة والوحي والدين) ضمن أبحاث متعددة ترتبط بالنبوة العامة والنبوة الخاصة، فإن علماء الكلام العقيدة أو الثيولوجيا (*theology*) قد قسّموا أبحاث النبوة إلى قسمين: القسم الأول: الأبحاث التي تشكل عنصراً مشتركاً في جميع النبوات، ولا تختص بنبوة دون أخرى.

القسم الثاني: الأبحاث التي تختص بنبوة خاصة، ولا تجري في جميع النبوات، كالأبحاث المختصة بنبوة النبي الخاتم ﷺ، كالبحث عن أدلة نبوته وعن القرآن الكريم كشاهد على صدقه، أو البحث عن ختم النبوات، وغير ذلك من الأبحاث التي ترتبط بنبوة النبي الخاتم ﷺ.

وما سوف نتعرض له من أبحاث متعددة - إن شاء الله - بعضه يرتبط بالنبوة العامة، وبعضه يرتبط بالنبوة الخاصة للنبي الأكرم ﷺ، وسوف يكون حديثنا ضمن محطات، فإننا - إن شاء الله - سوف نتحدث في أمور تعريفية وتمهيدية، كتعريف حقيقة النبوة والوحي، وسوف نتحدث عن فائدة النبوة،

فهل في بعثة الأنبياء فائدة وراء الفائدة التي تقدمها الفطرة، ويقدمها العقل تُخَرِّج البعثة عن العبيية؟ وإذا كانت توجد فائدة للبشرية في بعثة الأنبياء، فهل هذه الفائدة ضرورية ولازمة لا يقوم المجتمع إلا بها، وبالتالي يحكم العقل بوجوب بعثة الأنبياء أم لا؟.

وأيضاً - سوف نتحدث - إن شاء الله - عن طرق إثبات النبوة، فإذا ادعى شخص أنه نبي كيف نتعرف على صدقه، وما هو الطريق الصحيح الذي من خلاله نتعرف على مطابقة دعواه للواقع؟

وأيضاً - سوف نتحدث - إن شاء الله - عن الكمالات الروحية للأنبياء التي تميز الأنبياء وتجعلهم دون غيرهم سفراء لله تبارك وتعالى، وسوف نخصص - إن شاء الله - محطة بعنوان النبوة فوق الشبهات، وسنحاول أن نجيب فيها على جملة من الأسئلة والاستفسارات والشبهات المثارة في مسألة النبوة.

وقد تسأل عن سر الاهتمام ببحث النبوة؟

والجواب: هو أننا نعيش عصر إثارة الشبهات والإشكالات في مسألة النبوة، فإن المناوئين للدين قد شنوا قبل عدة سنوات حملة على وجود الله تبارك وتعالى والتوحيد، ومنيت حملتهم - والله الحمد - بالفشل الذريع، فعادوا في مسألة النبوة، فقد اعتقدوا أنها هي الخاصرة الضعيفة التي يمكن أن ينفذوا من خلالها فيشككوا في الدين، ولهذا ينبغي على المؤمن أن تكون عنده ثقافة

جيدة في مسألة النبوة، لكي يقف ويحافظ على إيمانه في وجه الشبهات التي تُثار في هذه المسألة المهمة التي تشكل الأصل الثاني من أصول الدين.

إن بحث النبوة من الأبحاث المهمة جداً، فهو علاوة على كونه يرتبط بالأصل الثاني من أصول الإسلام صار سبباً للتشكيك بطرح جملة من الأسئلة، وقد أثارها بعض الباحثين، ومنها:

السؤال الأول: لماذا لم يخاطبنا الله مباشرة، فلماذا التوسيط، وهو قادر على كل شيء؟

السؤال الثاني: لماذا لم يرسل باللهجات المتنوعة، مع أن الحقيقة التاريخية تثبت تركيز الرسل في مكان معين ولبسان معين، ونحن نواجه مشاكل بسبب اختلاف اللغة في كثير من الصعد، فهل يعقل بلسان واحد دعوة كل الناس، والترجمة بشرية نتيجه دين بشري؟

السؤال الثالث: هناك ٤٠ مليار كوكب في درب التبانة شبيه بالأرض، فأين موقع النبوة؟

السؤال الرابع: لماذا لا يفترض أن من يؤيد الرسل موجودات عاقلة في كواكب أخرى، وفعلها خارق عندنا، وهي تملي على البشري ما يقول، وقد تكون شريرة، وقد تكون خيرّة، لكن ليست الله تعالى، وعليه قد يكون المعجز فعلاً عادياً لمخلوق آخر؟

السؤال الخامس: ما عن أبي بكر الرازي أن جعل الواسطة شركاً، فلماذا

لزوم الإيمان بشخص بعينه، ولا يكفي العمل بكل الشرائع، وما وجه تخصيص هذا الفرد؟

السؤال السادس: إن لجعل العقل لازماً، وهو لزوم الأخذ بما ينتهي إليه، فلماذا يجعل الله العقل وما يقتضيه ويلزمنا بما يخالف العقل منطقياً وحقوقياً؟ فهذا تناقض في فعل الله إذ وضع عقلاً وناقضه بشرائع تنافيه.

السؤال السابع: لا يوجد إثبات تاريخي للمعاجز، فما هو موجود مجرد نقل، ويعود إلى مئات بل آلاف السنين، فما يحدث الآن لا ينقل بدقة فكيف ما حدث قبل الاف السنين؟!

السؤال الثامن: غرابة الخبر تمنع التصديق، وتمنع تراكم قيم الاحتمال في التواتر، والمعاجز غرائب.

السؤال التاسع: قد يكون الله أرسل أدياناً زائفة بأفكار لا إنسانية، وقد قال: يدخل الجنة من يكذب بهم، ويؤمن بالعقل وحب الله وكل الناس، فما الضمان من عدم ذلك.

وهذه الأسئلة قريبة مما ذكره جان جاك روسو (بالفرنسية: *Jean - Jacques Rousseau*) في القسم الرابع من كتاب (إيمل تربية الطفل)، وفُرز في كتاب (دين الفطرة)^(١)، وهو يبشر في هذا الكتاب بالدين الطبيعي لا الوحياني، ومما ذكر فيه:

(١) دين الفطرة: ص ٨٨.

١- ما ذا يضيف الأنبياء إلى العقول والوجدان، فالله أظهر لنا كل شيء في الحواس والوجدان والعقل؟

٢- الوحي حط من الله ونسب إليه نزوات البشر من الغضب والانتقام، فالدين أعطى صورة غامضة عن الله.

٣- من أين عُلِمَ أن الوحي يعرفنا كيف نعبد الله؟ مع أن الأديان جاءت بممارسات شاذة.

٤- الله أعطاني العقل فلماذا أعاقب إذا عملت بما يوصلني إليه؟

٥- لماذا التعدد في الشرايع مع وحدة الفطرة؟

٦- من أين يثبت العقل أن من الضروري أن يتدخل الله للتوجيه بواسطة

بشر؟

٧- كيف يهتم الخالق بالامحدود بالطقوس وكيفية اللباس؟

٨- الفرق متعددة والكل يُكفر غيره، وفي كثير من الأحيان لأسباب خارجة عن الاختيار، فاللقاء المسؤولية على البعض ظلم، والتعبد بدين واحد على الجميع يفتقر إلى دلائل واضحة ودلائل دعاة النبوة ليست كذلك؛ لأنها لا بد أن تكون جلية في الكل وفي كل ظرف، وإلا يكون مُنزل الأديان ظالماً في التعذيب الأبدي.

٩- لماذا اختيار واحد يتصل به البعض، والبقية تأخذ بالرواية البشرية؟

لماذا لا يرسل الله الملك للكل، ويتصل بالجميع؟

١٠ - كل فرقة تدعي تواتر أخبار أنبيائها، وتنقل وجودهم في أماكن معينة ليست عامة لكل البشر.

١١ - ما الفرق بين المعجزة والسحر، ومن أين ثبت أن من شاهد الأنبياء ونقل عنهم الخوارق يميزون بينهما؟

ولا بد من معالجات وافية ودقيقة لهذه الأسئلة، والعلماء الأعلام بحثوا جملة منها، فقد ذكروا في حكمة الاختصاص - مثلاً - برهاناً يكون من مقدمات، وهي:

١ - تفاوت القابليات أمر مشاهد.

٢ - سببه نظام عالم المادة.

٣ - نظام عالم المادة ذاتي له.

وأشكل: بأنه لماذا لا يتعامل الله مباشرة مع كل شخص بحسب قابليته، فما سوف يصل بواسطة الرواية والنقل أيضاً على حسب القابلية.

ويمكن أن يجاب: بأن معارف الوحي تارة تكون من قبيل البث العام كما يصور بعض الصوفية والحداثيين، أو الخاص، وهنا يُقال: بأن من المحتمل أن الوحي المباشر يحتاج إلى قابلية مفقودة، نظير البث وفق موجة خاصة لا يستقبلها إلا من يملك الجهاز الذي يفك الشفرة، فلا يحق لمن لم يملك الجهاز أن يعترض على جهة البث بأنها لا ترسل إليه، مع تحتم عدم القابلية بسبب القانون الذاتي لعالم الخلقة.

وأما قابلية السماع عبر الرواية، أو البلوغ عبر الإشارة في الأصم فمتوفرة في الأغلب.

وأخرى يصور بأنه كذلك مع إمكان جعل القابلية للكل، وهنا يمكن أن يُقال: بأن في تخصيص الله حكمة لا نعلمها، فالله علمه كلي وعلمنا محدود جزئي، وأي عاقل يزعم بأنه أحاط بالعلم الإلهي وعرف أسرار الخلقة الجمعية بما في ذلك ارتباط هذه النشأة ومجريات الأحداث فيها بالنشأة الأخرى.

فإذا ثبت وجوب بعثة الأنبياء، وقامت الأدلة على نبوة بعض الناس، ولم نبعث نحن علمنا أن الله تعالى - الذي ثبت أنه حكيم - لحكمة خصص النبوة، ولا حاجة لمعرفة تفصيلاً، نعم يمكن أن نحتمل بعض الوجوه.

مثلاً: لماذا النبي الخاتم ﷺ واحد وليس متعدداً في زمانه على عدد القارات يبلغون نفس التعاليم؟

هنا قد يقال: إن السبب وجود مرجعية وحاكمة، ولكن لو قال المعارض: يمكن ذلك بكون كل واحد منهم مرجعاً أو الجميع، أو بجعل نبي منهم مهيمناً ومشرفاً على الكل مع ثبوت النبوة للجميع.

فيمكن أن يُقال: إن تعدد الأنبياء يقتضي الخلاف ووقوع النزاع بين الأتباع، ويُقال: إن الجواب الحاسم هو أن ملاك تعدد النبي ووحدته نظير ملاك عدد الركعات، لا نرى محذوراً - كمسلمين - في التسليم والتعبد لحكمة

غيبية مادام قام الدليل على عدم تعدد الوسائط في زمان ما. إن المطروح في هذه الأسئلة وغيرهما عدة إشكالات ترتبط بجهات متعددة في النبوة، وسؤال: (لماذا لم يخاطبنا الله مباشرة، فلماذا التوسيط، وهو قادر على كل شيء؟) له رتبة خاصة في سلسلة أبحاث النبوة، إذ يفترض بالسائل على الأقل أنه يؤمن بأصل وجود الله تعالى والنبوة، وبحكمة الله تعالى أو عنايته، وثبوت الحاجة إلى أصل النبوة، ويتساءل عن الحكمة في تخصيص النبوة، ولا ينفك الجواب عن دراسة المعني بهداية الوحي، وهو الإنسان والجن، وكل مخلوق معني، ففي الإنسان لا بد من معرفة مقدار قابلية جميع أفراده لتلقي الوحي مباشرة بحسب نظام عالم المادة، وأيضاً ضرورة الاطلاع على حقيقة الوحي، وهل هو مما تقبله مطلق الطبيعة البشرية أو الطبيعة الخاصة؟ وكل ذلك قد يعطينا جواباً للتوسيط وكون عدد الأنبياء هو العدد الفعلي المتحقق.

وهذا الجواب أحد التقريبات المذكورة هنا في مسألة النبوة، وكذلك في عدد الأئمة، ومسألة الشرور، وعدم ترتب الأصلح، ودفع إشكالات بعض الأعلام على قاعدة اللطف، وفي مسائل كلامية أخرى.

وطبعاً لدفع محذور منافية الحكمة الثابتة بالبرهان لسنا بحاجة من الناحية المنطقية إلى تكفل عناء إثبات هذا التفاوت للأفراد، فيكفي احتمال، وعدم البرهان على نفيه، وعلى من يجزم بعدم حكمة التخصيص أن يتكفل عناء

إثبات صحة جزمه، ونحن لا نحيط بها يحيط به تعالى، فباب الاحتمال مفتوح إلى آخره.

ومن الواضح أن فرض عصمة الأنبياء المتعديدين يؤمن من جهة الخوف من وقوع الخلاف والانقسام بينهم، فلا يمكن دفع الإشكال بأن تعدد الأنبياء يوجب اختلافهم.

نعم، الصحيح أن يقال: إن من المحتمل أن الاختلاف الواقع بين الأتباع سوف يكون أشد فيما إذا تعدد النبي، وهو يوجب ذهاب المصلحة المتاحة من البعثة بحسب نظام علمنا وطبيعة البشر النفسية والاجتماعية، وهذا الاحتمال كافٍ لتجاوز العقل حسن توحيد النبي الخاتم أو صاحب الشريعة.

وإذا قيل: (القول بأن هذه المسألة غيبية مثلها مثل عدد الركعات في الصلوات، والكثير من التشريعات التي لا نفهمها، فالمرجع فيها هي حكمة الله تعالى، وهي مورد التسليم عند الجميع، ولكن: عندما نطرح هذا الجواب لغير المؤمن فهو غير مجد، وكذلك بطرحه للمؤمن يرد السؤال منه وما هي فلسفة هذه الحكمة وما هي تجلياتها. وكما أن علماء الكلام استدلوا على الحاجة إلى وجود الأنبياء ولم يعللوا ذلك بحكمة الله).

فيمكن أن يُعلّق عليه:

أولاً: بأن ما ذكرته ليس مرتبطاً بأصل الحاجة إلى النبي أو ضرورة بعثه، ولا سبب تفاوت ما يصل إلى الناس من واقع الدين، فالمفروض أننا انتهينا

من أن الله غرضاً لا يتحقق إلا بالنبوة، وأن طبيعة هذه النشأة تقتضي بمرور الزمان وتبدل الأحوال والظروف ضياع وضوح أو أصل بعض الأحكام عن الطبيعة الخاصة للبشر، وإنما نواجه هذا السؤال: لماذا لم يجعل الله عدد الأنبياء المبلغين أكثر، أو يجعل في كل قرية نبياً أو يجعل كل شخص نبياً؟

فإن ملكنا جواباً علمياً يقينياً - كما لو أخبرنا الله تعالى - فيها ونعمت، وإلا يكفينا علمنا بأن الله تعالى بمقتضى حكمته وعنايته يوصل كل ممكن يمكن ثبوت كماله له دون مانع لغاية، فهذا يدل على أن هنالك شيئاً منع.

ومن المهم في نظري تثقيف المؤمنين على التسليم فيما إذا قصر العقل عن معرفة الحكمة، وحال بحث (تعدد الأنبياء) وملاك الأحكام واحد من هذه الجهة، وقد تمثل هذا الأسلوب فالجواب في كثير من الروايات، فلسنا نملك أجوبة على جميع الأسئلة، وليست أجوبتنا بالضرورة تقنع المؤمن بحكمة الله تعالى، فلا بد أن يكون الإيمان بالحكمة الترس الأهم والحصن الأقوى بعد سقوط سائر التروس واندكاك غيره من الحصون في هذه الفروع من مسائل النبوة.

وثانياً: من لا يؤمن بالحكمة الإلهية، لا معنى للبحث معه عن سبب عدم مضاعفة عدد الأنبياء؛ لأنه إن كان لا يؤمن بالله تعالى، فنحتاج شوطاً طويلاً لنوصله إلى موقع هذه المسألة، فمن الخطأ أن نذكر له وجه تخصيص الله النبوة، وهو لا يؤمن بالله وحكمته ولا النبوة.

وإن كان يؤمن بالله وينكر حكمته ويحيز على الله ما يخالف الحكمة، فلا معنى لسؤاله عن الحكمة في عدم مضاعفة عدد الأنبياء إذا يجوز عنده على الله ترك النبوة من رأس، وجعل الشياطين أنبياء مضللين.

إذا كانت هنالك دراسة جادة للإجابة على الأسئلة المتقدمة، ودفع الشبهات المثارة فيها، فإنه ينبغي بحث النبوة بطريقة منهجية بترتيب أبحاثها وتصنيف الإشكالات بحسبها، ففي تصوري لا بد من التسلسل ضمن عناوين تعرضت للإشكال وأثيرت حولها الشبهة، كأن نتسلسل بالنحو التالي:

البحث الأول: تعريف النبوة والوحي، وبيان قيمته المعرفية.

وهنا تبحت النظريات المختلفة في حقيقة الوحي، وتعالج شبهات التجريبيين في قيمة الوحي في معرفة الواقع.

البحث الثاني: بيان طرق إثبات النبوة.

وهنا تدفع الشبهات التي أثارها اللادينيين حول قيمة المعجزة.

البحث الثالث: هل هنالك شيء لا نحصل عليه بالفطرة والوحي يقدمه

الأنبياء؟

وهنا لا معنى لأن يُقال: إن الباري تعالى خاطب الكل بالفطرة أو العقل؛ لأن السائل يفترض التسليم بأن هنالك شيئاً يحصل بالفطرة والعقل - كما في حالة جان جاك روسو كما سوف يأتي - وإنما هو يسأل عن الإضافة التي تخرج البعثة من العبيثة.

وهنا اختلفت الأجوبة:

منها: ما ذكره الفلاسفة كالشيخ ابن سينا في إلهيات الشفاء والمحقق الطوسي من قصور العقل عن وضع القانون الذي ينظم مدنية الإنسان، ولا يكون ذلك مع تفاوت الناس واختلاف مصالحهم إلا بقانون من المحيط الغني القادر على الردع، وعمقه العلامة في الميزان وربطه بالاعتبار وخطورته في مقام التوسط بين الإرادة، والفعل وضرورة صدوره ممن يتوفر فيه المعيار في تفسير قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١).

وأيضاً تناوله الشهيد الصدر رحمته الله في مقدمة فلسفتنا وكتيب: (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء)، ولكن ركز فيه على الجانب النفسي، وأن حب الإنسان لذاته سبب خيره وشره، فهو يعيش نزاعاً داخلياً لا حل له بنحو يتكامل الإنسان بطريقة متزنة إلا بعقيدة ونظام أخلاقي إلهيين.

ومنها: ما ذكره المتكلمون من أن الخوف والقلق من المستقبل مع الجهل به، لا يكون إلا بإخبار المطلع عليه، وهذا ما ذكره بعض الفلاسفة في بحث إثبات المعاد بتجرد النفس، وبالتالي ضرورة معرفة الإنسان لما يكشف المصير

(١) سورة البقرة: آية ٢١٣.

بعد هذه النشأة.

ومنها: ما ذكره الشهيد الصدر رحمته الله في نقاش قاعدة اللطف في بحث الإجماع من أن اللطف قسمان، والثاني منهما ما لا يتحقق إلا بعد التشريع، وهو مما يحكم العقل بلزومه عنده، ومراده الإتيان بالفعل تعبدًا به، وبما هو مراد للخالق، فإن في هذا من الكمال ما لا يحصل قبل التشريع.

فقد تعرّض للاستدلال بقاعدة اللطف على لزوم حفظ الأحكام بإحداث الخلاف لو أجمعت الأمة على رأي باطل، فقال معلقاً عليه: «لو أريد من المصالح الحقيقية الملاكات التكوينية الثابتة بقطع النظر عن أحكام الشارع وتشريعاته فمثل هذه الملاكات من الواضح عدم لزوم حفظها من قبل الله سبحانه على البشرية ولم تجر العادة أيضًا على حفظها بتدخل مباشر من الله سبحانه بل أوكل ذلك إلى خبرة البشر وبصيرتهم المتنامية المتطورة من خلال التجارب والممارسات ولعلّ الحكمة في ترك البشر وخبرته ليتكامل ويكدّ وتتفتح قدراته وإمكاناته تدريجيًا، والحاصل قاعدة اللطف لا يمكن تطبيقه على مثل هذه الملاكات الأولية التكوينية إما لعدم المقتضي لمثل هذا التطبيق أو للمزاحمة مع الملاك الذي ذكرناه، ولهذا لم يلزم على الله سبحانه أن يبعث أطباء كما بعث أنبياء.

ولو أريد تطبيقها على المصالح والملاكات البعدية التي تحصل في طول التشريع الرباني وهي ملاكات الطاعة والعبودية لله والتكامل المعنوي وهي

التي طريق حفظها منحصر بالله سبحانه بما هو مشرع وواضع العقاب والثواب فكبرى تطبيق قاعدة اللطف على مثل هذه المصالح وإن كان لا يخلو من وجه ولهذا طبقت القاعدة لإثبات أصل النبوة العامة. إلا أن صغرى ذلك غير منطبق في المقام إذ لا فرق في حفظ هذه الملاكات الطولية بين الحكم الظاهري والواقعي فحتى إذا كان ما أجمع عليه الفقهاء خلاف الحكم الواقعي لا يكون ذلك خارجاً عن الشرع بل على طبقه وبقاعدة أو أصل من أصوله ووظائفه المقررة ظاهرياً كما هو واضح».

فإن قوله الكبروي: (ولو أريد تطبيقها على المصالح والملاكات البعدية التي تحصل في طول التشريع الرباني وهي ملاكات الطاعة والعبودية لله والتكامل المعنوي وهي التي طريق حفظها منحصر بالله سبحانه بما هو مشرع وواضع العقاب والثواب فكبرى تطبيق قاعدة اللطف على مثل هذه المصالح وإن كان لا يخلو من وجه) يدل على وجود فوائد لا تحصل بغير البعثة، بل يدل على قبول لزوم البعثة باللطف في هذا السنخ من الملاكات.

البحث الرابع: لو سلمنا حسن البعثة، فهل هي لازمة بنحو يحصل لنا جزم بصدق ولو مدّع واحد، أم ليست لازمة، وبالتالي من المحتمل عدم صدق الكل؟

واختلف الباحثون في مقام الجواب، ووجد قسماً:

الأول: يرى الوجوب عقلاً، ذكرت تقرّيات:

ومنها: قاعدة اللطف، ولو من جهة المحصل والمقرب للنوع كما عن بعض، أو اللاحق للتكليف كما عن الشهيد الصدر رحمته الله.

وهو سواء رجع إلى قبح نقض الغرض أم لا، فرع إدراك العقل غرض الله تعالى وتوقف تحققه على البعثة.

ومنها: دليل العناية وعموم الفيّاضية.

وهو إن كان بمعنى أن الله يقبح عليه عدم الإفاضة، فلا بد من تنقيح وجه الوجوب، فهل لزوم الجود كما في عبارات الشيخ المفيد، أو قبح البخل، أو استحالة الانفكاك لكونه علة تامة، وهذا يحتاج إلى بحث الكبرى في الموردين الأولين، على أنه يحتاج إلى تنقيح عدم المانع عقلاً.

وإن كان بمعنى اللابدية الوجوديّة، بمنع أن معرفة الله تلازم العلم بأنه يفيض متى تحققت القابلية، فهذا لا بد أن يبرر وجهه عند من يرى حدوث العالم وترك الله للأصلح، وأن الله تعالى أن يعطي وأن يمنع باختياره، ولا ملازمة بين كمال الذات وتحقيق الفعل، وليس معنى تمام فاعليته بالمعنى الموجود في الفاعل الموجب.

الثاني: يرى أنه لا طريق للعقل في إثبات الوجوب، فمن المحتمل أن الله خلقنا لتكامل وفق قابلياتنا الفطرية والعقلية، وما زاد من هدايات فهو محض تفضل، وبالتالي لا يلزم أي محذور من عدم البعثة أصلاً. نعم، بعد ثبوت النبوة ندرك بإخبار النبي غاية الخلقة وتوقفها على البعثة، وأن عدم البعثة

نقض للغرض.

البحث الخامس: إن كان العقل لا يدرك لزوم البعثة، فهنا لا محذور في أن يبعث الله نبيًا بالنحو المتعارف الذي يترتب عليه ذهاب وضوح أو أصل بعض التشريعات، وأما إذا كان يدرك اللزوم، فلا بد أن يُبحث عن إمكانية جعل غير الطريق المتعارف، وهنا يأتي بحث أن نظام المادة ومقتضياتها لازمة، وتفاوت طبيعة البشر، وهل يقدر الكل على تلقي الوحي؟

وما لم يجزم العقل بالإمكان لا يحق له أن ينسب التقصير إلى الله تعالى، فإن احتمال العقل لقصور الطبيعة يعني احتمال أن الغاية من الخلقة هذا المقدار المتحقق بالبعث بالطريقة المتعارفة، فلا نقض للغرض أصلاً، بل الغرض تحقق بهذه الطريقة.

البحث السادس: لو قبلنا أن من اللازم أن يبعث بالنحو المتعارف، فهل يلزم أن يبعث الله في كل قرية نبيًا أو في كل خمسة نبيًا؛ لأن الغرض المتاح بحسب طبيعة عالمنا لا يتحقق ببعثة ١٢٤ ألف نبي، وإنما يتحقق بمضاعفة هذا العدد؟

وقد تقدم التعليق عليه، وسوف يأتي مزيد كلام - إن شاء الله -.

البحث السابع: - وهو ما أثاره بعض الحداثيين المعاصرين - إن من المشاهد اختلاف الناس في الدين وضياع جملة من أحكامه، فهل الغرض من بعثة الأنبياء تبليغ حكم فيه مصلحة واقعية أم التعلق والارتباط بدين ما

ينسب إلى الله، والثاني قد يُقال: هو المتعين بسبب عدم تحقق الأول، وعلى الثاني لا يعتبر تعلق بدين خاص.

وهنا يُقال: إن صاحب هذا الادعاء يفترض ثبوت الله، وثبوت النبوة، والدين، وعليه نقول له: إن العقل لا يدرك موطن مصلحة الدين الذي أنزله الله، فالمرجع إخبار الله تعالى، وهو أخبر بضرورة التعبد بضرورة التعبد بدين الإسلام.

والمطلوب بالدين تحقيق نوعين من المصالح على نحو المجموع:
الأول: مصالح واقعية في أحكامه.

الثاني: في الارتباط بالدين والتعلق به بأي معنى فرض كالتدين مثلاً بنبوة من بلغه، فإن العقل يحتمل وجود دخل في الاعتقاد بحقائق خاصة في تحقق الغرض من أحكام الدين العملية.

ومجرد الاختلاف في أحكام الدين أو تفاوت درجة كشفه لا أثر له في تغيير موطن المصلحة في الواقع، فهل الجهل بوجود دواء في الكأس يرفع المصلحة الموجودة في شربه؟ وعليه القول: بأن اختلاف حال المكلف يوجب جعل المصلحة في التعلق بدين ما فقط ليس صحيحاً، وإلا للزم القول بعد وجود مصلحة حتى في أصل التعلق إذ ما أكثر الذين لا يعتقدون بدين منسوب إلى الله تعالى.

نعم السؤال الجدير بالإجابة هو: كيف تكون مصلحة الدين في كل

تعاليمه وفي التعلق به وكثير من الناس يجهلون ذلك؟
وهذا ما طرحه المتكلمون في بحث التكليف، حيث أُشكِلَ بلغوية
الشمول للعصاة والجهال للعلم بعدم تحقق الغرض منهم.

وذكروا أجوبة، منها: أن غرض التكيف تحقيق قدرة العباد على الظفر
بمصالحه على حسب قابلية واستعداد الناس، فمن يتمكن من الكل يأخذ
الكل وإلا يأخذ بقدره، والجاهل المطلق يحرم من الكل، لكن هذا لا يوجب
لغوية اطلاق الحكم؛ لأن في الاطلاق مصلحة - وهذا ما ذكر في موارد النسخ
- أو هو أمر عديمي، وهو عدم لحاظ القيد، غايته يحكم العقل بقبح معاقبة
الجاهل القاصر، وجهله لازم عالم المادة - كما سوف يأتي إن شاء الله -.

وما طرحه المتكلمون القائلون بالعدل في التكليف ليس عن شمول
التكليف بما هو اعتبار، وإنما بما هو ناشئ من مصالح إلزامية تخرجه عن
العبيثية، وترفعه من الحسن إلى اللزوم، فمثلاً بدأ الحاجة نصير الدين رحمته الله في
التجريد^(١) ببحث حسن التكليف لاشتغاله على مصلحة لا تحصل بدونه، وله
مصلحة أخروية ومصلحة دنيوية، وهذه المصلحة عامة بنوعيتها حتى في حق
الكافر.

وبين العلامة رحمته الله أن المصلحة ترجع إلى العباد، وأن هنالك مصلحة في
التكليف ومصلحة في الفعل المكلف به، ومصلحة التكليف تعريض العبد

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ص ٣٢٣.

للمصلحة، وأما ترتب المصلحة بفالفعل المكلف به، وبهذا دفع العلامة محذور شمول التكليف لمن علم كفره، مع عدم ترتب الغرض فيه. والعلامة صب كل كلامه في غرض ومصلحة التعريض للثواب والنفع الخاص في يوم القيامة، وعبرة الحاجة عامة تشمل قسمي المصلحة، بما في ذلك النوعية الاجتماعية والفردية.

وفي تصوري تناول البحث عن موطن مصالح الدين يأتي في سياق البحث عن لزوم التعبد بالدين الإسلامي، أو جواز التعبد بغيره، وهذا يفترض مسبقاً قدرتنا عقلاً على حصر مصالح الدين الإسلامي - لا أقللاً - في عقائده القطعية وأحكامه الضرورية وتقييم حاجة الإنسان إليها، وهذا ما ليس متوفراً للعقل، فهل يعرف العقل مثلاً المصلحة وراء أخذ الاعتقاد بالمعاد الجسماني في الإيمان - بناء على أنه بخصوصه العقيدة - أو أخذ أصل الاعتقاد به؟ وإذا كان يعرف فهل يعرف ذلك بالتفصيل بنحو لا تشذ عنه مصلحة؟

وكذلك الحال في أغلب العبادات، والمفروض أننا لا نريد إخبار الدين نفسه؛ لأننا في رتبة سابقة على الالتزام به، ونريد معرفة موطن المصلحة في الالتزام به.

ولست أريد نفي قدرة العقل على إثبات الحاجة إلى تعاليم الدين الإسلامي، وإنما بيان أن العقل مع قصور قدرته عن الإحاطة بمصالح الإسلام يكون الأمر محسوماً من جهة أنه لا يستطيع أن يصل إلى صحة

احتمال الاكتفاء بالتعلق بأي دين، فهذا لا يكون من العقل البتة إلا مع الجهل بحقيقة أنه يجهل تمام مصالح الدين، مع عدم الالتفات إلى احتمال وجود نشأة أخرى لا يملك العقل برهاناً على نفيها، ويحتمل أن الخالق بالدين أراد وضع خارطة الإنسان نحو كماله المستقبلي الذي لا يتحقق بدون تدين بدين خاص. فلا طريق للإنسان بعقله لتحديد حاجاته الأساسية حتى في النشأة الأخرى على تقدير وجودها. ولا طريق له للإحاطة بجميع مصالح الدين، ليدرك أنها هل تتحقق بالتعلق بأي دين أم لا؟

ومن هنا انطلق جملة من علماء الكلام والفلاسفة من منطلق آخر، وهو قصور البشر عن تحديد كل ما يحتاجون إليه بعد إدراكهم حب الذات وطلب الكمالات والسعادة، فكان بحثهم الأول إثبات قصور البشر بعد دراسته وتحديد حاجاته وإمكانياته، ثم بيان ما يقدمه الدين، ثم بيان لزوم الدين. وسوف أحاول - إن شاء الله - أن أعرض المطالب بأسلوب متوسط، وبطريقة واضحة لا غموض فيها؛ لتكون هذه الأبحاث في متناول أكثر عدد من الناس.

المحطة الأولى

وهي في ذكر بعض الأمور التمهيدية

الأمر الأول : الذي يوجهنا في هذه المحطة هو ما هي حقيقة النبوة؟

وفي هذا الأمر سوف نتحدث في نقطتين:

النقطة الأولى: في تعريف النبوة.

النقطة الثانية: في تقسيم الأنبياء.

تعريف مقام النبوة:

قدم الباحثون عدة تعريفات في حقيقة النبوة، وأذكر تعريفاً واحداً مختصراً، وهو: النبوة منصب إلهي لبشر، اجتباه الله واصطفاه، ليتلقى الوحي مباشرة من دون وساطة إنسان.

وهذا التعريف يشتمل على جملة من القيود والأركان، نقف عند أركان ثلاثة منها:

النبوة والاصطفاء:

الركن الأول: هو أن النبوة منصب إلهي، يجعله الله تبارك وتعالى لمن يشاء من خلقه، ففي الرواية عَنْ زَيْدِ الشَّحَّامِ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ نَبِيًّا وَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ نَبِيًّا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ رَسُولًا وَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ رَسُولًا»^(١).

(١) الكافي: ج ١، ص ١٧٥.

فمقام النبوة اتخاذ من الله تبارك وتعالى وجعل منه عز وجل، وهو يُجعل لبشري مصطفىٍّ ومجتبىٍّ، يقول عز وجل: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾، ويقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾^(١).

فالنبوة تفضل خاص وإنعام خاص من الله تبارك وتعالى، عُبر عنه بالاصطفاء والاجتباء، ومعنى الاصطفاء وجود تميّز تكويني، فخلقة الأنبياء تختلف عن خلقة سائر الناس، فقد ميزهم الله تبارك وتعالى تكويناً؛ ولأنه ميّزهم تكويناً ميّزهم وظيفة، وجعلهم دون سواهم يتلقون الوحي، ففي الرواية عن الحسن بن جهم عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام قال: «في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح روح البدن وروح القدس وروح القوة وروح الشهوة وروح الإيمان وفي المؤمنين أربعة أرواح أفقدها روح القدس وروح البدن وروح الشهوة وروح الإيمان»^(٢).

وفي رواية أخرى يقول عليه السلام: «بروح القدس بعثهم الله تبارك وتعالى أنبياء مرسلين وغير مرسلين، وبروح القدس علموا جميع الأشياء»^(٣).

إذن، هنالك تميّز وجودي، وترتب عليه التميّز في جعل مقام النبوة،

(١) سورة مريم: آية ٥٨.

(٢) بصائر الدرجات: ج ١ ص ٤٤٧ حديث ٣.

(٣) بصائر الدرجات: ج ١ ص ٤٤٨ حديث ٥٣.

فجعل مقام النبوة ليس جعلاً اعتباطياً، وإنما هو يستند إلى تميز وجودي، فلا معنى للقول: إن الأنبياء بشر فلا يمكن تميزهم بشيء يخرجهم عن مستوى البشرية، فإن كونهم بشراً حق، إلا أن العقل لا يمنع كون البشر مراتب تشكيفية، وتمتاز بعض المراتب بقدرات خاصة لا تخرجها عن الإنسانية، وحتى يتضح هذا المعنى أذكر مثلاً وشاهداً.

تفاوت القدرة البدنية ودخله في تحصيل العلم:

أما المثال: لو فرضنا أن الناس بأجمعهم يعيشون في مدينة داخل سور، ولا توجد عند أحد منهم قدرة بدنية على صعوده، ورؤية ما وراءه، ثم اتفق في زمن من الأزمنة أن وجد فيهم شخص قوي من الناحية البدنية، وبإمكانه أن يرقى السور ويطلع على ما وراءه، فإذا صعد سوف يعلو عليهم، وإذا علا سوف يتمكن من رؤية ما لا يستطيعون رؤيته، وبالتالي سوف يستطيع أن يخبر بأمور لا يستطيعون أن يتوصلوا إليها بدونه.

والأمر كذلك بالنسبة إلى مقام النبوة، فالنبي يتميز عن غير بكمال روحي، واستطاع بتميزه الروحي أن يخترق حجاب الزمكان، وأن يرقى على سور الحواس والعقل، وأن يتصل بعالم الغيب، ويرى ما لا يستطيع الناس أن يرونه، فهو لأنه تميز روحياً علا؛ ولأنه علا استطاع أن يرى ما لا يراه الناس، ولا نقصد بهذا أن النبي يتعلم بنحو من الالهام والكشف الذي يدعيه الصوفية، أو يتصل بالعقل الفعال كما يقول الفلاسفة، وإنما نريد بيان أن نزول

الملك بالوحي يحتاج إلى مستقبل له مواهب خاصة، وهو النبي المصطفى، وهذا مناسب لأن يكون معنى النبي مأخوذ (نبا) بمعنى علا، وليس من معنى النبأ، وهو الخبر العظيم، وتوجد رواية تدل على هذا المعنى، فجاء أعرابي إلى النبي الأكرم ﷺ، فقال: السلام عليك يا نبي الله. قال: لست نبي الله، ولكنني نبي الله^(١).

فهو ﷺ نبي صاحب مرتبة عالية، لمكان الاصطفاء، ولأنه مصطفى ومتميز تكويناً صار مطلعاً على ما لا يستطيع الناس أن يطلعوا عليه، ومخبراً وقف على نبا الوحي.

الإعجاز التاريخي في لفظ (فرعون):

و أما الشاهد الذي يؤكد هذا المعنى - وهو التميز الوجودي للنبي -، فهو بيان تاريخ إطلاق لفظ (فرعون)، والشاهد من أدلة نبوة النبي الأكرم ﷺ من

(١) هذه المسألة محل بحث فقد قيل: والنبي في اللغة: مشتق من واحد من ثلاثة أمور: أولاً: مشتق من النبأ، وهو الخبر، والجمع أنباء، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ﴾، وقال تعالى: ﴿نَبِيَّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. ثانياً: من النبوة، أو النبوة، وهي الارتفاع عن الأرض؛ أي أنه أشرف على سائر الخلق، فأصله غير مهموز.

ثالثاً: مأخوذ من النبي، وهو الطريق الواضح.

والخبر الذي نقلناه نقله الشيخ الصدوق أبو جعفر ابن بابويه في كتاب معاني الأخبار، ويوجد في كتب العامة عن حمزان، قال الذهبي: حديث منكر وحمزان رافضي ليس بثقة، ويحتمل في معناه معنى آخر.

جهة، وهو أيضاً - من جهة أخرى يدل على أن النبي ﷺ لم يكن مقتبساً من الكتب السابقة، كالتوراة، بل كان ﷺ ناقداً ومصححاً لما هو موجود فيها، وسوف يكون لنا - إن شاء الله - وقفة عند شبهة اقتباس النبي الأكرم ﷺ من الكتب السابقة.

فقد ذكر مورس بوكاي في كتابه (موسى وفرعون)^(١) أن جاك بيرك (Jacques Berque) قال ما مضمونه: من الأمور الملفتة للنظر أن القرآن الكريم إذا تحدث عن حاكم مصر في زمن نبي الله يوسف عليه السلام يُعبر عنه بالملك، ولا يُعبر عنه بفرعون، ويقول: نظرت في سورة يوسف فرأيت القرآن في خمسة مواضع (الآيات ٤٣، ٥٠، ٥٤، ٧٢، ٧٦) يُعبر بالملك ولا يُعبر بفرعون. ولكن إذا جاء إلى الحاكم في زمن نبي الله موسى عليه السلام يُعبر بـ(فرعون) ولا يُعبر بالملك، بينما التوراة تُعبر عن جميع الحكام المصريين بلفظ فرعون، ويمكن أن نقارن ذلك في الآيات التالية:

التوراة سفر التكوين اصحاح ٤١	القرآن الكريم سورة يوسف
وحدث من بعد سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلمًا. وإذا هو واقف عند النهر. ٢ وهو ذا سبع بقرات طالعة من	وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي

فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ*
 قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ
 الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ* وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا
 وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ
 فَأَرْسِلُونِ* يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي
 سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ
 وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ
 لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ*
 قَالَ تَزَرَّعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا
 حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا
 تَأْكُلُونَ* ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ
 شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ هُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا
 تُحْصِنُونَ* ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ
 يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ.

النهر حسنة المنظر وسمينة اللحم.
 فارتعت في روضة. ٣ ثم هو ذا سبع
 بقرات أخرى طالعة وراءها من النهر
 قبيحة المنظر ورقيقة اللحم. فوقفت
 بجانب البقرات الأولى على شاطئ
 النهر. ٤ فأكلت البقرات القبيحة المنظر
 والرقيقة اللحم البقرات السبع الحسنة
 المنظر والسمينة. واستيقظ فرعون ٥ ثم
 نام فحلم ثانية. وهو ذا سبع سنابل
 طالعة في ساق واحد سمينة وحسنة. ٦
 ثم هو ذا سبع سنابل رقيقة وملفوحة
 بالريح الشرقية نابذة وراءها. ٧ فابتلعت
 السنابل الرقيقة السنابل السبع السمينة
 الممتلئة. واستيقظ فرعون وإذا هو حلم.

وما في التوراة خطأ من الناحية التاريخية بحسب آخر الدراسات؛ لأن
 لفظ فرعون ليس اسماً، وإنما هو لقب بمعنى البيت العالي، وقد أطلق مجازاً
 على من يسكن في البيت العالي، وهو الحاكم الذي يحكم مصر، فلفظ فرعون
 بمثابة: (جلالة، فخامة)، ولم يطلق بحسب الجداريات والمسلات والبرديات
 قبل سنة: ١٤٥٠ ق م، فقبل هذا التاريخ لم يكن يطلق هذا اللفظ على حاكم

من حكام مصر، ونبي الله يوسف عليه السلام عاش قبل هذا التاريخ، ونبي الله موسى عليه السلام عاش بعد هذا التاريخ، فالأول عاش في زمن الأسرة الثامنة عشر ويُعبر عنهم بـ (الهكسوس) - حسب بعض الدراسات - وبداية حكم هذه الأسرة سنة: ١٥٧٥ ق م، بينما الثاني جاء في زمن الأسرة التاسعة عشرة، وبين زمن نبي الله يوسف ونبي الله موسى قرابة ٢١٥ سنة حسب التوراة السبعينية أو ٤٣٠ سنة بحسب التوراة العبرية.

وألان جاردنر (Alan Gardiner) - وهو عالم متخصص في الآثار المصرية - ذكر أن أول من أطلق على نفسه لفظ فرعون الفرعون تحوتمس الثالث، والذي توفي سنة: ١٤٣٧ ق م.

فهذان العالمان يؤكدان على حقيقة تاريخية بيّنها القرآن الكريم.

والسؤال المهم: كيف استطاع النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي يعيش في جزيرة العرب، وهي منطقة متخلفة جداً من الناحية الثقافية، ويعيش في مكة، وهي بلدة صغيرة متخلفة جداً من الناحية التعليمية، لا توجد فيها معاهد ولا دراسات في اللغة والمقارنة بين الحضارات، وكان يشتغل بالرعي والتجارة، ولم يخرج من مكة إلى الشام إلا مرتين، ولم يُعرف في تاريخه أنه متخصص درس في معاهد علمية، وعنده اتصال بعلماء يملكون هذه المعرفة التاريخية التي بينها القرآن الكريم - أن يأتي بكتاب فيه هذه الحقيقة؟

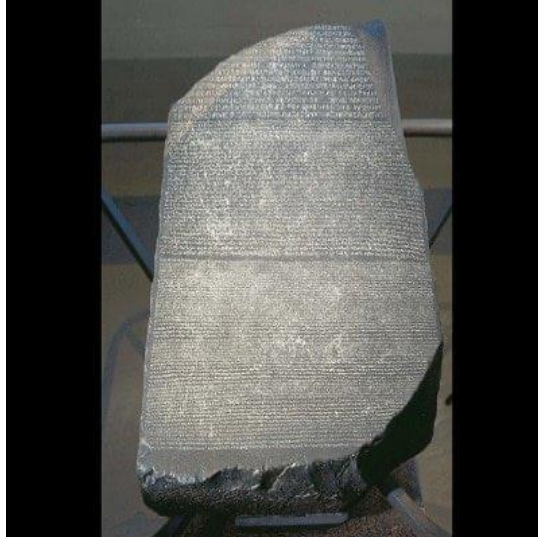
في الواقع إن توصل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذه الحقيقة كان بطريقة إعجازية

وخارقة للعادة، فبحسب وسائل الرصد في زمن النبي ﷺ - وهو القرن السابع الميلادي - من المستحيل أن يصل إنسان إلى هذه الحقيقة؛ لأن المصريين القدماء كانوا يتكلمون باللغة القبطية القديمة، وهذه اللغة من اللغات الميتة التي اندثرت، ولا وجود لها في زمن النبي الأكرم ﷺ.

متى استطاع العلماء فك رموز اللغة القبطية؟

لما ظفروا بحجر يسمى بحجر رشيد، وهذا الحجر اكتشف في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي سنة: ١٧٩٩ م، فقد كتب هذا الحجر - كما قيل - رجال دين مصريون في زمن الحاكم اليوناني بطليموس الخامس سنة: ١٩٦ ق.م، وغرضهم شكر الحاكم؛ لأنه رفع الضريبة عن مصر، فكتب المصريون شكراً له على نصب أو حجارة باللغة المصرية القديمة، وبثلاثة أنواع من الخطوط:

- ١- الخط الهيروغليفي.
- ٢- الخط الهيراطيقي، وهو اختصار للخط الهيروغليفي.
- ٣- الخط اليوناني القديم.



صورة حجر رشيد

وفي القرن التاسع عشر الميلادي - أي بعد ارتحال النبي الأكرم ﷺ بأكثر من ١٢٠٠ سنة تقريباً - جاء جيان فرانسوا شمبليون (*François - Jean Champollion*)، واعتكف على هذا النصب، واستطاع من خلال المقارنة بين هذه الخطوط أن يفك رموز القبطية القديمة ورموز الخط الهيروغليفي، واستطاع العلماء أن يقرأوا الجداريات والمسلات والبرديات التي تركها المصريون القدماء، وبعد ذلك استطاع جاك بيرك وألان جارندر أن يتعرفوا على تاريخ إطلاق لفظة فرعون، وهذا اللوح الصخري كان مدفوناً في أعماق الأرض في زمن النبي الأكرم ﷺ، فكيف استطاع النبي ﷺ وهو في مكة أن يتعرف على هذه الحقيقة التي لا يمكن أن يتعرف عليها أحد بحسب الوسائل المتاحة في زمنه ﷺ؟

إن هذا يدل على أنه النبي ﷺ كان مميزاً وجودياً، وفي ذاته يختلف عن ذوات سائر الناس، ولهذا بإمكانه أن يخترق الزمان والمكان، وأن يتصل بعالم الغيب ويتعرف على أمور غيبية لم تكن متاحة للناس في زمانه ﷺ.

وحي النبوة مقوم لها:

الركن الثاني: إن الأنبياء يتعلمون من الله تبارك وتعالى بطريق معرفي خاص، وهو ليس متاحاً لسائر الناس، وهم يقفون على هذا الطريق من دون وساطة بشر، وذلك الطريق هو طريق الوحي، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾^(١)، ويقول: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾^(٢)، فطريق معرفة الأنبياء هو الوحي، وهذا طريق خاص لا يوجد إلا عند الأنبياء، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقه، واتخذوا الأنداد معه. واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته. فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته. ويذكروهم منسي نعمته. ويحتجوا عليهم بالتبليغ. ويثيروا لهم دفائن العقول ويروهم الآيات المقدرة من

(١) الشورى: آية ٥١.

(٢) الشورى: آية ١٣.

سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع. ومعاش تحييهم وآجال تفنيهم. وأوصاب تهرمهم. وأحداث تتابع عليهم. ولم يخل سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل. أو حجة لازمة، أو محجة قائمة. رسل لا تقصر بهم قلة عددهم. ولا كثرة المكذبين لهم. من سابق سمي له من بعده، أو غابر عرفه من قبله. على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء، وخلفت الأبناء، إلى أن بعث الله سبحانه محمدًا رسول الله ﷺ لإنجاز عدته، وتمام نبوته^(١)، فالأنبياء فقط الذي بإمكانهم أن يقفوا على حقيقة الوحي، وهذا ما يجعل حقيقة النبوة بالنسبة إلينا حقيقة غامضة، وإذا قيل لنا: (النبي هو الذي يتلقى الوحي)، يكون التعريف غامضاً؛ لأن الوحي بالنسبة إلينا أمر غيبي، فهذا التعريف يفيد تحديداً لكن لا يعطينا معنى النبوة بنحو دقيق وواضح؛ فلأننا لا نملك الوحي لا نعرف المعلومات التي تُلقى بالوحي عياناً، فلا نستوعب تعريف النبي بالدقة، وهذا نظير أن يكون جميع الناس صمّاً لا يتمكنون من السمع، ويوجد بينهم رجل يسمع، فيقال في تعريف هذا الرجل: (هو من يسمع الأصوات)، فإن هذا التعريف سوف يُجده، ولكن الفاقد لحاسة السمع، والذي لا يسمع الأصوات، لن يفهم معنى (يسمع) ومعنى (أصوات)، ولهذا ستكون عنده صورة مجملة عن هذا الشخص، ولن يحصل على صورة تفصيلية دقيقة.

(١) نهج البلاغة: ج ١ ص ٢٣، ٢٤.

النبوة الطريق الوحيد للتبليغ المباشر:

الركن الثالث: إن الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يُشرِّع أحكاماً، ويبلغها للناس، وأن يُنزل عليهم كتاباً ويوصلها إليهم، فلا يكون ذلك إلا بمقام النبوة؛ لأن النبي هو الذي يتلقى الوحي، فيختص تبليغ وحي التشريع به دون سواهم، يقول تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^(١)، ويقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(٢)، هذا ما يرتبط ببيان حقيقة النبوة.

تقسيمات الأنبياء:

النقطة الثانية: في تقسيم الأنبياء.

الأنبياء بحسب الآيات والروايات كثيرون جداً، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾^(٣)، ويقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٤)، وفي الرواية المشهورة التي يرويها أبو ذر (رضوان الله عليه) يبلغ عدد الأنبياء مئة وأربعة وعشرين ألف

(١) البقرة: آية ٢١٣.

(٢) الحديد: آية ٢٥.

(٣) النحل: آية ٢٦.

(٤) يونس: آية ٤٧.

نبي^(١)، فهل هؤلاء الأنبياء قسم واحد أم هم أقسام وأنواع؟
و جواب هذا السؤال لا يمكن أن يُعرف بالتجربة والمنهج الحسي،
وبالعقل، إنما يُعرف بإخبار الله والمعصومين عليهم السلام، وبحسب الآيات والروايات
توجد عدة تقسيمات للأنبياء، أذكر ثلاثة تقسيمات منها:

تقسيم الأنبياء باختلاف درجات كشف الوحي:

التقسيم الأول: وهو بحسب اختلاف درجة تلقي الوحي، فإن جميع
الأنبياء يتلقون الوحي من الله تبارك وتعالى، ولكن درجة التلقي تختلف من
نبي إلى نبي، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ
حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾^(٢).

فهناك من يتلقى الوحي مباشرة من دون أن توجد واسطة بينه وبين الله
تبارك وتعالى، وهناك من يتلقى مع وجود واسطة، والواسطة قد تكون ملكاً،
كجبرائيل عليه السلام، وقد تكون شيئاً آخر، كالشجرة التي تكلم الله تبارك وتعالى
بواسطتها مع نبيه موسى عليه السلام، ولمكان التفاوت قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ
فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا

(١) روي عنه في كتب الطرفين: (قلت: يا رسول الله: كم المرسلون؟ قال: ثلاث مئة وبضعة عشر؛
جماً غفيراً)، وفي رواية أخرى: (أن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، وأن الكتب المنزلة
مائة وأربعة كُتُب).

(٢) الشورى: آية ٥١.

عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴿١﴾.

وفي بصائر الدرجات عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: الأنبياء على خمسة أنواع: منهم من يسمع الصوت مثل صوت السلسلة فيعلم ما عني به، ومنهم من ينبؤ في منامه مثل يوسف وإبراهيم عليهما السلام، ومنهم من يعاين، ومنهم من ينكت في قلبه ويوقر في أذنه ^(٢).

حالات النبي الأكرم صلوات الله عليه وآله مع الوحي:

وقد كان سيد الأنبياء صلوات الله عليه وآله يخاطبه الله مباشرة، ففي البحار نقلاً عن كمال الدين للشيخ الصدوق: سئل الصادق عليه السلام عن الغشية التي كانت تأخذ النبي صلوات الله عليه وآله أكانت تكون عند هبوط جبرئيل؟ فقال: لا، إن جبرئيل إذا أتى النبي صلوات الله عليه وآله لم يدخل عليه حتى يستأذنه، فإذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد، وإنما ذلك عند مخاطبة الله عز وجل إياه بغير ترجمان وواسطة ^(٣).

كما كان ينزل عليه جبريل عليه السلام بكل أدب واحترام، فقد روى المحدث الحر العاملي بسند صحيح عن معاوية بن عمار أنه قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: أتت مقام جبرئيل عليه السلام - وهو تحت الميزاب، فإنه كان مقامه إذا استأذن على رسول

(١) البقرة: آية ٢٥٣.

(٢) بحار الأنوار: ج ١١، ص ٥٣.

(٣) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٦٧.

الله ﷺ... إلخ^(١).

وروى أيضاً عن عمر بن يزيد قال: حاضت صاحبتني وأنا بالمدينة - إلى أن قال: - فذكرت ذلك لأبي عبد الله عليه السلام فقال: مرها فلتغتسل، ولتأت مقام جبرئيل عليه السلام، فإن جبرئيل كان يجيء فيستأذن على رسول الله ﷺ فإن كان على حال لا ينبغي له أن يأذن له قام في مكانه حتى يخرج إليه، وإن أذن له دخل عليه... إلخ^(٢).

وفي علل الشرائع: عن عمير عن عمرو بن جميع عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان جبرئيل عليه السلام إذا أتى النبي ﷺ قعد بين يديه قعدة العبد، وكان لا يدخل حتى يستأذنه^(٣).

وعن أمالي الشيخ الطوسي: أنه روت جماعة عن أبي الفضل عن عدة (قد ساهم) عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يغدو إليه علي عليه السلام في الغداة، وكان يجب أن لا يسبقه إليه أحد، فإذا النبي ﷺ في صحن الدار، وإذا رأسه في حجر دحية بن خليفة الكلبي، فقال: السلام عليك، كيف أصبح رسول الله؟ قال: بخير يا أبا رسول الله - إلى أن قال: - فأخذ رأس النبي ﷺ فوضعه في حجره (أي حجر علي) فانتبه النبي ﷺ فقال: ما هذه المهمة، فأخبره

(١) وسائل الشيعة: ج ٩ ص ٥٠٩ ب ٩٣ من أبواب الطواف.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٤٨.

(٣) علل الشرائع: ص ٧ الباب ٧.

الحديث، فقال: لم يكن دحية، كان جبرئيل، سماك باسم سماك الله تعالى به... إلخ^(١).

ولهذا نقل العلامة المجلسي^{رحمته الله} عن الشيخ الصدوق^{رحمته الله} في عقائده قوله: اعتقادنا في نزول الوحي من عند الله عز وجل... فأما جبرئيل^{عليه السلام} فإنه كان لا يدخل على النبي^{صلى الله عليه وآله} حتى يستأذنه إكراماً له، وكان يقعد بين يديه قعدة العبد^(٢).

تقسيم الأنبياء إلى أولي العزم وغير أولي العزم:

التقسيم الثاني للأنبياء: هو تقسيم الأنبياء إلى أولي عزم وغير أولي عزم، ومما يدل عليه قوله تبارك وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾^(٣)، فأولو العزم جزء من الرسل، والرسل جزء من الأنبياء، وبعض الأنبياء لا يوجد عنده عزم، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^(٤)، في الخصال يقول الإمام الباقر^{عليه السلام}: أولو العزم من الرسل خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد^{عليهم السلام}^(٥).

(١) المحاسن: في قسم العلل: ص ٣٣٨.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٦٠.

(٣) الاحقاف: آية ٢٥.

(٤) طه: آية ١١٥.

(٥) الخصال الشيخ الصدوق: ص ٣٠٠.

سبب تقسيم الأنبياء بهذا التقسيم:

وقد تعرضت الروايات لبيان سبب انقسام الأنبياء إلى أولي وغير أولي عزم، فذكرت ثلاثة أسباب:

السبب الأول: هو وجود الشريعة، فالأنبياء أولو العزم عندهم شريعة، وأما سائر الأنبياء فيبلغون الشرائع التي نزلت على أولي العزم، ففي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: (إنما سمي أولوا العزم أولي العزم لأنهم أصحاب العزائم والشرائع)^(١).

السبب الثاني: هو عموم الدعوة، فأولو العزم دعوتهم عامة لجميع الإنس والجن، ففي كامل الزيارات سئل الإمام الصادق عليه السلام: (ما معنى أولي العزم، قال: بعثوا إلى شرق الأرض وغربها، جنها وانسها)^(٢).

السبب الثالث: هو سرعة الالتزام بميثاق الله تبارك وتعالى بحسب رواية الشيخ الطوسي رحمته الله أو شدة الصبر والوفاء بعهد الله عز وجل، فإن الباري تبارك وتعالى أخذ عهداً وميثاقاً على جميع الأنبياء، أن يؤمنوا بالنبي الخاتم صلوات الله عليه، وأن ينصروه، ونصرة النبي الخاتم لا تتحقق إلا بنصرة دينه وبنصرة الأوصياء من بعده؛ لأنهم القائمون بدينه النواب الذين يقومون مقامه، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ

(١) تفسير البرهان: ١٧٨-١٧٩ .

(٢) كامل الزيارات: ص ٣٣٤.

مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَنَنْصُرَنَّهٗ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١﴾.

وطبعاً، جميع الأنبياء لمكان عصمتهم التزموا بعهد الله تبارك وتعالى، إلا أن الالتزام يختلف من نبي إلى نبي آخر، والأشد هو من جمع العزم منهم في أعلى مراتبه، فعن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ قَالَ: عَهِدْنَا إِلَيْهِ فِي مُحَمَّدٍ وَالْأُتَمَّةِ مِنْ بَعْدِهِ فَتَرَكَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَزْمٌ أَنَّهُمْ هَكَذَا، وَإِنَّمَا سُمِّيَ أُولُو الْعَزْمِ أُولِي الْعَزْمِ لِأَنَّهُ عَهِدَ إِلَيْهِمْ فِي مُحَمَّدٍ وَالْأَوْصِيَاءِ مِنْ بَعْدِهِ وَالْمَهْدِيِّ وَسِيرَتِهِ وَأَجْمَعَ عَزْمُهُمْ عَلَىٰ أَنَّ ذَٰلِكَ كَذَٰلِكَ وَالْإِقْرَارِ بِهِ ﴿٢﴾.

فهم استجمعوا العزم والالتزام والثبات على نصرته النبي الأكرم ونصرة أهل البيت عليهم السلام، وهذا ما يدل على أن ولاء النبي وأهل بيته عليهم السلام هو محور القرب إلى الله تبارك وتعالى، به بلغ الأنبياء أعلى مراتب القرب من الله وأصبحوا من أولي العزم، فلم يبلغ نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام أعلى المراتب وأصبحوا سادة الرسل إلا لكونهم أكثر الناس التزاماً بعهد الله وميثاقه في النبي الأكرم وفي أهل بيته عليهم السلام.

ولا تنافي بين هذه الأسباب الثلاثة، فإن كمال وجودهم هو سبب التميز

(١) آل عمران: آية ٨١.

(٢) بصائر الدرجات: ص ٩٠.

في النبوة، وبه كانوا أصحاب الشرائع العامة، وبه كان خضوعهم وانصياعهم لأوامر الله وعهده وميثاقه أشد وأعظم.

نعم، ينبغي الالتفات إلى أن أسباب بلوغهم عليهم السلام هذه المرتبة من المعارف، وليست من العقائد والفروع، فلا بد من إخضاعها لمنهج إثبات المعارف، وبعض الأعلام لا يرى حجية الظن فيها.

تقسيم الأنبياء إلى رسل وغير رسل:

التقسيم الثالث: تقسيم الأنبياء إلى رسل وغير رسل، فقد دلت جملة من النصوص على وجود مقامين مختلفين، وهما:

١- مقام النبوة.

٢- مقام الرسالة.

ومن النصوص - كما ذكر بعض الباحثين - قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾^(١).

وسوف يأتي - إن شاء الله - ذكر احتمال في المراد من نبي في هذه الآية المباركة، وبالتالي تقييم دلالة هذه الآية على وجود مقامين مختلفين.

و من النصوص التي تدل على وجود هذين المقامين قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾^(٢)، فإن عطف النبي على الرسول يدل على

(١) سورة مريم: آية ٥٤.

(٢) سورة الحج: آية ٥٢.

وجود مغايرة، فهناك فرق بين مقام النبوة وبين مقام الرسالة بحسب هذه الآية. ومن النصوص التي تدل على ذلك الحديث المشهور والمعروف الذي رواه الشيخ الصدوق ومعاني الأخبار وأيضاً رواه العامة، كالحاكم في المستدرک: عن أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ: قلت: يا رسول الله كم النبيون؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي. قلت: كم المرسلون منهم؟ قال: ثلاث مائة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً^(١).

و أيضاً ما في أصول الكافي: عن زيد الشحام قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: (إن الله - تبارك وتعالى - اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، وإن الله اتخذ نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، وإن الله اتخذ رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وإن الله اتخذ خليلاً قبل أن يتخذه إماماً)^(٢).

إذن، بمقتضى النصوص المتعددة يوجد فرق بين مقام النبوة وبين مقام الرسالة، ومع ذلك اختلف المسلمون في هذه المسألة، وانقسموا على نظرتين مختلفتين:

(١) معاني الأخبار: ص ٣٣٣.

(٢) تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب، المشهدي، ج ٣، ص ٥١، وفي الكافي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: إن الله اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً واتخذته نبياً قبل أن يتخذه رسولاً واتخذته رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً واتخذته خليلاً قبل أن يتخذه إماماً فلما جمع له هذه الأشياء وقبض يده قال له - يا إبراهيم * (إني جاعلك للناس إماماً) * فمن عظمها في عين إبراهيم ع قال يا رب * (ومن ذريتي قال لا ينال عهد الظالمين) الكافي، الكليني، ج ١، ص ١٧٥.

نظرية المعتزلة في الفرق بين الرسالة والنبوة:

النظرية الأولى: هي النظرية المنسوبة إلى المعتزلة، فإنهم قالوا: لا فرق بين مقام النبوة وبين مقام الرسالة، ولا يوجد فرق بين النبي والرسول، واختلاف التعبير في النصوص، بالتعبير تارة بنبي وأخرى برسول من باب التفنن في البيان، وإلا كل نبي رسول وكل رسول نبي، ولا بد أن نلفت إلى شيء، وهو أن في تحديد مراد المعتزلة من كلامهم هذا نواجه سؤالين:

السؤال الأول: هل يوجد اتحاد بين مفهوم النبوة ومفهوم الرسالة أم لا؟
بأن يكون المفهومان مختلفين؟

إذا قلنا: يوجد اتحاد بين المفهومين، فالمصاديق سوف تكون واحدة، وكل أفراد النبوة أفراد الرسالة، نظير مفهومي (بشر) و(إنسان)، فإنه يوجد ترادف بينهما، فالمفهوم واحد، والمصاديق في الخارج سوف تكون واحدة، باعتبار أن المعنى واحد.

وإذا قلنا بوجود فرق بين المفهومين، فهنا سنواجه السؤال الثاني: وهو هل هذان المفهومان يتحدان في المصاديق؟ أي توجد مساواة بين أفرادهما أم لا؟ فقد يتعدد المفهوم، ولكن يشترك المفهومان المتعددان في المصاديق، فعلماء المنطق القدماء يقولون: مفهوم الإنسان يختلف عن مفهوم الضاحك، ولكن من حيث المصاديق كل ضاحك إنسان وكل إنسان ضاحك؛ لأنه لا يوجد حيوان يضحك إلا الإنسان، فهنا يوجد تعدد مفهومي، ولكن يوجد تساوي من

حيث المصاديق.

فما هو مراد المعتزلة؟ هل يقولون: بأن المفهوم واحد؟ أم يقولون هو متعدد ولكن المصاديق متحدة، فكل ما يصدق عليه رسول يصدق عليه نبي رسول، وكذلك العكس؟

ولا نريد أن نقف في هذه الجهة، ما يعيننا هو أنه نسب إليهم أنهم يقولون: كل نبي رسول وكل رسول نبي، وأنهم يستدلون على ذلك بدليلين: الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا فَإِنْ هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ مَرْسَلٌ؛ لِأَنَّهَا بَيَّنَّتْ أَنَّ النَّبِيَّ مَرْسَلٌ، فَكُلُّ نَبِيٍّ مَرْسَلٌ كَمَا أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ نَبِيٍّ.

هذا الاستدلال ليس استدلالاً صحيحاً، ونذكر عليه ملاحظتين:

الملاحظة الأولى: هي أن هذه الآية تدل دلالة واضحة على اختلاف النبي عن الرسول، فالآية قالت: ﴿مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾، وفي هذا عطف النبي على الرسول، وهذا العطف يدل على المغايرة، إذاً لو كان النبي رسولاً لاكتفى القرآن الكريم - وهو الكتاب البليغ بل المعجز في بلاغته - بأن يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾ أو يقول: (وما أرسلنا من قبلك من نبي)، فلماذا يقول: ﴿مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾، إن هذا تطويل لا معنى له إذا كان هنالك تساوي بين الرسول وبين النبي.

الملاحظة الثانية: هي أن هذه الآية لا تدل على أن كل نبي مرسل، فهي تقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَتَّى﴾، وغاية ما يدل عليه هذا اللسان هو أن الله يخبر بأنه لم يرسل قبل الخاتم ﷺ رسولا أو نبيا ﴿إِلَّا إِذَا تَمَتَّى﴾، ومفادها هو أن الله تبارك وتعالى قد أرسل من هو رسولا في الزمن السابق، وقد أرسل من لم يكن رسولا في الزمن السابق، فأصبح رسولا بعد الإرسال، فقد يكون هناك رسول إلى قرية، فيأتي الباري تبارك وتعالى ويرسله إلى قرية أخرى، وهذا مصداق لإرسال الرسول، وقد يوجد نبي لم يرسل، ثم يرسله الباري تبارك وتعالى إلى قرية أو مدينة، وهنا يتحقق إرسال النبي الذي لم يكن في الزمن السابق رسولا، وهذا معنى إرسال النبي، وليس في الآية دلالة على أن كل نبي قد أرسل.

الدليل الثاني: - وهو لا يخلو من نحو من الغرابة - الحديث المتواتر عن النبي الأكرم ﷺ (علي مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)^(١) فذكروا أن النبي ﷺ قال: (لا نبي بعدي) ولم يقل (لا رسول بعدي)، فلا بد أن نقول: النبي والرسول بمعنى واحد، وإلا يلزم أن يكون هذا الحديث دالا على ختم النبوة فقط، فلا يأتي نبي بعد النبي الخاتم ﷺ، ولا يدل على ختم الرسالة، فيمكن أن يأتي رسول بعد النبي ﷺ، وهذا خلاف الضرورة الدينية التسالم.

(١) صحيح البخاري: ٦ / ٣، صحيح مسلم: ١٥ / ١٧٣، صحيح مسلم: ١٥ / ١٧٥.

وهذا الدليل غير سديد، وعليه إشكالان:

الإشكال الأول: هو أنه لو سلمنا وتنزلنا وقلنا: يمكن أن يوجد رسول ليس نبياً، وبالتالي (لا نبي بعدي) غاية ما يدل عليه أنه لا يوجد نبي بعد الخاتم ﷺ، وهو ساكت عن عدم وجود رسول فلا توجد مشكلة، لأنه بحسب كلام المعتزلة أنفسهم توجد ضرورة، ويوجد تسالم على ختم الرسالة بالنبي الخاتم ﷺ، وهذا التسالم سوف يكون دليلاً على عدم وجود رسول بعد النبي، فما المشكلة في أن يوجد دليل يدل على ختم النبوة، وهو حديث المنزلة أو وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾^(١)، ويوجد دليل آخر يدل على عدم وجود رسول وهو التسالم والضرورة الدينية؟!

لا يوجد أي محذور في تعدد الدليل، فالنتيجة واحدة لا تنافي ختم النبوة والرسالة.

الإشكال الثاني: هو أن هؤلاء اعتقدوا بإمكانية أن يوجد رسول ليس نبياً، فقالوا: إذا كان هذا الحديث يدل على ختم النبوة فقط، فهو لا يدل على ختم الرسالة، ولكن إذا قلنا - كما هو الصحيح -: كل رسول نبي، ولكي يكون المرء رسولاً لا بد أن يكون نبياً، ثم يصل إلى مقام الرسالة، فسيكون حديث المنزلة يدل على ختم الأنبياء و- أيضاً - على ختم الرسل، لأن (لا نبي بعدي) ينفي

(١) سورة الأحزاب: آية ٤٠.

وجود النبوة، وهي بمنزلة الجنس المحفوظ في الرسل، ولا تثبت الرسالة بدونها، وإذا لم يوجد نبي فلن يوجد رسول؛ لأن وجود الرسول فرع وجود النبوة وحيث لا نبوة فلا توجد رسالة.

إذن هذه النظرية ليست نظرية صحيحة فهي:
أولاً: لا تملك دليلاً علمياً معتبراً.

وثانياً: تتنافى مع الأدلة الكثيرة التي تدل على اختلاف مقام النبوة عن مقام الرسالة.

نظرية غالب المسلمين:

النظرية الثانية: - وهي التي عليها أغلب المسلمين - وهي القائلة بوجود فرق بين مقام النبوة ومقام الرسالة، وقد اختلف أصحابها وانقسموا على ثلاثة أقوال:

رأي المشهور في الفرق بين النبوة والرسالة:

القول الأول: وهو القول المشهور، والذي اختاره الشيخ المفيد رحمته الله^(١)، ويرى أصحاب هذا القول أن هناك فرقاً بين النبي والرسول، فالنبي من يتلقى الوحي، وحيثية النبوة هي حيثية تلقي الوحي، وأما الرسول فهو الذي توجد عنده تعاليم، أو رسالة وكتب وشريعة يبلغها للناس، يقول تبارك وتعالى:

(١) النكتة الاعتقادية: ص ٣٤.

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾^(١)، فالرسول هو الذي يُبشِّر ويُنذر بالوحي الذي تلقاه، فإذا تلقى الوحي، وتلقى التعاليم يكون نبياً، وإذا أمر بالتبليغ يتحول إلى رسول.

وقد تعرض هذا القول للمناقشة، فذكر الأعلام مناقشتين:

المناقشة الأولى: هي التي ذكرها العلامة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان عليه السلام^(٢)، فقد ذكر أنه لا يمكن أن نقول بأن النبي من يتلقى الوحي فقط، والرسول شأنه أعلى؛ لأنه يتلقى ويبلغ؛ لأن هذا يتنافى مع بلاغة القرآن الكريم، فإن القرآن الكريم قال في وصف نبيين عظيمين وهما: نبي الله موسى ونبي الله إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾، فبدأ بالرسالة، ثم ذكر النبوة، فلا بد أن نقول: ليس المقصود بالنبوة مجرد تلقي الوحي وإلا يلزم محذوران:

المحذور الأول: هو الاستدراك بسبب ذكر الخاص قبل العام، فإنه إذا كان معنى النبي من يتلقى الوحي، والرسول من يتلقى الوحي ويبلغ، فسوف يكون معنى النبوة معنى عاماً يشمل الرسول، والرسول سوف يكون معنى خاصاً، فيه معنى النبوة وزيادة، فإذا قال الباري تبارك وتعالى: ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا﴾^(٣)، فقد بين أنه - أيضاً -

(١) سورة النساء: آية ١٦٥.

(٢) تفسير الميزان: ج ٢ ص ١٤٢.

(٣) سورة مريم: آية ٥٤.

نبيّ، فإذا كان رسولاً فهذا يعني أنه يتلقى الوحي ويبلغ فهو نبي، فلماذا الباري تبارك وتعالى يقول بعد ذلك: (نَبِيًّا)؟!!

يلزم أن يكون في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ كلام زائد، وحشو مستدرك لا حاجة إليه، وهذا يتنافى مع بلاغة القرآن الكريم.

المحذور الثاني: هو المدح بالأعلى ثم الأدنى، وهذا خلاف البلاغة، فإذا أردت أن تمدح عالماً بأسلوب بليغ، فعليك أن تذكر الوصف الأدنى ثم الأعلى، فتقول - مثلاً -: هو عالم بالنحو وعالم بجميع العلوم، فهذا الأسلوب أسلوب بليغ؛ لأن فيه ترقياً من علم بالنحو إلى العلم بجميع العلوم، لكن لو عكست فقلت: هو عالم بجميع العلوم والنحو، انتقلت من الأعلى إلى الأدنى، خالفت البلاغة؛ لأنك بيّنت أنه يعلم النحو ويعلم جميع العلوم، فلماذا تنزل في مدحه، وتذكر أنه يعلم النحو الذي هو علم اعتباري يعتبر من العلوم الوضيعة مقارنة بالعلوم الحقيقة الأخرى، كعلم التوحيد ونحو ذلك، فإذا كان النبي مجرد من يتلقى الوحي يلزم من ذلك أن يكون معنى ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ هو أن القرآن الكريم امتدح إسماعيل بذكر الأعلى (وكان رسولاً) ثم انحدر في المدح، وذكر أنه يتلقى الوحي (نبيّاً) وهذا خلاف البلاغة.

والشيخ المفيد رحمته الله بإمكانه أن يتخلص من هذه المناقشة بسهولة، فيقول: إن المقصود بالنبي في هذه الآية ليس المعنى الاصطلاحي، وهو من يتلقى الوحي، وإنما المقصود المعنى اللغوي، وهو العلو والسمو، ومعنى ﴿وَكَانَ

رَسُولًا نَبِيًّا ﴿١﴾ أي كان رسولاً يتلقى الوحي ويُبلّغه وكان عالياً في رسالته، وهذا المعنى لا يوجد فيه مدح بالأعلى ثم الأدنى، ولا يوجد فيه ذكر الخاص ثم العام، وإنما يوجد فيه ترقُّ ببيان أنه رسول، وأنه عالٍ في رسالته، فالرسالة ليست مرتبة واحدة بل مراتب، وأراد القرآن أن يُبين أن نبي الله إسماعيل رسول ورسالته ضمن المرتبة العالية.

المناقشة الثانية: هي أن هذا القول يرى النبي يتلقى الوحي فقط ولا يُبلّغ، وإذا كلف بالتبليغ يتحول إلى رسول، وهذا مخالف لجملة من النصوص التي تدل على أن الأنبياء يُبلّغون عن الباري تبارك وتعالى، منها قوله عز وجل: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾^(١)، فعند النبي رسالة يُبشّر بها ويُنذر، وفي نهج البلاغة يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (فَبَعَثَ الْأَمْرُونَ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ فِي خَلْقِهِ وَالْمُعَبَّرُونَ عَنْهُ جَلَّ وَعَزَّ وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ)^(٢)، فالأنبياء أمرون وناهون، وتوجد عندهم شريعة يبلغون ببلاغها أحكام الله تبارك وتعالى، وبالتالي لا يمكن أن نقول: النبي من يتلقى الوحي فقط.

وهنا - أيضاً - يمكن للشيخ المفيد رحمته الله وهو العالم الجليل وشيخ الطائفة أن يتخلص من هذه المناقشة بسهولة، إذ قد يقول: إن الأدلة تدل بالإطلاق على

(١) سورة البقرة: آية ٢١٣.

(٢) الكافي، ج ١، ص ١٦٨.

أن الأنبياء يُبشرون ويُنذرون، فإذا وجد دليل يقول: حيثية النبوة حيثية تلقي الوحي فقط، والذي يبلغ يُنذر، يُبشر، خصوصاً النبي الرسول، فسوف يكون هذا الدليل مُقيداً لإطلاق هذه النصوص، ويفيدنا أن المراد الجدي من الأنبياء في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ خصوص المرسلين منهم.

على أن الإطلاق دليل ظني لا تقوم به الحجة في مثل هذا المطلب المندرج ضمن المعارف.

رأي العلامة الطباطبائي رحمته الله:

القول الثاني: وهو قول العلامة الطباطبائي رحمته الله فإنه يخالف المعتزلة ويرى فرقاً بين مقام النبوة ومقام الرسالة، ومن هذه الجهة يوافق الشيخ المفيد، ولكن يقول: لا فرق بين النبي والرسول في تلقي الوحي وفي تبليغ الوحي، فالنبي يقوم بدور تبليغ بيان ما ينفع الناس في معاشهم ومعادهم.

نعم، الفرق في أن الرسول يبلغ ويُقيم الحجة بنحوٍ يترتب العقاب على مخالفته، فلو تأملنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١)، للاحظنا دوران العذاب مدار الرسول، فهو لم يقل حتى نبعث نبياً، وإنما قال: ﴿حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾؛ لأن الرسول هو الذي يُلقي الحجة التي يترتب عليها

العقاب، ولهذا يقول تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(١)، ويقول: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾^(٢).

دفع شبهة حول القانون الجزائي في الدين:

بعض الحداثيين يتحسس من مسألة وجود العقاب في الشريعة الإسلامية، فيقول: لماذا الدين يربي الناس بعضى العقوبة والقوانين الجزائية؟ لماذا لا يربيهم على الإيثار القلبي بحسن الأفعال الحسنة وقبح الأفعال القبيحة حتى ينطلقوا من قناعة داخلية، يُحيي فيهم الضمير، ثم الضمير يُحرّكهم نحو العمل الصالح، والشاعر الجواهري المشهور يقول:

من لم يخف عقبي الضمير فمن سواه لن يخاف

فالمطلوب تربية ضمائر الناس، وإعطاؤهم الوعي الفكري، ثم هم يلتزمون عملياً، ولا ينبغي التعامل معهم بالتهديد والوعيد والتخويف. وهذا الكلام ليس كلاماً علمياً، ويمكن أن نعلق عليه بتعليقين:

التعليق الأول: هو أن الدين الإسلامي لم يأت بالتهديد بالعقوبة مباشرة، فالدين أولاً بيّن الحقائق، وأمر الناس بالأفعال الحسنة، ونهاهم عن الأفعال القبيحة، ثم ابتداءً بالتبشير، فالقرآن يقول: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾، ويقول: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾، ويقول: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ

(١) سورة يونس: آية ٤٧.

(٢) سورة النساء: آية ١٦٥.

ذَرَّةٌ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(١)، فهو ابتداءً بالتبشير والبشارة، وبالحث على الخير وبيان النفع، فالقول بأن الدين الإسلامي يباشر بالوعيد، ويستخدم أسلوب العصا، وكأنّ هذا فعل الدين فقط؛ ليس قولاً في محله.

التعليق الثاني: هو أن علماء التربية المعاصرين يقولون: لكي تتحقق التربية الصحيحة لابد من مُعزّز، فالقناعة الذاتية لا تكفي لتقويم السلوك، فالإنسان يُحب نفسه، وقد يخالف القوانين والأنظمة لتحقيق مصالحه، فلا بد من مُعزّز، والمُعزّز هو البشارة والعقوبة، ولهذا نشاهد اليوم في جميع الأنظمة العقلانية والمؤسسات والنظم الحكومية وغير الحكومية قانون عقوبات؛ لأن العقلاء يدركون أن من أمن العقوبة أساء الأدب، وقول الجواهري:

من لم يخف عقبي الضمير فمن سواه لن يخافا

لا قيمة له عند العقلاء، فإن أغلب الناس لو لم يوجد قانون عقوبات لما التزموا، فقانون العقوبات قانون ضروري لابد منه لحفظ المجتمع البشري ولسوق الإنسان نحو سعادته، والإنسان بطبيعته يحب العاجلة، ولا ينظر إلى الفوائد البعيدة، وغالباً يحاول أن يظفر بما هو متاح، ولو كان بطريق غير شرعي، وإذا تمكن وأمن من العقوبة فلا مانع يمنعه، فلا بد من قانون عقوبات، ومن العجيب أن المعارضين يقبلون قانون العقوبات في جميع الأنظمة البشرية، ولكنهم لا يقبلون ذلك في نظام الله تبارك وتعالى الخالق

(١) سورة الزلزلة: آية ٨.

والمالك لجميع العباد.

إذن، العلامة الطباطبائي رحمته الله يرى أن النبي هو من يُقيم الحجة، ويترتب على مخالفته العقاب، قال رحمته الله: «قد قيل: إن الفرق بين النبي والرسول بالعموم والخصوص المطلق فالرسول هو الذي يبعث فيؤمر بالتبليغ ويحمل الرسالة، والنبي هو الذي يبعث سواء أمر بالتبليغ أم لم يؤمر. لكن هذا الفرق لا يؤيده كلامه تعالى كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ مريم - ٥١، والآية في مقام المدح والتعظيم ولا يناسب هذا المقام التدرج من الخاص إلى العام كما لا يخفى. وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الحج - ٥١، حيث جمع في الكلام بين الرسول والنبي ثم جعل كلا منهما مرسلًا لكن قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ الزمر - ٦٩، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ الأحزاب - ٤٠، وكذا ما في الآية المبحوث عنها من قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات يعطي ظاهرها أن كل مبعوث من الله بالإرسال إلى الناس نبي ولا ينافي ذلك ما مر من قوله تعالى: وكان رسولاً نبياً الآية، فإن اللفظين قصد بهما معناهما من غير أن يصيرا اسمين مهجوري المعنى فالمعنى وكان رسولاً خبيراً بآيات الله ومعارفه، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الآية لإمكان أن يقال: إن النبي والرسول كليهما مرسلان إلى الناس، غير أن النبي

بعث لنبىء الناس بما عنده من نبأ الغيب لكونه خبيراً بما عند الله، والرسول هو المرسل برسالة خاصة زائدة على أصل نبأ النبوة كما يشعر به أمثال قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُوهُمْ فُضِّيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ يونس - ٤٧، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ الإسراء - ١٥، وعلى هذا فالنبي هو الذي يبين للناس صلاح معاشهم ومعادهم من أصول الدين وفروعه على ما اقتضته عناية الله من هداية الناس إلى سعادتهم، والرسول هو الحامل لرسالة خاصة مشتملة على إتمام حجة يستتبع مخالفته هلاكه أو عذاباً أو نحو ذلك قال تعالى: ﴿لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ النساء - ١٦٥، ولا يظهر من كلامه تعالى في الفرق بينهما أزيد مما يفيد لفظهما بحسب المفهوم، ولازمه هو الذي أشرنا إليه من أن للرسول شرف الوساطة بين الله تعالى وبين عباده وللنبي شرف العلم بالله وبما عنده^(١).

والعلامة الطباطبائي^{رحمته الله} يواجه المشكلة التي هو أثارها في وجه الشيخ المفيد^{رحمته الله}، فإنه إذا كان النبي من يتلقى الوحي ويبلغه والرسول من يتلقى الوحي ويبلغه ويُقيم الحجة، فلماذا قال الباري تبارك وتعالى ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾، فهنا يأتي محذور عطف العام على الخاص، والمدح بالأعلى ثم المدح بالأدنى ولا مخرج له^{رحمته الله} إلا أن يقول: المقصود بالنبوة هنا المعنى اللغوي، وقد فعل، ولكن له^{رحمته الله} كلام آخر، ومطلبه ليس واضحاً، ونحن نكتفي بهذا المقدار.

(١) تفسير الميزان: ج ٢ ص ١٤٣.

الاختلاف في درجة تلقي الوحي:

القول الثالث: لا فرق بين النبي والرسول في تلقي الوحي، وفي تبليغ الوحي، في إقامة الحجة التي يترتب على مخالفتها العقاب، فإن القرآن الكريم يقول: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾، وهذا يدل على أن الإنذار موجود عند الأنبياء، بل قد يُقال: لا معنى لجعل أحكام بلا استبطان عقوبة على الترك، فالعقوبة لطف لازم، إلا أن يقال بعدم بلوغ الملاك في زمان النبي حد الإرادة الشديدة.

نعم، الفرق بين مقام الرسالة ومقام النبوة في جهة رابعة، وهي درجة تلقي الوحي، فإن الله عز وجل إذا أرسل جبرائيل عليه السلام توجد حالات ثلاث: الحالة الأولى: أن يرى النبي جبرائيل في اليقظة.

الحالة الثانية: أن يسمع صوته.

الحالة الثالثة: أن يراه في المنام.

والرسول تتحقق فيه هذه الحالات الثلاث، ففي بعض الحالات يرى جبرائيل في اليقظة، والنبي فقط يسمع أو يرى في المنام ولا يرى في اليقظة، وفي هذا المضمون جملة من الروايات:

منها: عن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل وكان رسولاً نبياً قلت: ما هو الرسول من النبي قال النبي: هو الذي يرى في منامه ويسمع الصوت ولا يعاين الملك والرسول يعاين الملك ويكلمه قلت:

فالإمام ما منزلته قال: يسمع الصوت ولا يرى ولا يعاين ثم تلا وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث^(١).

ومنها: عن الحسن بن محبوب، عن الأحول قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الرسول والنبي والمحدث، قال: الرسول الذي يأتيه جبرئيل قبلاً فيراه ويكلمه فهذا الرسول، وأما النبي فهو الذي يرى في منامه نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام ونحو ما كان رأى رسول الله صلى الله عليه وآله من أسباب النبوة قبل الوحي حتى أتاه جبرئيل عليه السلام من عند الله بالرسالة وكان محمد صلى الله عليه وآله حين جمع له النبوة وجاءته الرسالة من عند الله يجيئه بها جبرئيل ويكلمه بها قبلاً ومن الأنبياء من جمع له النبوة ويرى في منامه ويأتيه الروح ويكلمه ويحدثه، من غير أن يكون يرى في اليقظة. وأما المحدث فهو الذي يحدث فيسمع ولا يعاين ولا يرى في منامه^(٢).

ومنها: عن بريد، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ (ولا محدث). قلت: جعلت فداك ليست هذه قراءتنا فما الرسول والنبي والمحدث؟ قال: الرسول: الذي يظهر له الملك فيكلمه، والنبي: هو الذي يرى في منامه، وربما اجتمعت النبوة والرسالة لواحد، والمحدث: الذي يسمع الصوت ولا يرى الصورة^(٣).

(١) بصائر الدرجات: ص ٣٨٨.

(٢) الكافي: ج ١ ص ١٧٦.

(٣) المصدر نفسه.

وإذا قلنا: يمتاز الرسول بمعاينة الملك، فنقصد بذلك أنه يمتاز بمعاينة الملك فيما إذا نزل بالوحي التشريعي، وكان العبد هو المقصود، أما إذا لم ينزل بالوحي، أو لم يكن هو المقصود، فيمكن أن يراه غير الرسول، كما تدل بعض الأخبار.

الوحي النبوي:

الأمر الثاني: في بيان بعض الأمور المرتبطة بوحي النبوة، والكلام في وحي النبوة سوف يكون في محاور أربعة:

معنى الوحي في اللغة:

المحور الأول: في معنى الوحي في اللغة.

إذا تتبعنا التعبيرات الفصيحة لكلمة الوحي، وكذلك ما ذكره علماء اللغة نظف بمعنى جامع، وهو أن الوحي إعلام سريع؛ ولأنه سريع قد يكون خفياً، فمثلاً لو أعلمت أخاك أو صديقك بالإشارة، فأنت أوحيت إليه، يقول ابن فارس في مقاييس اللغة: (و، ح، ي) أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء أو غيره، والوحي: الإشارة. والوحي: الكتاب والرسالة. وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي، كيف كان^(١).

وقال الراغب: أصل الوحي، الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل:

(١) معجم مقاييس اللغة: ج ٦ ص ٩٣.

أمر وحيّ أي سريع. وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرّد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة^(١).

وقال ابن بري: وحي إليه وأوحى: كلّمه بكلام يخفيه من غيره. ووحى وأوحى: أوماً. قال الشاعر: فأوحت إلينا والأنامل رسله^(٢).

وقال الزمخشري: أوحى إليه وأوحى بمعنى. ووحيت إليه وأوحيت: إذا كلّمته بما تخفيه عن غيره. وتوحّى أي أسرع، قال الأعشى: مثل ريح المسك ذاك ريحها صبّها الساقى إذا قيل: توح^(٣).

ويمكن أن يستظهر من كلام الراغب أن الوحي في الأساس يطلق على الإشارة السريعة، ثم أطلق على الإعلام بالإشارة بنحو سريع، ثم أطلق على كل إعلام سريع أو خفي، باعتبار أن الإشارة السريعة تكون في العادة خفية، فصار الوحي إعلاماً بطريقة خفية.

موارد استعمال الوحي في الكتاب العزيز:

ولأن الوحي إعلام بطريقة سريعة خفية استخدم القرآن الكريم كلمة الوحي في عدة موارد:

المورد الأول: هو الإشارة، يقول الباري عز وجل في قضية نبيه زكريا

(١) المفردات: ص ٥١٥.

(٢) لسان العرب: ج ١٥ ص ٣٨٠.

(٣) أساس البلاغة: ج ٢ ص ٤٩٦١. مريم: ١١.

(على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام): ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾^(١)، والمقصود بالرمز هنا الإشارة، ولهذا يقول الباري تبارك وتعالى في آية أخرى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^(٢)، فهو ﷺ خرج على قومه من المحراب، وكلمهم رمزاً بأن أشار إليهم أن سبّحوا بكرة وعشيّاً، فأطلق الوحي على الإشارة، باعتبار أن الإشارة من مصاديق الإعلام السريع الخفي.

المورد الثاني: هو جعل الشفرة الوراثية في الأنواع الحيّة، في النباتات والحيوانات والإنسان، والتي تقتضي أن تترتب سلوكيات خاصة، فنحن نجد أن الأنواع الحيّة تصدر منها بعض السلوكيات من دون تعليم ظاهري تستند إليه، مثلاً مولود الحصان يختلف عن مولود الإنسان في أنه - مولود الحصان - يحاول الوقوف والنهوض بعد ولادته مباشرة من دون أن يأمره أحد بالوقوف والنهوض، فهو بطبيعته يتحرّك نحو الوقوف بخلاف مولود الإنسان، بينما نجد مولود الحصان ومولود الإنسان يشتركان في التقام ثدي الأم من دون تعليم، كما نجد الأمهات يشتركن في أن الحليب يدر منهن في أول لحظات الولادة، وهذه السلوكيات لا تستند إلى تعليم ظاهر، وإنما تستند إلى تعليم تكويني خفي لا يشهده الناس، وهو جعل الشفرات الوراثية، والباري تبارك

(١) سورة آل عمران: آية ٤١.

(٢) سورة مريم: آية ١١.

وتعالى أودعها، فهو تعالى قد جعل شفرة خاصة في كل نوع، وأودع برجة معينة في كل كائن حي، وهذا الجعل ضرب من ضروب الإعلام الخفي إلا أنه تكويني، يقول تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾^(١)، فالمقصود بالوحي هنا الجعل التكويني بإيداع شفرة معينة تقتضي أن يتصرف النحل وفق سلوك فطري وغريزي معين، وهذا الإيداع بطريقة خفية وبطريقة سريعة.

المورد الثالث: جعل القوانين والسنن الكونية في عالم التكوين، فالباري تعالى كما جعل شفرة في الأنواع الحية جعل شفرة في هذا الكون الواسع بجميع أجزائه ومكوناته، وتلك الشفرة تتمثل في القوانين والسنن الحاكمة على حركة المادة، وهي تقتضي تنظم سير الكواكب والنجوم والمجرات، وهذا الإيداع ضرب من ضروب الإعلام الخفي إلا أنه إعلام تكويني، يقول تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(٢)، أي جعل النظام والقوانين التي تحكم كل سماء.

المورد الرابع: هو الإلهام والإلقاء في الروع والروح سواء كان في مورد

(١) سورة النحل: آية ٦٨.

(٢) سورة فصلت: آية ١١-١٢.

الخير أو كان في مورد الشر.

أما في مورد الخير، فكما في الوحي إلى أم موسى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنِ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَاَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١)، أو كما في الوحي إلى الحواريين ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا أَمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٢). فهذا إلهام، وهو إعلام خفي في خير.

وأما في مورد الشر، فكما في وحي الشياطين إلى أوليائهم: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾^(٣).

ففي هذه الموارد استخدم القرآن الكريم كلمة الوحي؛ لأنها تشترك في وجود إعلام سريع وخفي، وقد ذهب إقبال اللاهوري^(٤) في كتابه إحياء الفكر الديني في الإسلام إلى أن للوحي معنى واحداً، ولكن له مراتب مختلفة، تختلف باختلاف الموجودات، ففي السماء والنحل والحواريين والأنبياء يوجد اتصال بالله تبارك وتعالى لكن كل موجود يتصل بحسبه، فاتصال السماء بنحو، واتصال النحل بنحو، واتصال الإنسان بنحو، فالوحي حقيقة جامعة، وهي أن الله تبارك وتعالى يتصل بالموجودات أو الموجودات تتصل بالله تبارك

(١) سورة القصص: آية ٧.

(٢) سورة المائدة: آية ١١١.

(٣) سورة الأنعام: آية ١٢١.

(٤) نقلاً من كتاب النبوة للشهيد المطهري رحمته الله: ص ١٣٤.

وتعالى إلا أن هذا الاتصال يختلف من موجود إلى موجود آخر، واتصال الإنسان مختلف، ويُسمى بالإلهام، وهذا الاتصال له درجات ومراتب، وأعلى الدرجات ومراتب اتصال الأنبياء الذي يسمى بوحى الأنبياء.

والدكتور عبد الكريم سروش في كتابه بسط التجربة^(١) أخذ هذا المعنى من إقبال اللاهوري فقال: لا فرق من حيث الماهية والحقيقة بين وحي الأنبياء وإلهام ومكاشفات العرفاء والصوفية، فوحي الأنبياء ضرب من ضروب الإلهام، نظير الوحي الذي حصل لأم موسى أو للحواريين، وإنما الفرق في درجة الكشف، فإنه يختلف في أن وحي الأنبياء إلهام شديد أكثر وضوحاً، ويغلي فيه وجود النبي فتتبخر منه الأحكام والتعاليم، فتوجد عنده شريعة يُبلغها للناس، بخلاف العرفاء والصوفية، فإن وحيهم لازم غير متعدي، وطبعاً هذا الكلام رجم بالغيب بلا دليل وشاهد؛ لأن حقيقة الوحي بالنسبة إلينا حقيقة غيبية؛ لأننا لا نعرف ماهية وحي الأنبياء لأننا - كما سوف نذكر - إن شاء الله - لا نمتلك هذا الطريق المعرفي، وبالتالي لا يمكن أن نعرف بالتجربة وبالدليل العقلي حقيقته، وهل هو من سنخ الإلهام ولكن يختلف بالدرجة عن إلهام أم موسى، أم هو طريق رابع يختلف عن طريق الحس والتجربة وطريق العقل وطريق الإلهام؟ فوحي الأنبياء حقيقة غيبية، ولا يمكن أن نعرفها إلا إذا وجد إخبار من الله تبارك وتعالى أو من المعصومين عليهم السلام.

(١) راجع ص ١٧ من كتابه.

معنى وحي النبوة:

المحور الثاني: في بيان معنى وحي النبوة

ليس هدفنا هنا البحث عن حقيقة الوحي في اللغة، وإنما أن نتحدث عن الوحي الخاص، وهو وحي الأنبياء، وهو الذي يعنينا في هذه السلسلة النبوية، ولا إشكال في أن الأنبياء يمتازون عن غيرهم بالوحي، فيوجد عندهم طريق معرفي يتميز به النبي عن سائر الناس، ويسمى الوحي، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذِنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾^(١).

فما هي حقيقة الوحي الخاص الذي يمتاز به الأنبياء عن سائر أبناء الجنس البشري؟

في مقام الجواب على هذا السؤال أذكر أمرين:

عدم إمكان معرفة حقيقة الوحي بالدقة:

الأمر الأول: هو أننا لا يمكن أن نتعرف على حقيقة الوحي بالدقة، وإن بينت لنا الروايات بعض الأمور التي تميز الوحي؛ لأن ما تذكره الروايات مجرد عناوين لا تعكس واقع الوحي، فواقع الوحي يعرفه من وقف عليه، لا من ذكرت له بعض الأوصاف التقريبية، فبالنسبة إلينا الوحي حقيقة غيبية؛

(١) الشورى: آية ٥١.

لأننا لا نمتلك هذه القناة المعرفية، فإذا حاولت النصوص أن تقرب لنا هذه الحقيقة، فهي في الواقع تذكر بعض الأمور التقريبية التي يمكن أن نقف عليها بالوسائل المعرفية الموجودة عندنا، فمثلاً إذا قالت الروايات: (الوحي صوت كصوت السلسلة)، (نكتة في القلب)، (وقر في الأذن)، فهذه التعبيرات لا تُبين حقيقة الوحي، وإنما هي تستثمر الوسائل الإدراكية التي عندنا لتقرب حقيقة غيبية لا توجد عندنا وسيلة لإدراكها، حتى يتضح هذا المعنى أذكر مثلاً:

لو فرضنا أن شخصاً بصيراً يريد أن يُبين لرجل ضير (أعمى) الفرق بين اللون البرتقالي واللون الأصفر، فهل يمكن أن يُوقف الأعمى على حقيقة الفرق بين هذين اللونين؟

الجواب: لا يمكن مهما حاول. نعم، هذا البصير إذا كان بصيراً وذكياً سوف يحاول أن يستفيد من الوسائل الحسية الموجودة عند الأعمى لتقريب الفرق؛ فمثلاً يقول له: اللون البرتقالي هو لون البرتقالة التي لها الحجم المعين - هو يدرك الحجم باللمس - أو الطعم المعين - هو يدرك الطعم بالذوق - أو الرائحة المعينة، وهو يدركها لأنه يملك حاسة الشم -، فيستثمر حواساً موجودة لكي يُقرب له حقيقة الشيء الذي لا يُدركه بحواسه بسبب عدم وجود الطريق المعرفي إليه، ويبقى يفقد العلم الدقيق، ولهذا قيل: «من فقد حساً فقد علماً»، فلأن الضير لا يتمكن من معرفة الفرق بين الألوان إلا إذا أبصر، يُقرب له الأمر بذكر مثال مقرب.

الأمر كذلك في حقيقة الوحي، فنحن - عامة الناس - لا يوجد عندنا هذا الطريق فلا يمكن أن نقف على حقيقة المعلومات الوحيانية التي يتلقاها النبي بالوحي فماذا يصنع النبي؟ وكيف يُبين لنا حقيقة الوحي، والأمور التي يقف عليها في عملية تلقي الوحي؟ يستثمر وسائل حسية موجودة عندنا، فيستخدم بعض الرموز لكي يُقرب لنا هذه الحقيقة فيقول: (صوت كصوت السلسلة)، (نكتة في القلب)، (وقر في الأذن)، وهذا نحو من أنحاء التقريب، وإلا نحن حالنا بالنسبة للوحي حال ذلك الرجل الأعمى بالنسبة إلى البصر والألوان، لا يمكن أن نُميز بدقة؛ لأننا لا نقف على واقع حقيقة الوحي بسبب فقد الطريق المعرفي الذي يمتاز به الأنبياء.

أحكام الوحي في النصوص:

الأمر الثاني: هل النصوص الدينية ذكرت تعريفاً يوضح لنا حقيقة الوحي؟

الجواب: كلاً، فلا يوجد عندنا نص ديني يحاول أن يُعرف الوحي أو يُبين لنا حقيقة الوحي.

نعم، النصوص ذكرت أحكاماً للوحي وهذه الأحكام تميّز الوحي، ونذكر بعضها:

الوحي تعليم بلا وساطة بشر:

الحكم الأول: هو لن وحي النبوة فيه تعليم من الله تبارك وتعالى من دون وساطة بشر، فقد يكون بواسطة ملك، ولكن لا يكون بوساطة بشر، يقول تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾^(١)، فالله عز وجل في الوحي يُعلم النبي ويعطيه بعض المعارف إما مباشرة أو بواسطة ملك الوحي، ويقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾^(٢)، ويقول: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾^(٣)، فالوحي تعليم من الله تبارك وتعالى، وليس كما يقول الفلاسفة أو العرفاء والصوفية بأنه صعود بعد التصفية، بمعنى أن النبي يقوم بعملية تصفية باطنه وذاته، ثم يصعد ويلتقي ويتصل بموجودات عالم الغيب، ويطلع على موجودات عالم الغيب، ويرى حقائق الغيب - كما هي مكاشفات العرفاء -، أو يتصل بعالم العقول أو يطلع على العقل الفعال ويمثل عنده - كما يقول بعض الفلاسفة -، فمن الحق أن الوحي فيه نفس صافية مصطفاة عالية، وفيه سمو روحي ورفعة في روح النبي، إلا أنه بحسب النصوص تعليم من الله تبارك وتعالى، فمعارف الوحي تنزل بأمر الله تبارك وتعالى كما هي بحدها على قلب النبي الأكرم ﷺ وسائر الأنبياء، والنبي دوره التلقي والتبليغ، لا أن

(١) سورة النجم: آية ٥.

(٢) سورة الشورى: آية ٥١.

(٣) سورة الشعراء: آية ١٩٣-١٩٤.

النبي هو يجتهد بتربية نفسه، ثم يصعد، ويرقى إلى حقائق الغيب ويُنزل هذه الحقائق إلينا، فالباري هو الذي يتكفل بتنزيل هذه الحقائق على قلب النبي.

الوحي طريق قلبي:

الحكم الثاني: هو أن الوحي طريق غيبي يقف فيه النبي بواقعه وحقيقته وقلبه وباطنه على الوحي، فليس الوحي طريقاً يقف فيه النبي على الحقيقة بواسطة الحس أو التجربة أو بواسطة البراهين العقلية، فالنبي لا يستخدم وسائل تُكسبه بالاتصال بالخارج المعلومات التي ترد عليه بعد جهد فكري، بل يحصل على معلومات مباشرة، ويقف النبي بقلبه وبباطنه ولبه عليها بعد أن ينزلها الله تبارك وتعالى، يقول تبارك وتعالى ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾^(١)، فالفؤاد الذي هو واقع النبي وحقيقة النبي يُدرك معاني الوحي، وليس الوحي يأتي من خلال الوسائل الإدراكية، بل نزول للغيب على قلب النبي وفؤاده، يقول تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾، فقلب النبي هو حقيقة النبي واقع النبي، وهو المتلقي.

اليقين التام حال التلقي:

الحكم الثالث: هو اليقين والاطمئنان والاستقرار التام في حالة تلقي الوحي، فالنبي إذا انكشف له الوحي لا يشك في أن ما يراه وحي ومن الله

(١) سورة النجم: آية ١١.

تبارك وتعالى، ولا يحتاج إلى شيء غير الله تبارك وتعالى في حصول اليقين والاستقرار والجزم، يقول تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، ويقول تبارك وتعالى: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾^(١)، فإنه يوجد حافظ وراصد يجعل النبي في حالة يقين وفي حالة جزم أن ما يراه من الله، وأنه حق لا مرية فيه، فيصل الوحي كما هو بدقة متناهية، وأيضاً لا يوجد عند النبي ريب ولا يوجد عنده شك في أن ما يراه حقائق من الله تبارك وتعالى.

وما أبعد هذا المعنى عما تدل عليه الرواية الثانية من كتاب بدء الوحي من كتاب البخاري حيث إن البخاري يروي أن جبرائيل لما نزل على النبي ﷺ في المرة الأولى عذبه ثلاث مرات، وهو يقول له اقرأ، ثم بعد ذلك عاد النبي ﷺ إلى السيد خديجة عليها السلام وهو يقول: لها خشيت على نفسي.

ففي كتاب البخاري: عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: (ما أنا بقارئ). قال:

(١) سورة الجن: آية ٢٧.

(فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: (زملوني زملوني). فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: (لقد خشيت على نفسي). فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا بن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا بن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله به على موسى، يا ليتني فيها جذع، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: (أومر جي هم). قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ

مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي^(١).

وذهب بعض العامة إلى أن المراد في عبارة (لقد خشيت على نفسي) أنه خاف على نفسه الجنون والهلوسة، وأنه غلب على عقله وأخذ يتوهم رؤية الملك، أو يلعب به الشيطان - والعياذ بالله -، قال النووي: «قوله ﷺ (لقد خشيت على نفسي) قال القاضي عياض: ليس هو بمعنى الشك فيما أتاه من الله تعالى لكنه، ربما خشي أن لا يقوى على مقاومة هذا الأمر ولا يقدر على حمل أعباء الوحي، فتزهد نفسه، أو يكون هذا لأول ما رأى التبشير في النوم واليقظة وسمع الصوت قبل لقاء الملك وتحققه رسالة ربه، فيكون خاف أن يكون من الشيطان الرجيم، فأما منذ جاءه الملك برسالة ربه سبحانه وتعالى فلا يجوز عليه الشك فيه ولا يخشى من تسلط الشيطان عليه وعلى هذا الطريق يحمل جميع ما ورد من مثل هذا في حديث البعث هذا كلام القاضي في شرح صحيح مسلم وذكر أيضاً في كتابه الشفاء هذين الاحتمالين في كلام مبسوط وهذا الاحتمال الثاني ضعيف لأنه خلاف تصريح الحديث لأن هذا كان بعد غط الملك وإتيانه باقراً باسم ربك خلق والله أعلم»^(٢).

(١) صحيح البخاري ط مشكول ج ١ ص ٥ - ٦ وج ٩ ص ٣٨، وصحيح مسلم: ج ١ ص ٩٧، وليراجع تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٤٧، والمصنف لعبد الرزاق: ج ٥ ص ٣٢٢ / ٣٢٣، وتاريخ الخميس: ج ١ ص ٢٨٢، والسيرة النبوية لدحان: ج ١ ص ٨٢، والسيرة الحلبية ج ١ ص ٢٤٢ / ٢٤٣، وراجع الأوائل: ج ١ ص ١٤٥ / ١٤٦.

(٢) شرح مسلم للنووي: ج ٢ ص ٢٠٠.

أقول: كلاهما يحتمل تلاعب الشيطان بعد وحي التبشير في النوم واليقظة وسمع الصوت قبل لقاء الملك وتحققه رسالة ربه، فهو ﷺ خاف أن يكون من الشيطان الرجيم، ولكن مشكلة النووي عدم انسجام هذا مع ظاهر الحديث.

وقال ابن حجر: «قوله: (لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي) دَلَّ هَذَا مَعَ قَوْلِهِ «يَرْجِفُ فُؤَادُهُ» عَلَى انْفِعَالٍ حَصَلَ لَهُ مِنْ مَحْيٍ الْمَلِكِ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ «رَمَلُونِي». وَالْخَشْيَةُ الْمَذْكُورَةُ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِهَا عَلَى اثْنَيْ عَشَرَ قَوْلًا: أَوَّلُهَا: الْجُنُونُ وَأَنْ يَكُونَ مَا رَأَاهُ مِنْ جِنْسِ الْكَهَانَةِ، جَاءَ مُصَرِّحًا بِهِ فِي عِدَّةِ طُرُقٍ، وَأَبْطَلَهُ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ وَحَقَّقَ لَهُ أَنْ يُبْطَلَ، لَكِنْ حَمَلَهُ الْإِسْمَاعِيلِيُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ حَصَلَ لَهُ قَبْلَ حُصُولِ الْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ لَهُ أَنَّ الَّذِي جَاءَهُ مَلَكٌ وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى.

ثَانِيهَا: الْهَاجِسُ، وَهُوَ بَاطِلٌ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَقِرُّ وَهَذَا اسْتَقَرَّ وَحَصَلَتْ بَيْنَهُمَا الْمُرَاجَعَةُ. ثَالِثُهَا: الْمَوْتُ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ. رَابِعُهَا: الْمَرَضُ، وَقَدْ جَزَمَ بِهِ ابْنُ أَبِي جَهْرَةَ. خَامِسُهَا: دَوَامُ الْمَرَضِ. سَادِسُهَا: الْعَجْزُ عَنْ حَمْلِ أَعْبَاءِ النُّبُوَّةِ. سَابِعُهَا: الْعَجْزُ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الْمَلِكِ مِنَ الرُّعْبِ. ثَامِنُهَا: عَدَمُ الصَّبْرِ عَلَى أَذَى قَوْمِهِ.

تَاسِعُهَا: أَنْ يَقْتُلُوهُ. عَاشِرُهَا: مُفَارَقَةُ الْوَطَنِ. حَادِي عَشْرُهَا: تَكْذِيبُهُمْ إِيَّاهُ. ثَانِي عَشْرُهَا: تَعْيِيرُهُمْ إِيَّاهُ. وَأَوَّلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ وَأَسْلَمُهَا مِنَ الْإِزْيَابِ الثَّلَاثُ وَاللَّذَانِ بَعْدَهُ، وَمَا عَدَاَهَا فَهُوَ مُعْتَرَضٌ. وَاللَّهُ الْمُوقِّعُ».

والعجيب في هذه الرواية أنه ﷺ لم يطمئن حتى بعد أن أوحى إليه وصار نبياً. نعم، لما أخذته السيد خديجة عليها السلام إلى ورقة بن نوفل، وقال له: هذا هو

الناموس الذي ينزل على نبي الله موسى اطمأن لكلام ورقة، فورقة - هذه الشخصية التي لعلها شخصية أسطورية لا وجود في التاريخ - آمنت بنبوة النبي ﷺ قبل النبي نفسه، وهو مصدر إيمان النبي ﷺ بما يراه في الوحي! وينبغي عد نوفل أول من أسلم من الرجال، وقبل النبي ﷺ بناء على هذه الرواية الباطلة!

منهج القيمة المعرفية للوحي النبوي:

المحور الثالث: وهو في الإجابة على سؤال مهم جداً تنبني على إجابته قيمة الدين.

هل الوحي طريق مأمون لمعرفة الحقائق الواقعية أم لا؟ فنحن نؤمن بوجود عالم الملائكة، ونؤمن بوجود عالم الجن، وعالم البرزخ، وبأحوال يوم القيامة، وبتشريعات الله تبارك وتعالى بسبب إخبار الأنبياء ﷺ، فإن التشريع الإلهي قد وصل إلينا من الله تبارك وتعالى بواسطة الوحي، فهل للوحي قيمة معرفية، ويمكن به أن نعرف الواقع، ونتعرف على الحقائق الواقعية أم لا؟ لكي يتضح الجواب على هذا السؤال أذكر أموراً ثلاثة:

نقد المنهج المادي في تقييم الوحي:

الأمر الأول: جملة من فلاسفة أوروبا ذهبوا إلى أن الطريق الوحيد لمعرفة الواقع ينحصر في الحس والتجربة، فقالوا: ما يمكن أن يدرك بالحس، ويمكن

أن يخضع للتجربة يسمى علماً، وإلا يكون خرافة وعلماً مزيفاً، فإذا أخضعناه للتجربة وتحققنا من صدقه واتضح أنه حق حينئذ يسمى بالعلم الحق، ومن الفلاسفة الأوربيين تبناوا هذا المبنى (فرانسيس بيكون Francis) و (ديفيد هيوم David Hume) و (جورج باركلي George Berkeley) و (أوغست كونت Auguste Comte)، ولأن هؤلاء آمنوا بهذا المبدأ في نظرية المعرفة ذهبوا إلى أن الدين وما يأتي به خرافة، والمعلومات التي تستند إلى الوحي لا واقعية لها؛ لأنها لا يمكن أن تدرس بالحس وليست أمراً تجريبياً أو ليست قابلة للتجربة، وبعضهم ترقى، فصنف علم النفس - الذي هو من العلوم الحديثة المهمة - إلى صنفين:

الصنف الأول: علم النفس السلوكي، الذي يؤمن بأن الإنسان مجرد موجود مادي يتكون من خلايا مادية، ومصدر أي سلوك تفاعلات حيوية فسلجيه عضوية في الإنسان، فقال: بأن هذا الصنف - من علم النفس - علم حقيقي؛ لأنه يمكن أن يجرب.

الصنف الثاني: علم النفس التحليلي الذين ينبنو على وجود العقل، والعقل ليس أمراً حسيّاً، فهناك فرق بين الدماغ وبين العقل، وقد قسم هذا الصنف العقل إلى عقل ظاهر وعقل باطن، وحاول أن يُفسر السلوك بالعقل الباطن، وحيث إن هذا الصنف استند إلى العقل الباطن، وهو أمر غير حسي، لهذا هو غير علم حقيقة، بل هو مزيف.

الأمر الثاني: لم يقبل الفلاسفة الإلهيون المتدينون مبدأ التجريبيين، ورفضوا أن تكون التجربة هي الطريق الوحيد لمعرفة الحقائق، فقالوا: لا يمكن أن نقول: إن مصدر المعرفة والطريق المأمون إلى الواقع ينحصر في الحس والتجربة؛ لأن التجربة تعتمد على قواعد قبلية عقلية سابقة على التجربة ليست حسية، وليست خاضعة للتجربة، بل تعتمد عليها كل تجربة في قيمتها، فإن كل تجربة لا يمكن أن تُنتج وتكون طريقاً إلى معرفة الواقع إلا إذا آمنا بهذه الأصول السابقة على التجربة، فإذا قلنا: الطريق هو التجربة فقط سوف تنهار هذه الأصول، وإذا انهارت سوف تنهار التجربة؛ لأن التجربة تعتمد على هذه الأصول.

وأذكر تجربة بسيطة عفوية نقوم بها في حياتنا اليومية:

نحن نقول: إن سبب ارتفاع الحرارة في النهار الشمس؛ لأننا نجد بالحس أن الحرارة ترتفع في النهار وتنخفض في الليل، ولا فرق بين النهار والليل إلا في شروق الشمس وغروب الشمس، ونتيجة هذه الملاحظة هي أن الشمس مصدر وعلّة ارتفاع الحرارة في النهار، وهذه التجربة لا يمكن أن تكون مفيدة ونافعة، وتفيد العلم بأن الشمس هي علّة ارتفاع الحرارة إلا إذا آمنا بأصلين عقليين ليسا تجريبيين:

الأصل الأول: استحالة اجتماع النقيضين، وهو إذا كان الشيء موجوداً يستحيل أن يكون معدوماً، وإذا كان معدوماً يستحيل أن يكون موجوداً.

لو كنا نؤمن بإمكان أن تكون الشمس موجودة وغير موجودة في نفس الوقت، ويمكن أن تكون مؤثرة في الحرارة وغير مؤثرة في نفس الوقت، ويمكن أن تكون مؤثرة في الحرارة والحرارة موجودة والحرارة غير موجودة في نفس الوقت، فهل يمكن أن نصل إلى أن الشمس علة لارتفاع الحرارة؟
الجواب: لا يمكن، فبعد هذه الفوضى المعرفية لا يمكن أن نصل إلى هذه النتيجة.

الأصل الثاني: استحالة وجود حادث من دون مُحدث.

لو كنا نقول بإمكان أن ترتفع الحرارة بدون علة، فهل إذا رأينا الحرارة ترتفع يحصل عندنا علم أن الشمس هي العلة وهي السبب مع اقتران الشمس بارتفاع الحرارة مليون مرة؟

الجواب: لا يمكن؛ لأننا نجزئ أن ترتفع الحرارة من دون سبب، كما نجيز أن توجد الحرارة من رأس من دون سبب. إذن، في كل تجربة لابد من هذين الأصلين، وهذان الأصلان ليسا تجريبيين، لماذا ليسا تجريبيين؟

الجواب: لأن استحالة اجتماع النقيضين ليست موجودة في الخارج الحسي، وإذا لم تكن موجود، فكيف يقع عليها الحس في الخارج؟

كذلك استحالة وجود حادث من دون مُحدث، فإنه قانون عقلي ندركه بالضرورة ونعتمد عليه في العلوم التجريبية، فمبدأ أن التجربة الطريق الوحيد ليس مبدأً صحيحاً، ولو قلنا به سوف تنهار التجربة، ولن تكون لها قيمة؛

لأننا سنلغي قيمة استحالة اجتماع النقيضين واستحالة وجود حادث من دون محدث، وبالتالي سوف نلغي قيمة ما يترتب على هذين الأصلين وهو التجربة. الأمر الثالث: إذا كانت هناك معلومات قبلية عقلية هي الأساس في قيمة التجربة، فالمنهج العلمي يقتضي أن نأتي عند هذه الأصول القبلية، ونلاحظ هل هي تعطي الوحي قيمة، كما تعطي التجربة قيمة أم لا؟

من الخطأ أن نقول: (مباشرة الدين خرافة؛ لأن معلومات الوحي ليست تجريبية) دون أن نلاحظ الأسس المعرفية، فلا بد أولاً أن نعرف أن التجربة تستند إلى أساس ثم نأتي عند هذا الأساس، ونرى هل هو يثبت القيمة للوحي كما يثبت القيمة للتجربة أم لا؟ وإذا كان يثبت القيمة للوحي، وهو أساس للوحي كما أنه أساس للتجربة سيكون الوحي طريقاً قطعياً مأموناً، ويكشف لنا حقائق الواقع.

والدين لم يأت ليبيّن لنا مسائل الفيزياء الفلك والرياضيات والطب، فإن الهدف من الدين الهداية. نعم، قد يبين الدين بعض الحقائق باعتبار أنها تقع في صراط هداية الناس، وهذا ما فعله الدين، والفلاسفة يقولون أدل دليل على الإمكان الوقوع، فقد وقع أن كان الدين طريقاً مبيّناً لحقائق الواقع، فقبل بعثة النبي الأكرم ﷺ كانت الفكرة المسيطرة على عقول الفلاسفة تقريباً فكرة أن الكون قديم وليس حادثاً، وفكرة أن الكون ساكن لا يتمدد، وهذه الفكرة انعكست على الكتاب المقدس عند النصارى، فمثلاً نجد في ٢ بطرس ٣/ ٥

هذه العبارة: (السموات كانت منذ القدم والأرض بكلمة الرب قائمة من الماء وبالماء)، فهذه العبارة تدل على تأثير فكرة قدم العالم على الكتاب المقدس عند النبي الأكرم ﷺ قبل ألف وأربعمائة سنة جاء بكتاب ينص على حدوث الكون ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾^(١)، وفي عصرنا الراهن تشكل أحدث وآخر النظريات نظرية الانفجار العظيم (*Big Bang*) التي تبرهن على حدوث الكون، وأنه ليس قديماً، وعليها شاهد كثيرة جداً.

كما أن النبي ﷺ جاء بكتاب يُبَيِّن أن الكون ليس ساكناً، وإنما هو في حالة حركة وتمدد، يقول تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾^(٢)، فعملية التوسعة والتمدد قائمة في الكون، والناس إلى زمن إسحاق نيوتن وبعد زمن إسحاق نيوتن كانوا يعتقدون بثبات وسكون الكون، والآن بعد تجارب هابل (*Hubble*) ومجموعة من الدراسات توصل علماء الفلك والفيزياء إلى أن العالم يتمدد.

فالقرآن الكريم قبل ١٤٠٠ سنة حدثنا عن هذه الحقيقة، وسبق العلماء، فالوحي كان طريقاً يكشف لنا عن بعض الحقائق.

فالواجب علينا أن نلاحظ الأصول العقلية التي طبقناها في التجربة، ونحاول أن نطبقها في الوحي، وإذا وجدنا دليلاً عقلياً يثبت وجود الله تبارك

(١) سورة الطلاق: آية ١٢.

(٢) سورة الذاريات: آية ٤٧.

وتعالى، ودليلاً عقلياً يثبت أن الله تبارك وتعالى محيط بكل شيء، وأنه كامل تام له عناية وحكيم، ووجود دليل عقلي يثبت صدق النبي وأنه مؤيد من الله، ويُخبر عن الله تبارك وتعالى، فأخبرنا النبي عن الله شيئاً سوف يحصل لنا اليقين به، فهذه أصول عقلية تبرهن على حقانية الوحي، وهذا ما ذكره الإمام الصادق عليه السلام للزنديق الذي قال له من أين أثبت الأنبياء والرسول؟ فقد قَالَ عليه السلام: «إِنَّا لَمَّا أَثْبَتْنَا أَنَّ لَنَا خَالِقاً صَانِعاً مُتَعَالِياً عَنَّا وَعَنْ جَمِيعِ مَا خَلَقَ وَكَانَ ذَلِكَ الصَّانِعُ حَكِيماً مُتَعَالِياً لَمْ يَجْزُ أَنْ يُشَاهِدَهُ خَلْقُهُ وَلَا يُلَامِسُوهُ فَيَبْشِرُهُمْ وَيُبَاشِرُوهُ وَيُحَاجُّهُمْ وَيُحَاجُّوهُ ثَبَتَ أَنَّ لَهُ سُفَرَاءَ فِي خَلْقِهِ يُعَبِّرُونَ عَنْهُ إِلَى خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ وَمَا بِهِ بَقَاؤُهُمْ وَفِي تَرْكِه فَنَاقُؤُهُمْ - فَثَبَتَ الْآمُرُونَ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ فِي خَلْقِهِ وَالْمُعَبِّرُونَ عَنْهُ جَلَّ وَعَزَّ وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ عليهم السلام وَصَفَوْتُهُ مِنْ خَلْقِهِ حُكَمَاءَ مُؤَدِّينَ بِالْحِكْمَةِ مَبْعُوثِينَ بِهَا غَيْرَ مُشَارِكِينَ لِلنَّاسِ عَلَى مُشَارَكَتِهِمْ هُمْ فِي الْخَلْقِ وَالتَّرَكِيبِ فِي شَيْءٍ مِنْ أَحْوَالِهِمْ مُؤَيَّدِينَ مِنْ عِنْدِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ بِالْحِكْمَةِ ثُمَّ ثَبَتَ ذَلِكَ فِي كُلِّ دَهْرٍ وَزَمَانٍ مِمَّا أَتَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ مِنَ الدَّلَائِلِ وَالْبَرَاهِينِ لِكَيْلَا تَخْلُو أَرْضُ اللَّهِ مِنْ حُجَّةٍ يَكُونُ مَعَهُ عِلْمٌ يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ مَقَالَتِهِ وَجَوَازِ عَدَالَتِهِ»^(١).

فإذا ثبت وجود خالق حكيم عنده عناية بخلقه خلقهم، ووضعهم في موضوعهم المناسب وهو صراط التكامل، سوف يثبت أن هذا الخالق لن

يُهمَل الخلق، وسوف يجعل لهم حجة صادقة تُبَيِّن لهم الحق، وهذا الدليل يجري في الإمام ويثبت ضرورة وجود حجة في كل زمان، إما أن يكون نبياً أو يكون إماماً؛ لأن الإمام قائم مقام النبي في الحجة البالغة عن الحكيم تعالى.

نقد بعض النظريات الحديثة في تفسير حقيقة الوحي:

المحور الرابع: وهو في نقد بعض النظريات الحديثة في تفسير حقيقة الوحي، وسوف يتضح أن بعض هذه النظريات قديم له جذور تاريخية تمتد إلى زمان النبي الأكرم ﷺ، وقد تبني هذه النظريات - التي سوف نتعرض لها - جملة من المستشرقين.

فنحن - المسلمين - نعتقد أن الوحي تعليم إلهي خاص، وقد يكون بوساطة ملك، وفي مقابل هذه العقيدة توجد نظريات:

نظرية المرض العقلي والنفسي:

النظرية الأولى: لثيوفان (باليونانية: Θεοφάνης Ομολογητής) المتوفى تقريباً في: ٨٢٠ م، وتبعه المستشرق النمساوي ألويس شبرنجر (بالألمانية: *Aloys Sprenger*) صاحب كتاب (حياة محمد وثقافته)^(١).

وترى هذه النظرية أن النبي ﷺ لم يتلق شيئاً من الله تبارك وتعالى، ولم ينزل عليه ملك، ولم يتصل بعالم الغيب، وعملية تلقي الوحي في الحقيقة

(١) حياة محمد وثقافته: ص ٢٦٩، ٢٧٥.

ليست إلا نوبات صرع كان يصاب بها النبي ﷺ، واعتمد اشبرنجر في هذه النظرية في كتابه على روايات العامة الواردة في الحالات التي تصيب النبي ﷺ حال نزول الوحي، وهذه الروايات موجودة في كتاب البخاري وفي كتاب مسلم وفي سيرة ابن إسحاق وفي طبقات ابن سعد، وغيرها، ومنها ما في البخاري وغيره إنَّ الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيتُ عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول، وفي آخر إنَّ الحارث ابن هشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله ﷺ يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول، وفي ثالث قال: أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، ثم يفصم عني وقد وعيتُ، وأحياناً ملك في مثل صورة الرجل، فأعي ما يقول.. فهو إذا نزل عليه الوحي يدخل في حالة تجعل العرق يجري منه حتى في اليوم البارد جداً، وفي طبقات ابن سعد عن عبادة ابن الصامت كان الوحي إذا نزل على النبي ﷺ يكرّب له ويربّد وجهه، ونقل ابن حبان: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه كرب لذلك وتربّد له.

فهو يتضايق ويدخل في حالة كرب ويتغير وجهه أو يتغير لون وجهه، وفي رواية أخرى في طبقات ابن سعد - والعياذ بالله - إذا أوحى إلى الرسول ﷺ

يوقد لذلك ساعة- أي يصاب بحالة إغماء أو حالة شبيهة بالإغماء - كهيئة السكران.

واستنتج شبرنجر أنه ﷺ كان مريضاً بمرض يسمى (الهستيريا العصبية)، فشبرنجر الذي أورد هذه الروايات يتسرعّ ليستنتج قائلاً: «كان محمد يعاني من مرض كان حين يأتيه يملكه، وهو مرض شائع في بلادنا لدى النساء ولدى الرجال بشكل نادر. وهذا المرض يأخذ أسماء متعددة شون لين، الهيستريا العصبية». والهيستريا العصبية مرض نسائي؛ ولهذا يضيف: «إنهم مخطئون أولئك الذين يعتقدون أن هذا المرض لا يصيب الرجال أبداً لأنه يظهر أيضاً عند البشر من جنس الرجال ولكن بشكل نادر جداً، وكالعادة فإن هذا المرض يبدو في صورة نوبة. وحين كان يصيب محمداً بشكل خفيف كان يظهر الترنح والتشنج والذي هو الصفة المميزة لهذا الألم. وكانت شفتاه تضطربان وكذلك لسانه يبدو وكأنه يريد أن يلحق شيئاً: وكانت عيناه تدور في وقت قصير من جهة الأخرى ورأسه تتحرك بشكل تلقائي. وفي النوبات الخفيفة لهذا المرض تكون إرادة التحكم في الحركات قوية كما يمكننا إيقاف رعشة الأعضاء بإرادة قوية، ولكن في الحالات الأعنف تكون الحركات آلية تحت ضغط الإرادة. وفي نفس الوقت كان يعاني كذلك آلاماً في الرأس (الهستيريا المفتتة للرأس) وعندما تكون النوبات عنيفة، يصل به الأمر إلى التخشب. وكان محمد يسقط على الأرض وكأنه ثمل، ويصبح وجهه محمراً وتنفسه ثقيلًا

ويغط «مثل بغير»، ولكن يبدو أنه لم يكن يفقد الوعي، ولذلك فإن حركاته كانت تعرف بالصرع. وفور انتهاء زيارات الملك يكون محمد قادراً على التحدث إلى الأشخاص الحاضرين بما أوحى إليه وما جاءه الملك به، وحتى إذا كانت لهجته ضعيفة في أحيان كثيرة فإنها تثبت أنه كان في كامل وعيه. ومن خصائص الهستيريا المعروفة أنها تشبه أنواعاً أخرى من الأمراض، ولذلك فإنه ليس المعاناة أن يخضع الشخص الواقع تحت تأثير الهستيريا لهذه النوبة مؤقتاً، وهذا المرض المتغير يظهر مرة في شكل التهاب رئوي ومرة أخرى على شكل أزمة قلبية تهدد بالموت في أحيان كثيرة وأحياناً يأخذ شكل الربو الكثيف. ويكون الأشخاص الحاضرون مرعوبين من ذلك، ولكن إذا فحصنا الحالة بطريقة أكثر دقة فتكشف أن أصل هذه الأعراض المرعبة لا يعدو أن يكون هستيريا لا خطر منها، وقد تتحول إلى حالة صحية جيدة، وربما إلى قوة طاغية سريعاً كما هو الحال عند تحول الأطفال من الدموع إلى الضحكات»^(١).

ويسير شبرنجر على نفس المنوال قائلاً إن «هستيريا محمد كانت تأخذ شكل الحمى عادة، وذلك لأنه في المناطق الاستوائية وخاصة المدينة تعتبر الحمى المتقلبة هي المرض السائد، وكل المشاكل الصحية تندرج تحته. وكانت نوبات محمد تأخذ عادة شكل الحمى. وكان وجهه يصبح شاحباً وكان يضطرب ويشعر بقشعريرة وفي النهاية تسقط قطرات عظيمة من العرق معلنة

(١) حياة محمد وثقافته: ص ٢٠٨، ٢٠٩.

نهاية الأزمة»^(١).

قبل أن أذكر الملاحظات المسجلة على هذه النظرية أذكر أمرين:

الأمر الأول: إن هذه النظرية وإن تحدث أصحابها فيها عن الوحي المحمدي، إلا أنها تستهدف جميع أفراد الوحي حتى الوحي النازل على الأنبياء السابقين (عليهم السلام)، كنبى الله إبراهيم وموسى وعيسى وسائر الأنبياء؛ لأننا لم تثبت عندنا نبوة الأنبياء السابقين، ولا وحي الأنبياء السابقين إلا بإخبار النبي الأكرم ﷺ، وأما كتب اليهود والنصارى، والعهد القديم والعهد الجديد فلا قيمة لها عندنا من الناحية التاريخية في إثبات وجود الأنبياء، وإثبات نبوة الأنبياء وإثبات وحي الأنبياء، فطريق الإثبات وحي النبي ﷺ، فإذا ضرب الوحي المحمدي سوف تتعدى هذه الضربة إلى وحي جميع الأنبياء والمرسلين.

الأمر الثاني: هو أن هذه النظرية كانت موجودة في زمن النبي الأكرم ﷺ، فإن الوثنيين والمشركين لما رأوا إصرار النبي ﷺ على دعوته مع أنهم قدموا المغريات فقالوا له: إن أردت مالاً نُعطيك، وإن أردت جاهاً نُعطيك، وإن أردت الملك نجعلك ملكاً علينا، وكان جوابه ﷺ أن قال لهم: «لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»^(٢).

(١) راجع دفاعاً عن محمد ﷺ: ص ١١٤ - ١١٥.

(٢) ابن هشام: ج ١ ص ٣٩٦.

فقد عرفوا منه الثبات والإصرار على تحمل المشاق والمتاعب والصعاب في سبيل دعوته، وبيان الحق بلسان المتيقن والواثق تمام الوثوق، وهم من جهة أخرى: يعلمون حال النبي ﷺ، وأنه الصادق الأمين، لم يُعرف منه الكذب والغش، فلم يجدوا طريقاً في مواجهته ﷺ إلا أن يتهموه في عقله فالتهموه بالجنون، وقد رد عليهم القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾^(١)، ثم قال لهم: ﴿فَإَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾^(٢)، إلى أين تريدون أن تصلوا في ادعائكم وافترائكم على النبي ﷺ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(٣)، فهؤلاء لمعرفتهم بالنبي ولمعرفة المجتمع به - أيضاً - لم يجدوا في التشكيك في صدق النبي ﷺ أثراً؛ لأنهم علموا أن الناس لن يصدقوا فرية أن النبي ﷺ يدعي كذباً، فاتهموه ﷺ بالجنون، فهذه التهمة تُبين بحسب الحقيقة كمال النبي ﷺ الأخلاقي، وأنه لا طريق للشك في أنه يتحدث عن صدق وقناعة.

مناقشة نظرية المرض العقلي والنفسي:

الملاحظة الأولى: التي ذكرها تور أندريا (بالسويدية: *Tor Julius Efraim Androë*) المستشرق السويدي في كتابه (حياة محمد وثقافته)، فقد ذكر أن الروايات التي اعتمدت عليها هذه النظرية ضعيفة من الناحية

(١) سورة التكوين: آية ٢٢.

(٢) سورة التكوين: آية ٢٦.

(٣) سورة التكوين: آية ٢٧.

التاريخية^(١)، ولا تعتبر مستنداً تاريخياً يمكن التعويل عليه في إثبات عروض هذه الحالات على النبي الأكرم ﷺ.

الملاحظة الثانية: لو تنزلنا وسلمنا وقلنا: هذه الروايات صحيحة وقوية ويمكن التعويل عليها، وفعلاً كان النبي ﷺ تعتوره بعض الحالات في حال تلقي الوحي، فإننا نقول مع ذلك - وبقطع النظر عن المعجزة ودليل صدق النبي ﷺ -: لا يمكن أن نعول على هذه الحالات لإثبات أن النبي ﷺ كان يعاني من مشكلة عقلية أو من مشكلة نفسية، كـ (الهستيريا العصبية) بحسب تعبير ألويس شبرنجر؛ لأن الذين نقلوا هذه الحالات نقلوها على أنها حالات استثنائية نادرة كانت تقع للنبي ﷺ فقط عند تلقي الوحي، فهي ليست حالات عامة تعتور النبي في جميع أوقاته، وإنما هي لحظات استقبال الوحي.

و بحسب رواياتنا نحن الشيعة فإن جبرائيل كان إذا نزل على النبي ﷺ يستأذن ويجلس بين يديه ﷺ جلسة العبد الذليل، وهذه الحالات الخاصة النبوية المقبولة والمعقولة في شأن النبي ﷺ، وهي الخشية والغشية كانت ترد على النبي ﷺ إذا لم يكن بين النبي وبين الله تبارك وتعالى واسطة، ففي توحيد الصدوق سأل زرارة الإمام الصادق عليه السلام عن الغشية التي تصيب النبي عند نزول الوحي، قال له عليه السلام: ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد، إذا تجلى الله تبارك وتعالى له.

(١) دفاعاً عن محمد ﷺ: ص ١٢٠.

قال الشيخ أبو جعفر الصدوق رحمته الله: (إِنَّ النبي صلَّى الله عليه وآله كان يكون بين أصحابه فيغمر عليه وهو ينصب عرقاً، فإذا أفاق قال: قال الله كذا وكذا وأمركم بكذا ونهاكم عن كذا. قال: وكان يزعم أكثر مخالفينا أَنَّ ذلك كان عند نزول جبرائيل. فسئل الإمام الصادق عليه السلام عن الغشية التي كانت تأخذ النبي صلَّى الله عليه وآله أكانت عند هبوط جبرائيل؟ فقال: لا إِنَّ جبرئيل كان إذا أتى النبي صلَّى الله عليه وآله لم يدخل حتى يستأذنه، وإذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد، وإنَّها ذاك عند مخاطبة الله عزَّ وجلَّ إياه بغير ترجمان وواسطة)^(١).

إذن، هذه حالات ترد في ظرف خاص، وليس في جميع الظروف وهي أعم من المرض، فإنه من المحتمل عقلاً أن علمية تلقي الوحي لها تأثير روحي ينعكس على البدن لوجود علاقة بين الروح وبين البدن، فنحن نجد الشخص ينجل فيحمر وجهه، ويخاف فيصفر وجهه، والخوف والنجل من حالات للروح، ومع ذلك تنعكس على البدن، والعقل - بقطع النظر عن دليل صدق النبي والمعجزة - يرى من المحتمل أن يكون لعملية الوحي - التي هي عملية غيبية - تأثير روحي شديد ينعكس على البدن، وهذا يناسب أخبار القرآن ﴿سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^(٢)، وما المحذور في ذلك؟

وقد ذكر الدكتور عبدالرحمن بدوي مثلاً لطيفاً فقال: «حتى هذه

(١) كمال الدين: ص ٨٥. بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٦٠ ح ١٢.

(٢) سورة المزمل: آية ٥.

القصص تأتي حقاً من أناس معروفين بالاسم، وهؤلاء الناس يعتقدون بوجود ظواهر غير عادية أثناء نزول الوحي تحت تأثير انتظار الوحي، وقد اعتقدوا بحدوث أشياء غير عادية، ولكن الأمر لا يعدو أن يكون عادياً وطبيعياً. وهو أمر يحدث دائماً ونراه كل يوم. وأتباع أي رجل عظيم متحمسون له يعتبرون أن ما يرونه من جانبه من أحداث بسيطة، كأنها أحداث غير عادية، وهذا ما جعل الناس يتصورونها كذلك - ما هو غير العادي أو غير الطبيعي في أن ينضج العرق من جبين محمد في يوم بارد حين تعثره أشجان قوية، وكمثال بسيط على ذلك نذكر حالة أنور السادات في الكنيست في القدس في نوفمبر (١٩٧٧) حيث كان جبينه يتصبب عرقاً طوال الوقت، ولكننا لم نجد فرداً واحداً يقول: إن هذا العرق في هذا المكان البارد كان أحد أعراض الهستيريا^(١)!

ومن الواضح المشكلة ليست في تكيف الكنيست الإسرائيلي، فلم يكن الجو حاراً، وإنما السبب هو أنه يعيش في وضع روحي خاص، فهو في موقف يجعله يعيش في حالة من الحذر والقلق، وهذه الحالة انعكست على بدنه، ولم يقل أحد من المراقبين أن السادات في تلك اللحظة كان مصاباً بالهستيريا العصبية.

وطبعاً لا نوافق الدكتور بدوي في أن كل هذه الحالات عادية، وإنما نقول:

(١) دفاعاً عن محمد ﷺ: ص ١٢١.

تأثيرها كتأثير الحالات العادية لا ينحصر في وجود مرض.

وعند المستشرق مورس ديمومبين (بالفرنسية: *Maurice Gaudefroy Demombynes*) تعليق جيد على كلام شبرنجر، فهو يقول: إن المصاب بالهستيريا العصبية ينخفض مستوى الوعي عنده ويفقد الاتزان الذهني والذاكرة، بينما النبي محمد ﷺ إذا اعتورته هذه الحالات يتحدث بالقرآن الكريم، وهو كتاب يدل على الوعي والبلاغة والفصاحة، فكيف يمكن أن تُفسر هذه الحالات بأنها مرض عقلي أو مرض نفسي^(١)!

الملاحظة الثالثة: هي أننا في منهج المستشرقين مع تراثنا وتاريخنا نواجه مشكلة شبه عامة، وهي أن الكثير من المستشرقين عندهم أفكار مسبقة يدخلون بها في دراسة تراثنا، ويريدون أن يُسقطوها على تراثنا، فيمارسون علمية الازدواجية، فيأتون عند قرائن تنافي أفكارهم، فيتجنبونها وكأنها غير موجودة، وأما القرائن التي لا تدل، فيتمسكون بها، ويضخمونها وكأنها القرائن والأدلة الوحيدة؛ لكي يُثبتوا أفكارهم المسبقة، وهذا ما فعله ألويس شبرنجر فإنه لم ينصف في دراسة تاريخ النبي الأكرم ﷺ، والدكتور عبدالرحمن بدوي في (دفاعاً عن محمد ﷺ) نقل مقالاً بعنوان الهستيريا من الموسوعة الطبية الفرنسية الصادرة ١٩٨٦م، وفي هذا المقال: إن هناك صفات لمن يصاب بالهستيريا العصبية، فشخصيته تكون شخصية مهزوزة ويكون

انطوائياً ويخاف فينحى بنفسه في المواقف الصعبة، ودائماً يحاول أن يكون في عزلة؛ لأنه يخاف من الضجة من حديث الناس، ويحاول أن يسد نقصه بذكر الأكاذيب التي تضخم وتنفخ من شخصيته، وهذه الأمور بأجمعها لا تنطبق على شخصية النبي محمد ﷺ، فالنبي ﷺ كانت شخصيته قوية جداً، كان هو ومعه خديجة بنت خويلد وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب يواجه الحجارة والأشواك والسب والقذف، ومع ذلك كان الجبل يتحدى العالم بأسره، كما أنه ﷺ كان يعيش حالة من الكمال الأخلاقي، وكانت سجاياه عظيمة جداً، وعنده علم جم وحكمة بالغة، واستطاع بحكمته وعلمه وبقوة شخصيته أن يلقي بنفسه في أصعب الظروف وأشد المواقف، حتى غير المجتمع العربي من مجتمع متخلف ثقافياً يعيش على السلب والنهب، والحمية الجاهلية إلى دولة متطورة استطاعت أن تسقط امبرطورية كسرى بعد أربعة عشر سنة فقط من ارتحال النبي ﷺ، كما استطاعت دولته المنفعلة بشخصيته أن تتمدد في آسيا وشمال أفريقيا وجنوب أوروبا، وتحولت إلى عاصمة الدول العلمية، فقد كانت مقصد المتعلمين من شرق الأرض وغربها بعد مائة وسبع سنوات فقط من ارتحال المؤسس.

للعلم بالتحريم والإحلال

لله سعيك قد بنيت معالماً

مثلى لمحو الجهل والإعلال

ومسحت رأس الجاهلي بشرعة

قد كان مأسور الحمية والهوى فجعلته حراً بلا أغلال
 فغدى يشيد من العلوم مدارساً تبني العقول بأحكام الأقوال
 و خلقت فيها الكاملين كجعفر أو جابر أو هاشم المرقال

فكيف يمكن أن يقال عن هذه الشخصية العظيمة بأنها كانت مصابة بمرض عقلي أو بمرض نفسي، فهذا مايكل هارت صاحب (العطاء المائة) جعل النبي ﷺ الرقم الأول قبل المسيح وقبل أرسطو، ويذكر في سر التقديم: إن النبي ﷺ يختلف عن غيره - وأنه كان عظيماً وله أثر كبير ولربما في نظر مايكل هارت أثره أعظم من أثر النبي الخاتم ﷺ - بأنه غير النبي جاء في حضارة تراكت فيها الخبرات، وتراكم فيها النتاج البشري، أما النبي الخاتم ﷺ، فجاء في منطقة متخلفة خارجة عن التاريخ وركب التحضر، فبدأ من الصفر، ومع ذلك كان له هذا الأثر العظيم والسريع جداً.

فإذا قرأنا سيرة النبي ﷺ بأمانة وإنصاف واعتمدنا على القرائن القطعية في شخصيته، وفي منعطفات حياته نقطع بأن شخصيته ﷺ كانت سوية ومترنة، وأنه لم يكن ﷺ يعاني من مشكلة في عقله أو مشكلة في نفسه، وليس من البلاغة في شيء القول بأن من يقرأ سيرة النبي ﷺ قراءة منصفة لابد أن يقطع بأن النبي ﷺ أكمل إنسان عرفه تاريخ البشرية في كماله واستقامته الروحية والعملية، وأما الذي لا يقرأ التاريخ بكيفية منصفة، وينتهي إلى أن النبي

مصاب بمرض الهستيريا العصبية، فهو في الحقيقة الحقيق بمرض الهستيريا. لقد رفض المستشرق فرانتس بول (بالدنهاركية: *Frants Buhl*) هذه النظرية الظالمة بعد أن قرأ حياة النبي ﷺ بإنصاف، فقال: «إننا لا بد أن نصل إلى فهم كامل لشخصية محمد عندما ندقق فيما كانت عليه حالته في الفترة الأولى من ظهوره في مكة، وقد كان على خلق عظيم وشخصية مستقيمة ونموذجية بشكل يسترعي الانتباه^(١). ولكن شخصية محمد في مكة بعد ذلك سرعان ما طرأ عليها تغير حسب ظروف حياته هناك، والتي كانت تتطلب كثيراً من الاعتبار الواقعية والتحفظات التي يملها الموقف، ولكنه وكما يقول «بول»: يجب أن نكون حذرين في توجيه مثل هذا الاتهام إلى محمد وهو رجل ظل حتى آخر رمق من حياته مقتنعاً تماماً بحقيقة المصدر الإلهي لرسالته، وحتى ساعة موته لم يشك لحظة في هذا الأمر. ولذلك لا بد أن نصل إلى الحقيقة عندما نفترض وجود عارض نفسي كان من الممكن لمحمد بواسطته أن يتذكر هذه الظروف المرضية دون أن يكون واضحاً أمام عينيه ودون أن يلاحظ أي فرق في الموضوعية بين الأعراض الناشئة عن هذا المرض وتلك التي كانت تحدث له قبل ذلك. إن المقدرة العقلية لرجل كهذا المفروض أنه مصروع هي ظاهرة تنطبق تماماً وتتفق مع الحكم عليه بمنطق بسيط سهل

أنه رجل طبيعي يخلو من المرض»^(١).

الملاحظة الرابعة: لقد قام شبرنجر بعملية ازدواجية حتى مع روايات حالات تلقي الوحي نفسها، فقد سلط الضوء على قسم منها، وترك قسماً آخر يتنافى مع نتيجته، حيث توجد فيه حالات لا يمكن أن تفسر إلا بنحو غيبي، ومن هذه ما عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي أروى الدؤبي قال: رَأَيْتُ الْوَحْيَ يَنْزِلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ عَلَى رَاحِلَتِهِ فَتَرْغُو وَتَفْتُلُ يَدَيْهَا حَتَّى أَظُنَّ أَنَّ ذِرَاعَهَا تَنْقُصُ فَرْبَمَا بَرَكْتُ، وَرُبَّمَا قَامَتْ مُوتِدَّةً يَدَيْهَا حَتَّى يُسَرِّي عَنْهُ مِنْ ثَقُلِ الْوَحْيِ، وَإِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ، وما عن أمير المؤمنين عليه السلام: (نزلت على النبي ﷺ سورة المائدة، وهو على بغلته الشهباء، فثقل عليه الوحي حتى وقفت، وتدلّى بطنها، حتى رأيت سرّتها تكاد تمس الأرض، وأغمي على رسول الله ﷺ حتى وضع يده على ذؤابة شيبة ابن وهب الجمحي...) ^(٢).

فإنه لا يمكن تفسير حالة الثقل وعجز الدابة عن حمله بالمرض النفسي؛ لأنه لا يساهم في تثقيل الوزن، ولكن شبرنجر وهو يتصرف كحاطب ليل تعامى عن هذه الروايات، وكان عليه أن يأخذها بالحسبان ما دام يعتقد بقيمة كل رواية في تراثنا.

(١) دفاعاً عن محمد ﷺ: ص ١١٩.

(٢) تفسير العياشي: ج ١ ص ٢٨٨ ح ٢ والذؤابة: شعر مقدم الرأس.

مناقشة نظرية النبوغ والإحياء والشخصية الباطنية:

النظرية الثانية: هي نظرية النبوغ والعبقرية.

ذهب بعض المستشرقين إلى أنه لا يمكن أن نتهم النبي محمدًا ﷺ بالجنون أو الهستيريا، فهذا أمر بجانب الصواب، والقول بذلك انتحار فكري، لكن مع ذلك هو لم يتصل بالسماء، ولم يأخذ أحكاماً من الغيب. نعم، كان عبقرياً متفوقاً على أبناء زمانه، وبإمكانه أن يفكر ويستنتج بطريقة أسرع؛ ولهذا بإمكانه أن يأتي بأفكار ليست موجودة عند غيره، فيتفوق على غيره.

النظرية الثالثة: نظرية الإحياء النفس.

التي ذكرها المستشرق مونتييه والمستشرق إيميل درمنغام، فهذان قالوا: إن النبي ﷺ لم يكن يتلقى معلومات من الغيب، ولم يكن عبقرياً يمتاز عن أهل زمانه. نعم، كان يعيش حالة من الأسى والغضب ومن الاستياء بسبب وضع مجتمعه المتدهور؛ ولأن عنده حماسة شديدة، فهو يعيش في داخله حالة من الصراع الفكري والحوار الفكري، فيتصور أن أحداً يخاطبه ويلقي إليه وهو في الحقيقة لا يوجد عنده إلا إحياء نفسي، وهذا نظير أن تكون قضية مهمة وخطيرة بين شخصين ثم يذهب أحدهما للآخر لكي يُجاوره ويناقشه، فإن الذهاب في بعض الأحيان قد يُحدث في داخله حواراً، وكأنه يتحدث مع الطرف الآخر يسمع منه ويرد عليه، ويسأله ويحيب، وهذا الحوار الداخلي

يسمى بالإيحاء النفسي.

فالوحي إلهام يفيض من نفس النبي الموحى إليه لا من الخارج. وذلك أنّ نفسه العالية، وسريته الطاهرة، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته، وترك ما سواها من عبادة وثنية، وتقاليد وراثية رديئة، يكون له من التأثير ما يتجلى في ذهنه، ويُحدث في عقله الباطن، الرؤى والأحوال الروحية، فيتصور ما يعتقد وجوبه، إرشاداً إلهياً نازلاً عليه من السماء بدون وساطة، أو يتمثل له رجل يلقيه ذلك، يعتقد أنّه ملك من عالم الغيب، وقد يسمعه يقول ذلك ولكنه إنّما يرى ويسمع ما يعتقد في اليقظة، كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي، عند جميع الأنبياء، فكلّ ما يُجبر به النبي أنّه كلام ألقي في روعه، أو ملك ألقاه على سمعه، فهو خير صادق عنده. ويقول أصحاب هذه النظرية: لا نشك في صدق الأنبياء في إخبارهم عمّا رأوا وسمعوا، وإنّما نقول: إنّ منبع ذلك من نفسه، وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب الذي يُقال: إنّ وراء عالم المادة والطبيعة^(١).

النظرية الرابعة: نظرية الشخصية الباطنية

وهي التي ذكرها الدكتور فريد وجدي صاحب كتاب دائرة معارف القرن الرابع عشر، فالدكتور وجدي يرى^(٢): أن للنبي شخصيتين شخصية

(١) الإلهيات: ج ٢ ص ١٢٨.

(٢) بحسب نقل كتاب الإلهيات: ج ٢ ص ١٣٢.

ظاهرة، وهي الشخصية التي يتحدث بها مع الناس، ويتصل بها مباشرة مع الناس، وتوجد شخصية أخرى باطنية عميقة، وعملية الوحي ليست اتصالاً بالغيب وبالمملك، وإنما اتصال بالشخصية الباطنية، فالنبي يأخذ من باطنه إلى ظاهره، ثم بظاهره يبلغ الناس، وهذه عملية الوحي ليس إلّا.

ويقرب من هذه النظريات الثلاث الأخيرة (الثانية - الثالثة - الرابعة) ما ذكره الدكتور عبدالكريم سروش في بسط التجربة النبوية، فإنه يرى: أن النبي لا ينزل عليه ملك ويُحدثه بمعلومات مقولبة جاهزة، وإنما النبي يُصَفِّي ذاته، ثم يرقى ويدرك عالم الغيب بكيفية خاصة تناسب وجوده هو، ثم يخلق لنا مجموعة من المعلومات رآها في عالم الغيب وأضاف إليها شيئاً من شخصيته، ويُبلغ الأحكام على أنها من الله تبارك وتعالى، فالقرآن لم ينزل على النبي ﷺ من الله بهذه الكيفية، وإنما فعله، ونسبه إلى الله تبارك وتعالى^(١).

وهذا مأخوذ من كلام الصوفية، وبعض المستشرقين كلويس ماسينيون (بالفرنسية: *Louis Massignon*) في رسالته: (مقال عن أصل المعجم الفني للتصوف الإسلامي)، وتور أندريا في كتابه: (محمد حياته ومذهبه)^(٢). وناقش هذه النظريات جميعاً بمناقشتين مشتركيتين:

(١) راجع كتاب تأملات في بسط التجربة النبوية للشيخ حيدر السندي: من ص ١٤ إلى ص ٣٧.

(٢) راجع دفاعاً عن محمد ﷺ: ص ١٢٤.

التنافي مع أخبار الأنبياء ﷺ :

المناقشة الأولى: هي أن هذه النظريات تتنافى مع ما يدعيه الأنبياء، فالأنبياء لا يقولون: نحن نلقي إليكم قضايا وأحكاماً انتهينا إليها بالعبرية، أو بالإيماء النفسي، أو أخذناها من الشخصية الباطنة، أو الكشف، وإنما هم يزعمون أن ما يأتون به من الله تبارك وتعالى، يقول عز وجل مبيناً للدور التبليغي: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^(١)، فوظيفة الرسول أنه يُبلغ لا أنه يستنتج بالعبرية أو يأخذ من الإيماء النفسي أو من شخصيته الباطنية، هو يلقي إليه ويُبلغ بكل أمانة ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾^(٢)، فهذا ما يذكره الأنبياء، وهو أن ما عند النبي تعليم من الله تبارك وتعالى، والمنهجية العلمية تقتضي أن نرى هل هذه الدعوى يعضدها دليل قطعي أم لا؟

لا أن نتفلسف وندخل في تحليلات لا قيمة لها في تفسير علمية الوحي، فلماذا نُبعد المسافة، والنبي ادعى شيئاً وجاء بدليل، فعلينا أن ننظر في هذا الدليل هل يُثبت دعواه أم لا؟ إذا كان يُثبت دعواه، فينبغي أن نضرب بهذه

(١) سورة النحل: آية ٣٥.

(٢) سورة النجم: آية ٣-٤-٥.

النظريات بأجمعها عرض الحائط.

تعاليم الأنبياء فوق ما تنتجه هذه النظريات:

المناقشة الثانية: تتكون من مقدمتين:

المقدمة الأولى: بناء على هذه النظريات الثلاث (نظرية العبقرية، نظرية الإيحاء، نظرية الشخصية الباطنية) ما يأتي به النبي ليس إلا معلومات يمكن أن يصل إليها أي إنسان بالطريق المتعارف، فإذا كان النبي مجرد عبقرى يستدل، فكل إنسان إذا استدل بطريقة النبي نفسها سوف يصل إلى المعلومات نفسها، وإذا كانت معلومات النبي إichاءات من باطنه أو من شخصيته الباطنية، فهو يأخذ ما اكتسبه بالطريق المتعارف من الخارج ويخترنه في نفسه، فإذا لم تكن عملية الوحي عملية غيبية خارقة للنواميس الطبيعية، فمعلومات الوحي ليست إلا معلومات عادية يمكن أن يصل إليها أي إنسان.

المقدمة الثانية: الكثير من إخبارات الأنبياء لا يمكن أن يصل إليها الإنسان بالطريق المتعارف مهما كان عبقرياً ومهما كان نابغة، فإن جملة من إخبارات نبينا الأكرم ﷺ خارقة للعادة، وأذكر لك مثالين:

المثال الأول: الإخبارات المستقبلية، فإن النبي ﷺ في سورة الروم أخبر بانتصار الروم بعد هزيمتهم، وفي سنوات دون العشر، وبحضور من الجماعة المؤمنة، يقول تعالى: ﴿الْم، غُلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَذْنَى الْأَرْضِ، وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ

سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ^(١)
 ووقع الأمر كما أخبر، ولو لم يقع الأمر لنقل بالتواتر عدم مطابقة خبر النبي
 للواقع ﷺ، لأن أعداء النبي ﷺ كثيرون، من يهود ونصارى ووثنيين، فما أكثر
 الذين من مصلحتهم أن يكذبوا النبي ﷺ، ومع ذلك لم يُنقل عدم مطابقة خبر
 النبي ﷺ الذي جاء به من خلال المجيء بالقرآن للواقع.

والقرآن الكريم يقول: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ
 الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾^(٢)، وهذا إخبار بأمر مستقبلي في مسألة تحويل القبلة، وكان
 بإمكان السفهاء أن يصمتوا ولا يتكلموا حتى يكذبوا النبي ﷺ، ومع ذلك
 تكلموا فقالوا: ﴿مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾.

و أبو هب كان بإمكانه أن يعلن التوبة ويظهر حسن الإسلام حتى يكذب
 القرآن في قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾^(٣)، مع ذلك ما استطاع،
 فهناك إخبارات مستقبلية، وما أكثرها في القرآن كما في دخول المسجد ﴿لَقَدْ
 صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ
 رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا
 قَرِيبًا﴾^(٤)، وفي أحاديث النبي ﷺ إخبارات كثيرة، كما في الإخبار عن مصير

(١) سورة الروم: آية ١-٣.

(٢) سورة البقرة: آية ١٤٢.

(٣) سورة المسد: آية ٣.

(٤) سورة الفتح: آية ٢٧.

عمار بن ياسر، وسيد الشهداء عليه السلام.

فقد روي عن أبي سعيد الخدري في ذكر بناء المسجد، قال: «كُنَّا نَحْمِلُ لَبْنَةً لَبْنَةً وَعَمَّارٌ لَبْتَيْنِ لَبْتَيْنِ، فَرَأَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْهُ، وَيَقُولُ: (وَيْحَ عَمَّارٍ، تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ، وَيَدْعُوهُ إِلَى النَّارِ) قَالَ: يَقُولُ عَمَّارٌ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ»^(١).

وفي منتخب كنز العمال^(٢) قال: أخرج الطبراني في الكبير: عن المطلب ابن عبد الله بن حنطب، عن أم سلمة قالت: «كان النبي صلى الله عليه وآله جالسا ذات يوم في بيتي فقال: لا يدخلن عليّ أحد فانتظرت فدخل الحسين فسمعت نشيج النبي صلى الله عليه وآله يبكي، فاطلعت فإذا الحسين في حجره أو إلى جنبه يمسح رأسه وهو يبكي. فقلت: والله ما علمت به حتى دخل. قال النبي صلى الله عليه وآله: إن جبرئيل كان معنا في البيت فقال: أتحبه؟ فقلت: أما من حب الدنيا نعم، فقال: إن أمتك ستقتل هذا بأرض يقال لها: كربلاء. فتناول من ترابها فأراه النبي صلى الله عليه وآله، فلما أحيط بالحسين حين قتل قال: ما اسم هذه الأرض؟ قالوا: أرض كربلاء، قال: صدق رسول الله صلى الله عليه وآله أرض كرب وبلاء...».

وقد نقل هذه الرواية - كما ذكر العلامة السيّد محسن الأمين^(٣) - كثير من

(١) كتاب البخاري: حديث ٤٤٧.

(٢) منتخب كنز العمال: ج ٥ ص ١١٢.

(٣) إقناع اللائم على إقامة المآتم: ص ٣١.

كتب أهل السنة بنفس العبارة أو بتعديل فيها، كصاحب العقد الفريد، وأحمد بن حنبل، وأبي يعلى، وابن سعد، والطبراني، وأنس بن مالك، وابن عساكر، ورواها أيضاً من الشيعة كثيرون، منهم الشيخ أبو جعفر محمد بن علي المعروف بابن بابويه القمي عن الإمام الخامس محمد الباقر عليه السلام بهذه العبارة: «كان النبي صلى الله عليه وآله في بيت أم سلمة فقال لها: لا يدخل عليّ أحد، فجاء الحسين وهو طفل فما ملكت معه شيئاً حتى دخل على النبي صلى الله عليه وآله، فدخلت أم سلمة على أثره، فإذا الحسين على صدره، وإذا النبي صلى الله عليه وآله يبكي وإذا في يده شيء يقبله. فقال النبي صلى الله عليه وآله: يا أم سلمة، إن هذا جبرئيل يخبرني أن ابني هذا مقتول، وهذه التربة التي يقتل عليها، فضعيها عندك فإذا صارت دماً فقد قتل حبيبي...».

ومن الواضح أن الإخبار المستقبلي لا يمكن أن يصل إليه المرء ولو كان عبقرياً، فالعسكري لا يمكنه أن يخترق الزمكان، ويخرج من زمانه ومكانه، ويذهب إلى المستقبل، ثم يعود، ويبدئه شيء منه فيُخبر بما سوف يقع.

المثال الثاني: الإخبار التاريخي المعجز في القرآن الكريم، مثلاً القرآن يقول: ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾^(١)، فإن هذه الآية التي يقرأها الكثير دون أن يلتفتوا إلى الأبعاد الغيبية والإعجازية فيها تشتمل على معجزة من جهتين:

الجهة الأولى: في بيانها كيف كان المصريون القدماء يصنعون اللبنات التي

بينون، فإلى وقت قريب قدمت دراسات حول مصدر الأحجار، فإنه لا توجد منطقة قريبة يُحتمل أن الفراعنة أخذوا الحجارة منها، واحتمال أنهم جاءوا بها من أماكن أخرى بعيدة؛ لأن وسائل النقل في ذلك الزمان متخلفة جداً، وبعض أحجار الأهرامات ثقيلة جداً تزيد على عشرة أطنان^(١).

وبعض الباحثين اقترح أن الجن نقلوا الأحجار، والبعض احتمل مخلوقات فضائية، وآخر الدراسات ترى أن هذه الحجارة مصنوعة، وليست طبيعية، فالمصريون القدماء قاموا بصناعتها بطريقة خاصة، وهي طبخ الطين، وصناعة اللبنة بطريقة الحرارة لا بالطريقة العادية، وهذه النتيجة التي يؤيدها الواقع ذكرها القرآن الكريم قبل ألف سنة ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾.

والمستشرق آدم سلفر اشتاين أراد أن يُشكك في هذا الإعجاز القرآني، فقال: حتى التوراة ذكرت أن المصريين القدماء كانوا يطبخون الطين، لكن بعد مراجعة التوراة، كانت النتيجة أنه لا يوجد ما يدعيه، بل الأمر على خلاف ذلك، ففي التوراة تعرض لطريقة الصنع، وأنها بالطريقة العادية،

(١) ذكرت بعض المعلومات في ذلك، وهي:

١ - الحجر الواحد في الهرم وزنه ما بين طنين إلى ١٥ طناً.

٢ - عدد أحجار الهرم حوالي ٢ مليون و ٦٠٠ ألف حجر.

٣ - ارتفاع الهرم ١٤٩.٤.

٤ - وزن حجر الجرانيت الذي في سقف حجرة الملك ٧٠ طناً.

وهي جمع الطين مع التبن، ففي سفر التكوين (٧/٥) توجد هذه العبارة: (لا تعودوا تعطون الشعب تبناً لصنع اللبن)، وهذه الفقرة تُبين أن التوراة تعتقد أنهم كانوا يبنون بطريقة جمع الطين والتبن، وقد علم اليوم أن بعض بنايات الفراعنة من الطين المطبوخ^(١).

(١) فقد ذكر: أن الأبحاث الجديدة أن الأهرامات بُنيت من طين وحرارة! ففي عددها الصادر بتاريخ (٢٠٠٦، ١ DECEMBER) نشرت جريدة التايمز الأمريكية خبراً علمياً يؤكد أن الفراعنة استخدموا الطين لبناء الأهرامات! وتقول الدراسة الأمريكية الفرنسية إن الحجارة التي صنعت منها الأهرامات،... قد تم صبها ضمن قوالب خشبية ومعالجتها بالحرارة حتى أخذت شكلاً شبه طبيعي. ويقول العلماء: إن الفراعنة كانوا بارعين في علم الكيمياء ومعالجة الطين وكانت الطريقة التي استخدموها سرية ولم يسمحوا لأحد بالاطلاع عليها أو تدوينها على الرقم التي تركوها وراءهم.

ويؤكد البروفسور *GILLES HUG* والبروفسور *MICHEL BARSOUM* أن الهرم الأكبر في الجيزة قد صنع من نوعين من الحجارة:

- حجارة طبيعية.
- وحجارة مصنوعة يدوياً.

وفي البحث الذي نشرته مجلة *JOURNAL OF THE AMERICAN CERAMIC SOCIETY* يؤكد أن الفراعنة استخدموا الطين *SLURRY* لبناء الصروح المرتفعة *EDIFICES* بشكل عام، والأهرامات بشكل خاص؛ لأنه من غير الممكن لإنسان أن يرفع حجراً يزن آلاف الكيلوغرامات،

وهذا ما جعل الفراعنة يستخدمون الحجارة الطبيعية لبناء قاعدة الهرم، والطين المصبوب ضمن قوالب من أجل الحجارة العالية. لقد تم مزج الطين الكلسي المعالج حرارياً بالموقد *FIREPLACE* مع الملح وتم تبخير الماء منه مما شكل مزيجاً طينياً *CLAY-LIKE MIXTURE* هذا المزيج سوف يتم حمله بقوالب خشبية وصبه في المكان المخصص على جدار الهرم. وقد قام البروفسور *DAVIDOVITS* بإخضاع حجارة الهرم الأكبر للتحليل بالمجهر الإلكتروني ووجد آثاراً لتفاعل سريع مما يؤكد أن الحجارة صنعت من الطين، ومع أن الجيولوجيين وحتى وقت

الجهة الثانية: في هذه الآية لفظ (هامان)، والسؤال المهم هنا هو: كيف توصل النبي ﷺ إلى نطق لفظ هامان ﴿يَا هَامَانُ﴾، فهامان لفظ قبطي يعود إلى اللغة المصرية القديمة، وهي من اللغات الميتة، والدكتور محمد فارس الفارس في كتابه: (من هو فروع موسى) نقل عن مورس بوكاي، أنه التقى بعالم آثار في مصر، وقال له: هل سمعت اسم هامان؟ قال له راجع قاموس أسماء المملكة الحديثة، وراجع ووجد هذا الاسم فيه.

يقول الدكتور الفارس: قمت بعدة رحلات لاستكمال هذا الكتاب، أهمها رحلة إلى النمسا وثلاث رحلات إلى مصر، الرحلة الأولى إلى النمسا كانت في صيف عام: ٢٠١٥م، وذهبت إلى هناك خصيصاً لزيارة متحف كونست - هيستوريشس بالعاصمة فيننا، وسبب الزيارة هو وجود حجر مكتوب عليه اسم «هامان» الذي ذكر في القرآن بصفته كبير مساعد فرعون. وكنت قد قرأت في كتاب «موسى وفرعون» للطبيب الفرنسي المسلم موريس بوكاي الطبيب الشخصي للملك فيصل ملك السعودية الراحل، أنه

قريب لم يكن لديهم القدرة على التمييز بين الحجر الطبيعي والحجر المصنوع بهذه الطريقة، إلا أنهم اليوم قادرون على التمييز بفضل التكنولوجيا الحديثة، ولذلك قام هذا البروفسور بإعادة بناء حجر ضخم بهذه الطريقة خلال عشرة أيام. كما يؤكد العالم البلجيكي *GUY DEMORTIER* والذي شكك لفترة طويلة بمثل هذه الأبحاث يقول: بعد سنوات طويلة من البحث والدراسة أصبحت اليوم على يقين بأن الأهرامات الموجودة بمصر قد صنعت بهذه الطريقة الطينية.

قام بتوجيه سؤال لأحد علماء المصريات يستفسر عما إذا كان أحد المسؤولين في القديمة يحمل اسم «هامان»، وأن ذلك العالم الذي لم يذكر بوكاي اسمه أرشده إلى قاموس الأسماء في «المملكة الحديثة» في مصر حيث يوجد ذلك الاسم في القاموس. فقامت بمراسلة عالم المصريات الألماني «فرانسيسكو بوش - بوخ، مستفسراً عما كتبه بوكاي، فرد علي بأن بوكاي لم يذكر اسم الشخص الذي أرشده للقاموس، وبالتالي لا يمكن التحقق من الموضوع بدقة، ولكن فيما عثرت على دراسة باللغة الإنجليزية على شبكة الإنترنت تتحدث عن هذا الموضوع، وجاء فيها أن اسم هامان يوجد بالأصل على حجر في متحف «كونست هيستوريشس» بفيينا، وتمت الإشارة إليه في قاموس الأسماء السابق ذكره، ولهذا السبب ذهبت إلى هناك. عندما زرت المتحف، لم أعر على الحجر فتوجهت لقسم الاستقبال حيث تم الاتصال بمديرة القسم المصري بالمتحف وتحدثت معها فقالت: إن هذا الحجر غير معروض للجمهور منذ سنين طويلة، وأنه موجود في مستودعات المتحف، فطلبت مشاهدته إلا أنها رفضت وقالت: لا يسمح لأحد بمشاهدته. طلبت أن أقابلها لطرح بعض الأسئلة فاعتذرت لعدم وجود موعد مسبق كما اعتذرت عن مقابلتي في اليومين التاليين المتبقين لي في فيينا، ولكن أمدتني ببريدها الإلكتروني لمراسلتها. أرسلت لها رسالتي الأولى فحولتها إلى ميكيل هوتر إحدى مسؤولات المتحف، وبدأت المراسلات بيني وبينها حيث أمدتني ببعض المعلومات التي

ذكرتها في هذا الكتاب، وتبين لي فيما بعد أن اسم هامان موجود بالفعل على هذا الحجر، وهذه القطعة الحجرية وصلت إلى النمسا عام: ١٨٥٥م عندما أهداها خديوي مصر للملك النمسا، ثم قام الدكتور «سيمون بنش» بتفريغ المعلومات الموجودة على الحجر وذكرها في كتابه، ومن ضمن تلك المعلومات اسم هامان الذي هو في واقع الأمر لقب، ثم قام «رانك» الذي أصدر قاموس الأسماء في المملكة الحديثة بالإشارة إلى ذلك اللقب^(١).

وقد بحث الدكتور الفارس تفرد القرآن بذكر شخصية هامان التي زعم البعض أنه شخصية (هامان بن همدان) الذي كان أحد كبار المسؤولين في عهد الملك الفارسي (أخشويرش) المذكور في سفر أستير بدءاً من الإصحاح (٣)، فقال: هناك ثلاثة من كبار علماء المصريين الذين كتبوا عن هذه القطعة الحجرية وذكروا اسم هامان عليها وشرحوا معنى هذا الاسم أو بمعنى أصح اللقب. بدأ ذلك عالم المصريين الألماني سيمون رينش (*simon reinisch*) الذي أصدر كتاباً عام: ١٨٦٥م يتضمن صورة وشرحاً لهذه القطعة الحجرية، الكتاب هو *Die Aegyptischen Denkmäler in Miramar*، اقتنيت هذا الكتاب الصادر باللغة الألمانية، وأخذت أبحث عن كلمة هامان إلى أن وجدت في ص ٢٥٥ - ٢٥٦، ذكر رينش اسم هامان مكتوباً بالصيغة (*hmunhu*) وأشار إلى أنه توجد صورة بنهاية كتابه لتلك القطعة الحجرية،

(١) من هو فرعون موسى: ج ١ ص ٢٥ - ٢٦.

ورسوماتها تحت عنوان (*xxxix.b Taf*) وفي عام ١٩٠٦م أصدر عالم المصريات «والتر ريجنسكي» كتاباً بعنوان *Aegyptische Inschriften aus dem K.K. Hof museum in Wien* يتحدث فيه عن القطع الأثرية في متحف (كونست هيستوريشس، ومنها هذه القطعة وتحدث عن لقب «هامان» وما يعنيه هذا اللقب. وفي عام: ١٩٣٥م أصدر عالم المصريات «هيرمان رانك» *Hermann Ranke* الذي ذكره مورييس بوكاي في كتابه، قاموساً بمعاني الكلمات الهيروغليفية في فترة «المملكة الحديثة» في مصر القديمة التي من ضمنها الأسرة ١٨، وهو بعنوان: (*Die Agyptischen* *verzeichnis Der namen - Personennamen (Band* *hmnh)*) وأشار إلى كتاب ريجنسكي.

هذه القطعة الحجرية مقسمة إلى قسمين، ومصنفة في متحف كونست هيستوريشس تحت رقمي (*ae_inv_٥٨٢١*) و(*ae_invJ ٥٨٢٢*). وفي رسالتها المؤرخة في: ٩ - ٩ - ٢٠١٥م، ذكرت لي ميكيل هوتر أن الاسم المذكور على القطعة هو (هيمن حيتب) أو «هامان» *hetep - hemn* *or hemenh*، ويعني: «المشرف على عمال محاجر آمون» (*Overseer of the stone masons of amun*). الموقع الإلكتروني الذي سبق ذكره يحتوي على معلومات عن القطعة المذكورة، واسم هامان ومعناه كما ذكرته هوتر، ويشير إلى أن هذه القطعة مصدرها «الأقصر» في جنوب مصر وهي من الحجر

الجيري وتعود إلى عصر «المملكة الحديثة» في مصر القديمة، وطولها: ١١٤سم، وبعرض: ٢٦ سم، وهي عبارة عن عضادة باب، أما النص المكتوب على القطعة الحجرية المقسومة إلى نصفين فهو الآتي:

١- *An offering which the king gives to Osiris, foremost of the westerners, lord of infinity, ruler of Eternity, so that he may give everything that is offered on his food table, the northern wind, a goodly funeral for his old age, for the ka of the overseer of the stonemasons of amun hemen_ hetep true voice.*

٢- *An offering, which the king gives to the western desert and amaunet, the lady of heaven, so that, she may give food and sus _ tenance and all kinds of offerings, all things good and pure, for the ka of the overseer of the stone masons of Amun hemen _hetep true of voice.*

والنص باللغة العربية يقول:

أ) (اليسار) إن القربان الذي قدمه الملك «لأوزويس» سيد الغرب، سيد الأبدية، حاكم المدة الأبدية، لعله يعطينا أي شيء قد يأتي من مائدته، وأيضاً (رياح الشمال اللطيفة)، ومدفنناً جيداً بعد عمر مديد، (لكاه) المشرف على عمال

الحجر الخاص بأمون هيمن حنب (هامان).

ب) (اليمن) إن القربان الذي أعطاه الملك إلى الصحراء الغربية، والإلهة آمونيت سيدة السماء، لعلها تقدم الطعام والغذاء، وجميع أنواع القرابين، وجميع أنواع الأشياء الجيدة والنقية، إلى «كا» المشرف على عمال الحجر الخاص بأمون هيمن حنب (هامان)^(١).



صورة قطعة الحجر المكتوب عليها اسم هامان

متحف كونست هيستوريشس

ويوجد لمورس بوكاي تسجيل في اليوتوب يمكن مراجعته ينقل فيه القصة، ويقول فيها: قلت لهذا العالم: هل يوجد في أسماء المصريين القدماء هذا الاسم، وكتبته له باللغة العربية؛ لأنه عالم آثار في مصر يعرف اللغة العربية، وأكد على وجود هذا الاسم، وقلت له: ما رأيك لو كان هذا الاسم بهذا الخط

(١) من هو فرعون موسى القرآن يجيب على السؤال: ص ٣١٠، ٣١٢.

موجود في كتاب من القرن السابع الميلادي فقال: هذا مستحيل؛ لأن الوقوف على هذا اللفظ فرع فك الخط الهيروغليفي، وهذا الخط كما بينّا في المحطة الأولى، إنما فكت شفرته في القرن التاسع عشر الميلادي، بعد النبي ﷺ بأكثر من ألف ومئتين سنة، فكيف توصل النبي ﷺ إلى نطق هذا الاسم، مع أنه موجود في حجر واحد اكتشف تقريباً في أوائل القرن التاسع عشر.

إن وقوف النبي ﷺ على نطق هذا الاسم يدل على أنه ليس مجرد عبقرى، أو مجرد شخص يأخذ من إيجائه النفسي أو شخصيته الباطنية، بل هو مؤيد ومسدّد من قبل الله تبارك وتعالى؛ لأن ما يأتي به ﷺ شيء يجتاز القوانين والنواميس الطبيعية، فهو أمر إعجازي، وهذا يدل على صدق دعواه في أنه يُخبر عن الله تبارك وتعالى.

المحطة النبوية الثانية

في فائدة الدين وبعثة الأنبياء وإرسال الرسل

قال الله العلي العظيم في كتابه الكريم:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^(١).



(١) سورة البقرة: آية ٢١٣.

المحطة النبوية الثانية في الإجابة على السؤال التالي :

هل توجد في بعثة الأنبياء فائدة للمجتمع الإنساني؟ هل هنالك مصلحة في إنزال الدين وتبليغه للناس أم لا؟

وهذا السؤال مهم جداً في أبحاث النبوة؛ لأننا نعتقد أن الله تبارك وتعالى لكمال ذاته عادل حكيم لا يفعل القبيح، ومن القبيح اللعب واللهو والعبث، وهو فعل ما لا مصلحة فيه، ولا غاية له، فإذا كنا نريد أن نبحت عن بعثة الأنبياء وإرسال الرسل، كفعل الله تبارك وتعالى، فلا بد أن تكون في بعثة الأنبياء مصلحة، ويكون في إرسال الرسل غاية، وإلا سيستحيل ذلك على الله تبارك وتعالى.

وبعض الناس ادعى عدم وجود الفائدة والمصلحة في بعثة الأنبياء، واستدل على ذلك بما يمكن أن يُصاغ بصيغتين:

عدم مساهمة الدين في تطوير وسائل الحياة:

الصيغة الأولى: صيغة ساذجة وبسيطة جداً، وهي أن يُقال: إن الإنسان في زماننا هذا تطور جداً في علومه ومعارفه؛ ولأنه تطور في علومه ومعارفه تطور

في حياته، ويعيش حالة عالية من السعادة والرفاهية، فقد استطاع أن يُطور العلوم، وبتطور العلوم استطاع أن يُطور وسائل الاتصال، ووسائل المواصلات، والتكنولوجيا الحديثة، فصارت حياته أكثر ازدهاراً وأكثر رفاهية وأكثر سعادة، فما الذي يُقدمه الدين وراء ما تُقدمه العلوم التي ساهمت في تطوير وسائل الحياة.

في مقام التعليق على هذه الصياغة أذكر تعليقين:

التعليق الأول: إن أصحاب هذه الصياغة اختزلوا الإنسان في بعده المادي فقط، فقالوا: الإنسان هو المكون من هذه الأجزاء المادية ليس إلا، وبالتالي لا توجد عنده إلا هذه الحياة، وينتهي وينعدم إذا مات وتفرقت أعضاؤه، وعليه ينبغي أن نلاحظ الفائدة والمصلحة بلحاظ حياته الدنيا فقط.

فجاء التساؤل عن فائدة الدين بعد تطور هذه العلوم التي ساهمت في تطور حياة الإنسان، والدين لا يساهم في تطوير وسائل التواصل، ولا المواصلات، ولا التكنولوجيا الحديثة، فما هي الفائدة التي يُقدمها للإنسان! بينما النظرة الواقعية للإنسان هي أن الإنسان فيه بُعد مادي وبعد مجرد، وعنده جسد وعنده روح، وينبغي أن نلاحظ مصالح الجسد، وأيضاً مصالح الروح، ومصالح الروح لا تقتصر على المصالح الدنيوية في هذه النشأة، بل هي تمتد إلى النشأة الأخرى.

والعلامة الطباطبائي رحمته الله يذكر مثلاً لطيفاً للذين يفكرون وفق هذه

الصياغة، فهؤلاء مثلهم مثل جماعة في قافلة، يسرون في البر، وينتقلون من مكان إلى مكان آخر، فوقفوا في الطريق عند واحة، فغفلوا عن غايتهم النهائية، فأخذوا يُقسمون الحصص في هذه الواحة، ويستنزفون ما عندهم من مؤن، ويجعلون أنظمة وقوانين، وكأنهم مخلصون في هذه الواحة، وغفلوا عن كونها قنطرة، وأنهم عابرون فحسب، هؤلاء لا شك في أن تعاطيهم مع مكانهم ليس تعاطياً صحيحاً.

كذلك من ينظر إلى الدنيا على أنها الغاية والنهاية، ويغفل عن الآخرة والتعلق بالله تعالى، ثم يحصر الفائدة والمصلحة في مصلحة الدنيا، ويقول: ما الذي يُقدمه الدين لنا بلحاظ المصالح الدنيوية، هو في الحقيقة يغفل عن كوننا مجرد عابرين، وفي سفر، وننتقل من دار إلى أخرى، وكل أسلوب يوضع لا يعالج التعلق بالله وحيثية العبور لا فائدة فيه، قال ﷺ: «ومن هنا يعلم أن قرينة الاستخدام في الإنسان بانضمامها إلى الاختلاف الضروري بين الأفراد من حيث الخلقة ومنطقة الحياة والعادات والاخلاق المستندة إلى ذلك، وإنتاج ذلك للاختلاف الضروري من حيث القوة والضعف يؤدي إلى الاختلاف والانحراف عما يقتضيه الاجتماع الصالح من العدل الاجتماعي، فيستفيد القوي من الضعيف أكثر مما يفيد، وينتفع الغالب من المغلوب من غير أن ينفعه، ويقابله الضعيف المغلوب مادام ضعيفاً مغلوباً بالحيلة والمكيدة والخدعة، فإذا قوي وغلب قابل ظالمه بأشد الانتقام، فكان بروز الاختلاف

مؤدياً إلى الهرج والمرج، وداعياً إلى هلاك الإنسانية، وفناء الفطرة، وبطلان السعادة. وإلى ذلك يشير تعالى بقوله: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ يونس - ١٩، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ هود - ١١٩، وقوله تعالى في الآية المبحوث عنها: ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه الآية. وهذا الاختلاف كما عرفت ضروري الوقوع بين أفراد المجتمعين من الإنسان لاختلاف الخلقة باختلاف المواد، وإن كان الجميع إنساناً بحسب الصورة الإنسانية الواحدة، والوحدة في الصورة تقتضي الوحدة من حيث الأفكار والأفعال بوجه، واختلاف المواد يؤدي إلى اختلاف الإحساسات والإدراكات والأحوال في عين أنها متحدة بنحو، أو اختلافها يؤدي إلى اختلاف الأغراض والمقاصد والآمال، واختلافها يؤدي إلى اختلاف الأفعال، وهو المؤدي إلى اختلال نظام الاجتماع. وظهور هذا الاختلاف هو الذي استدعى التشريع، وهو جعل قوانين كلية يوجب العمل بها ارتفاع الاختلاف، ونيل كل ذي حق حقه، وتحميلها الناس. والطريق المتخذ اليوم لتحميل القوانين المصلحة لاجتماع الإنسان أحد طريقتين:

الأول: إلقاء الاجتماع على طاعة القوانين الموضوعة لتشريك الناس في حق الحياة وتسويتهم في الحقوق، بمعنى أن ينال كل من الأفراد ما يليق به من كمال الحياة، مع إلغاء المعارف الدينية، من التوحيد والأخلاق الفاضلة، وذلك بجعل التوحيد مُلغىً غير منظور إليه ولا مرعي، وجعل الأخلاق تابعة

للاجتماع وتحوله، فما وافق حال الاجتماع من الأخلاق فهو الخلق الفاضل،
فيوماً العفة، ويوماً الخلاعة، ويوماً الصدق، ويوماً الكذب، ويوماً الأمانة،
ويوماً الخيانة، وهكذا.

والثاني: إلقاء الاجتماع على طاعة القوانين بتربية ما يناسبها من الأخلاق
واحترامها مع إلغاء المعارف الدينية في التربية الاجتماعية.

وهذان طريقان مسلوكان في رفع الاختلافات الاجتماعية وتوحيد الأمة
المجتمعة من الإنسان: أحدهما بالقوة المجبرة والقدرة المتسلطة من الإنسان
فقط، وثانيهما بالقوة والتربية الخلقية، لكنهما على ما يتلوها من المفاصد مبنيان
على أساس الجهل، فيه بوار هذا النوع، وهلاك الحقيقة الإنسانية، فإن هذا
الإنسان موجود مخلوق لله متعلق الوجود بصانعه، بدأ من عنده وسيعود إليه،
فله حياة باقية بعد الارتحال من هذه النشأة الدنيوية، حياة طويلة الذيل، غير
منقطع الأمد، وهي مرتبة على هذه الحياة الدنيوية، وكيفية سلوك الإنسان
فيها، واكتسابه الأحوال والملكات المناسبة للتوحيد الذي هو كونه عبداً لله
سبحانه، بادئاً منه عائداً إليه، وإذا بنى الإنسان حياته في هذه الدنيا على نسيان
توحيده، وستر حقيقة الأمر فقد أهلك نفسه، وأباد حقيقته.

فمثل الناس في سلوك هذين الطريقين كمثل قافلة أخذت في سلوك
الطريق إلى بلد ناءٍ معها ما يكفيها من الزاد ولوازم السير، ثم نزلت في أحد
ال منازل في أثناء الطريق فلم يلبث هنيئة حتى أخذت في الاختلاف: من قتل،

وضرب، وهتك عرض، وأخذ مال وغصب مكان وغير ذلك، ثم اجتمعوا يتشاورون بينهم على اتخاذ طريقة يحفظونها لصون أنفسهم وأموالهم.

فقال قائل منهم: عليكم بالاشتراك في الانتفاع من هذه الأعراض والأمتعة، والتمتع على حسب ما لكل من الوزن الاجتماعي، فليس إلا هذا المنزل والمتخلف عن ذلك يؤخذ بالقوة والسياسة.

وقال قائل منهم: ينبغي أن تضعوا القانون المصلح لهذا الاختلاف على أساس الشخصيات الموجودة الذي جئتم بها من بلدكم الذي خرجتم منه، فيتأدب كل بما له من الشخصية الخلقية، ويأخذ بالرحمة لرفقائه، والعطوفة والشهامة والفضيلة، ثم تشتركوا مع ذلك في الانتفاع عن هذه الأمتعة الموجودة، فليست إلا لكم ولمنزلكم هذا. وقد أخطأ القائلان جميعاً، وسهيا عن أن القافلة جميعاً على جناح سفر، ومن الواجب على المسافر أن يراعي في جميع أحواله حال وطنه وحال غاية سفره التي يريد بها فلو نسي شيئاً من ذلك لم يكن يستقبله إلا الضلال والغى والهلاك. والقائل المصيب بينهم هو من يقول: تمتعوا من هذه الأمتعة على حسب ما يكفيكم لهذه الليلة، وخذوا من ذلك زاداً لما هو أمامكم من الطريق، وما أريد منكم في وطنكم، وما تريدونه لمقصدكم»^(١).

التعليق الثاني: هو أنه توجد جملة من العلوم والمعارف التي لا يشك أحد

(١) تفسير الميزان: ج ٢ ص ١١٩ - ١٢٣.

في فائدتها وقيمتها، ومع أنها لا تساهم في تطوير وسائل الاتصال، ولا وسائل النقل، ولا التكنولوجيا الحديثة، كعلم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم القانون، فهل يوجد شخص يشك في قيمة علم القانون! ومع ذلك فإن القانون لا يخترع لنا قمراً صناعياً ولا طائرة حديثة، والدين نظير علم القانون يُعطي قواعد تنظم حياة الإنسان، لكي تكون حياته سعيدة في هذه النشأة، وفي النشأة الأخرى التي تليها.

و إذا قال أصحاب هذه الصياغة: إن علم القانون يساهم في تطوير المجتمع بتطوير وسائل التواصل ووسائل النقل والتكنولوجيا، ولكن بطريق غير مباشر؛ لأن الإنسان يحتاج إلى أمن وسلم اجتماعيين حتى يعيش حالة مستقرة يمكن فيها أن يُبدع، سوف نقول: إن الدين بقوانينه يساهم بطريق غير مباشر في تحقيق ذلك، بل لا تحقق لذلك بحسب الدقة إلا في ظل الدين السماوي - كما سوف نبين إن شاء الله -.

هل للدين فائدة زائدة على الفطرة والعقل؟

الصياغة الثانية: هي التي ذكرها الفيلسوف السويسري جان جاك روسو (Jacques Rousseau - Jean)^(١)، فقد ذكر روسو أن الله تبارك وتعالى أعطانا الفطرة التي تقودنا نحو الخير، وتحصيل الكمالات، و- أيضاً - أعطانا

(١) دين الفطرة: ص ٨٨.

العقل الذي نُميز به بين الخير والشر، وبين ما ينفع ويضر، والحق والباطل، ويمكن أن نسلك به طريق الخير ونترك طريق الشر، فما الذي يُقدمه الأنبياء بعد عطية الفطرة والعقل؟

وهذا السؤال في الحقيقية نظير ما نسبته أحمد بن يحيى الراوندي إلى البراهمة من أنهم قالوا: لا فائدة ولا مصلحة في بعثة الأنبياء؛ لأن ما يأتي به الأنبياء إما أن يكون موافقاً للعقل، فالعقل يكفيننا، أو يكون مخالفاً للعقل، فلا قيمة له ولا فائدة فيه ما دام يتنافى مع الحكم العقلي، فما يأتي به الأنبياء إما بإمكاننا أن نصل بعقولنا إليه، أو مخالف للعقل، وعلى كلا التقديرين لا مصلحة ولا فائدة في بعثة الأنبياء.

وتعرض أبو الفتح الشهرستاني لشبهاتهم فقال: «من الناس من يظن أنهم سموا براهمة لا تنسابهم إلى إبراهيم عليه السلام وذلك خطأ، فإن هؤلاء القوم هم المخصوصون بنفي النبوات أصلاً ورأساً، فكيف يقولون بإبراهيم عليه السلام؟ والقوم الذين اعتقدوا نبوة إبراهيم عليه السلام من أهل الهند فهم الثنوية منهم القائلون بالنور والظلمة على رأي أصحاب الاثنين، وقد ذكرنا مذاهبهم، وهؤلاء البراهمة إنما انتسبوا إلى رجل منهم يقال له: براهم، وقد مهد لهم نفي النبوات أصلاً وقرر استحالة ذلك في العقول بوجوه:

منها أن قال: إن الذي يأتي به الرسول لم يخلُ من أحد أمرين: إما أن يكون معقولاً وإما أن لا يكون معقولاً. فإن كان معقولاً فقد كفانا العقل التام

بإدراكه والوصول إليه، فأبي حاجة لنا إلى الرسول؟ وإن لم يكن معقولاً فلا يكون مقبولاً، إذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الإنسانية، ودخول في حريم الهيمنة.

ومنها أن قال: قد دل العقل على أن الله تعالى حكيم، والحكيم لا يتعبد الخلق إلا بما تدل عليه عقولهم. وقد دلت الدلائل العقلية على أن للعالم صانعاً عالماً قادراً حكيماً، وأنه أنعم على عباده نعماً توجب الشكر، فننظر في آيات خلقه بعقولنا ونشكره بالآئه علينا. وإذا عرفناه وشكرنا له استوجبنا ثوابه، وإذا أنكرناه وكفرنا به استوجبنا عقابه، فما بالنا نتبع بشراً مثلنا؟ فإنه إن كان يأمرنا بما ذكرناه من المعرفة والشكر فقد استغنيا عنه بعقولنا، وإن كان يأمرنا بما يخالف ذلك كان قوله دليلاً ظاهراً على كذبه.

ومنها أن قال: قد دل العقل على أن للعالم صانعاً حكيماً. والحكيم لا يتعبد الخلق بما يقبح في عقولهم، وقد وردت أصحاب الشرائع بمستقبحات من حيث العقل: من التوجه إلى بيت مخصوص في العبادة والطواف حوله، والسعي ورمي الجمار والإحرام والتلبية وتقيل الحجر الأصم، وكذلك ذبح الحيوان، وتحريم ما يمكن أن يكون غذاء للإنسان، وتحليل ما ينقص من بنيته وغير ذلك، وكل هذه الأمور مخالفة لقضايا العقول.

ومنها أنه قال: إن أكبر الكبائر في الرسالة اتباع رجل هو مثلك في الصورة والنفس، والعقل، يأكل مما تأكل، ويشرب مما تشرب، حتى تكون بالنسبة إليه

كجهد يتصرف فيك رفعاً ووضعاً، أو كحيوان يصرفك أماماً وخلفاً، أو كعبد يتقدم إليك أمراً ونهياً، فأی تميز له عليك؟ وأية فضيلة أوجبت استخدامك؟ وما دليله على صدق دعواه؟ فإن اغتررتم بمجرد قوله، فلا تميز لقول على قول. وإن انحسرتم بحجته ومعجزته فعندنا من خصائص الجواهر والأجسام ما لا يحصى كثرة، ومن المخبرين عن مغيبات الأمور من ساوى خبره ﴿قَالَتْ لَهُمْ رَسُولُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ١ فإذا اعترفتم بأن للعالم صانعاً وخالقاً وحكيماً، فاعترفوا بأنه أمر وناه، حاكم على خلقه، وله في جميع ما نأتي ونذر، ونعمل ونفكر حكم وأمر، وليس كل عقل إنساني على استعداد ما يعقل عنه أمره. ولا كل نفس بشري بمثابة من يقبل عنه حكمه، بل أوجبت منته ترتيباً في العقول والنفوس، واقتضت قسمته أن يرفع، ﴿بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ٢، فرحمة الله الكبرى هي النبوة والرسالة، وذلك خير مما يجمعون بعقولهم المختالة»^(١).

أقول: ولا يخفى رجوع الشبهة الثانية إلى الأولى، وأما دعوى مخالفة الشرع للعقل فقد فصلنا الكلام فيها في (التشريع الإسلامي والعقلنة)، والصحيح عدم اشتغال الدين على ما يخالف العقل الصريح بالقطع واليقين، وأما قبح اتباع البشر فدعوى جزافية، وهذا نظير قولهم باشتغال الدين على ما

(١) الملل والنحل: ج ٢ ص ٦٠١، ٦٠٢.

يخالف العقل، فأى عقل يرى قبح اتباع المصطفى المعصوم، والمتفوق بالعلم والكمال!

ويقول جان جاك روسو مثل مقالتهم، ولكن يدخل الفطرة، فهو يقول: إن الله تبارك وتعالى أعطانا فطرة وأعطانا عقلاً، وما يأتي به الأنبياء إما موافق للفطرة والعقل، فتكفيها الفطرة ويكفيها العقل، أو يخالف فلا قيمة له؛ لأن الله تبارك وتعالى الذي أودع فينا الفطرة وأودع فينا العقل، فكيف يرسل إلينا شخصاً بتعاليم منافية للفطرة ومنافية للعقل.

علماء الكلام تصدوا قديماً للرد على هذه الصياغة، وقد أجابوا بجواب نقضي وبجواب حلّي:

أما الجواب النقضي:

فهو بالمعاهد العلمية، فنحن نذهب إلى المدارس والكلليات والجامعات لكي نتعلم، فلماذا نذهب؟ إذا قيل: لكي ندرس ونتعلم، سيقال: إن الذي يُدرّس في الجامعات إما أن يكون موافقاً للعقل، فالعقل يكفيها، أو يكون مخالفاً للعقل، فلا قيمة له ولا فائدة فيه، إذن لماذا نتعلم!

والجواب الذي يذكره البراهمة والراوندي وجان جاك روسو في المعاهد العلمية نذكره بعينه في الأنبياء، فالجواب هو الجواب.

وأما الجواب الحلّي:

فهو إن ما يأتي به الأنبياء ليس مخالفاً للعقل، وفي نفس الوقت لا يستقل

العقل في إدراكه، فلا يدور الأمر بين خيارين:

١- أن يكون مما يدركه العقل ويرى أنه مخالف.

٢- أن يكون مما يدركه العقل ويرى أنه موافق.

بل يوجد خيار ثالث، وهو أن العقل لا يتمكن من الوصول إليه بنفسه، فيحتاج إلى مُعلم، وإذا تعلم العقل عند مُعلم يُدرك أن ما تعلمه ليس منافياً لمدركاته الضرورية، فلا يلزم فيه اجتماع النقيضين، واجتماع الضدين، ولا الدور، ولا التسلسل، وأي محذور عقلي، وهذا ما يأتي به الأنبياء، فالعقل قاصر عن إدراكه، وإذا أدركه العقل بعد تعليم الأنبياء لا يراه منافياً لحكم من أحكامه.

وفي المحطة الثانية من محطات السلسلة النبوية نريد أن نقف عند الجواب الحليّ وتكلم فيه مفصلاً من مطلّقين:

المنطلق الأول: فكري نظري.

المنطلق الثاني: روحي عملي.

المنطلق النظري:

يمكن أن نذكر جوابين على السؤال الذي ذكره جان جاك روسو:

اعتراف روسو بقصور العقل والفطرة:

الجواب الأول: هو أن روسو في كتابه: (دين الفطرة)^(١) ذكر أن معرفة

الإنسان بالكون معرفة محدودة جداً، فنحن لا نملك ثقافة كافية عن الكون، ومعلوماتنا عن الكون معلومات قليلة، فنحن نجهل الكون من حيث الوزن والموازين، ومن حيث المبدأ، ومن حيث المنتهى.

وذكر - أيضاً - أن معرفة الإنسان بنفسه معرفة محدودة وضئيلة جداً، وبلغ الجهل بأنفسنا أننا لا نعلم هل هي بسيطة أو مركبة، ثم يقول: «نحن محاطون بالألغاز من كل جانب، ونعيش في عالم يُحيط بنا الغموض فيه من كل جهة».

وإذا كان الإنسان يجهل الكثير عن الكون، وعن نفسه، فهذا يعني أن الفطرة والعقل لا يُقدّمان له كل المعرفة، فهناك معرفة لم يصل إليها الإنسان بفطرته وعقله، مع أنه عاش على هذا الكوكب آلاف السنين.

إذن، هناك معارف نحن قاصرون - إلى اليوم - عن إدراكها ونحتاج فيها إلى تعليم، فيمكن أن نأخذ هذا التعليم من الله تبارك وتعالى بواسطة الوحي، فليست كل العلوم منكشفة بالفطرة والعقل، بل هنالك علوم ليست منكشفة بهما باعتراف جان جاك روسو.

الفطرة والعقل والعلوم الحديثة لا تجيب على أهم الأسئلة:

وفي الحقيقة إن الإنسان بعد إثبات وجود الله تبارك وتعالى يوجه أهم ثلاثة أسئلة في حياته، ولا يستطيع أن يُحصّل إجابة عليها من فطرته، وعقله، ومن العلوم التي تطور وسائل النقل، ووسائل المواصلات:

السؤال الأول: ما هو هدف الباري وتبارك وتعالى الذي خلقنا، وخلق

الكون من حولنا من هذه الخلقة؟ وما هي الغاية من خلق الإنسان؟
إن جواب هذا السؤال لا يمكن أن يُعرف إلا من الله تبارك وتعالى، فالله
هو الذي فعل لغاية، وهذا الغاية بالنسبة إلينا أمر غيبي، إذ كيف نعلم بهذه
الغاية من دون أن يُخبر الباري تبارك وتعالى!

إذن، نحن بحاجة إلى إخبار الله لمعرفة الغاية والهدف من خلقنا.
كما لا يمكن أن نعرف هل الباري خلقنا لهذه النشأة، فنأكل ونشرب، ثم
نموت ونعدم ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾^(١)، أم الباري
تبارك وتعالى سوف ينقلنا إلى نشأة أخرى، لا يمكن أن نعرف الجواب إلا
بإخبار الله تبارك وتعالى.

السؤال الثاني: إذا علمنا بأن الله تبارك وتعالى لم يخلقنا لهذه النشأة فقط،
وتوجد نشأة أخرى، ونحن سوف نتقل من هذه النشأة إليها (وإنما تنقلون
من دار إلى دار)^(٢) فما هي طبيعة حياتنا في تلك النشأة؟ كيف ستكون؟ هل كل
الناس سعداء في تلك النشأة؟ أم ينقسمون إلى سعيد وشقي؟

لا يمكن أن نعرف جواب هذا السؤال في ظل علم الرياضيات، ولا علم
الفيزياء، ولا علم الكيمياء، ولا علم الفلك، ولا علم الطب، ولا بالفطرة ولا
بالعقل، فإن معرفة الجواب تنحصر في إخبار الله تبارك وتعالى، وإخباره يعني

(١) سورة الجاثية: آية ٢٤.

(٢) الاعتقادات في دين الإمامية، الشيخ الصدوق: ص ٤٧.

وجود دين وتعليم إلهي وراء العقل والفطرة.

السؤال الثالث: إذا علمنا بوجود حياة أخرى، وينقسم الناس فيها إلى شقي وسعيد، كيف يمكن أن أحصل على السعادة في النشأة الأخرى؟ ما هو طريقي وصراتي نحو سعادتي في تلك النشأة؟

لا يمكن أن أعرف جواب هذا السؤال بالفطرة والعقل؛ لأنني أجهل حقيقة عالم الآخرة، وبالتالي أجهل العلاقة الموجودة بين ذلك العالم وبين عالمي، فلا أعلم هل لفعلي دخل في تكون السعادة أم لا؟ وإذا كان لفعلي دخل - أي إن الفعل يوصل إلى السعادة والسعادة العالية - فأني فعل يُوصل إلى السعادة، وأي فعل يوصل إلى الشقاء؟

هذا السؤال لا يمكن أن أعرف إجابته إلا إذا أخبرني الله تبارك وتعالى. إذن هناك أسئلة مهمة هي الأسئلة الأهم في حياة الإنسان، ولا يمكن أن يُعرف الجواب عليها إلا في ظل الدين وبعثة الأنبياء وإرسال الرسل.

توقف قيام المجتمع بالعدل والقسط على الدين:

الجواب الثاني: هو أن المجتمع البشري في هذه النشأة لا يمكن أن يقوم على العدل والأمن والسلم إلا في ظل وجود الدين الإلهي، فالمجتمع الذي لا تأثير للدين فيه يتحول إلى غابة يتسلط فيها القوي على الضعيف، ويستثمره ظلماً وجوراً لتحقيق أهدافه ومصالحه، وهذا ما بينه القرآن الكريم، وطبعاً لا نستدل بالقرآن الكريم؛ لأن الحديث عن فائدة النبوة قبل النظر في دليل

النبوة، والمفروض بعدُ لم نُقم الدليل على بعثة الأنبياء وإرسال الرسل، فلست في هذه المرحلة في مقام الاستدلال بالقرآن، ولكن أريد أن أبين أن هذه الحقيقة المذكورة في القرآن، وأن العدل لا يمكن أن يتحقق اجتماعياً إلا في ظل الدين، ولهذا يقول عز وجل: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^(١)، وقد ذكر العلامة الطباطبائي رحمته الله في تفسير هذه الآية الكريمة أن فيها تقديراً، فإن الآية تقول: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فاختلَفُوا بسبب الفطرة، وسوف نبين كيف تؤدي فطرة الإنسان إلى اختلاف المجتمع الإنساني، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾، والحكم بين الناس بالعدل، ورفع الخلاف رفعاً جذرياً لا يمكن إلا بإنزال الكتاب الإلهي، أي بالتشريع الإلهي، يقول تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(٢)، فلا يمكن أن يقوم الناس بالقسط إلا في ظل إرسال الأنبياء والرسل، وفي ظل إنزال التعاليم الإلهية، وللشهيد المطهري رحمته الله كلمة لطيفة^(٣)، يقول فيها بتغيير في طريقة العرض: إن بعض الناس يذكرون أن

(١) سورة البقرة: آية ٢١٣.

(٢) سورة الحديد: آية ٢٥.

(٣) النبوة: ص ٥٣.

المجتمعات اللادينية متطورة في كثير من الصعد، وهذا يدل على أن الإنسان لا يحتاج إلى الدين، والدليل على عدم وجود حاجة إلى الدين تطور المجتمعات اللادينية، ويجب الشهيد مطهري: إن سبب هذا الكلام الغفلة عن أن تطور المجتمعات اللادينية بسبب عدة عوامل، ومن أهم هذه العوامل الدين الذي جاء به الأنبياء وروجه المتدينون.

ومن حقك أن تسأل: كيف يتطور مجتمع غير متدين لا يؤمن بالدين، ويكون سبب تطوره الدين؟

والجواب: إن الدين هو الفاعل في تطوير جميع المجتمعات التي يوجد فيها تطور سواء كانت متدينة أو كانت غير متدينة، وحتى يتضح هذا المعنى أذكر بياناً يتكون من ثلاث مقدمات:

المقدمة الأولى: هي أن الإنسان فطم على حب ذاته، فكل واحد منا يدرك أنه يحب ذاته، فلا تجد أحداً منا لا يُحب نفسه، ولهذا الإنسان دائماً يُحافظ على نفسه، ويحاول أن يجلب المصالح لنفسه ويدفع المضار عنها، فما الذي يُحرّكه نحو جلب المصلحة ودفع المفسدة؟

الجواب: إنها فطرة حُب الذات، والإنسان الذي يحب ذاته ويسعى لتحقيق مصالح ذاته، يستطيع أن يُحقق بعض المصالح بنفسه، ولا يستطيع أن يُحقق البعض الآخر بنفسه دون استخدام غيره.

مثلاً: في التنفس بإمكان الإنسان في الأعم الأغلب أن يتنفس، بلا احتياج

إلى غيره، فيظفر بنفسه بالأكسجين، فهو بلحاظ هذه المصلحة لا يحتاج إلى استخدام غيره.

لكن في بعض الحالات لا يستطيع أن يحقق المصلحة إلا إذا استخدم الغير، والغير قد يكون جماداً، كما في بناء البيت من الطين، وقد يكون نباتاً، كما في بناء البيت من الشجر أو أكل الفواكه، وقد يكون حيواناً يركبه أو يأكل من لحمه أو يشرب من لبنه أو يستخدم جلده في اللباس، وقد يكون إنساناً، فالطبيب يحتاج إلى البناء في بناء بيته، والبناء يحتاج إلى الطبيب في علاج مرضه، فالإنسان بلحاظ بعض المصالح التي يتحرك فطرياً لتحقيقها يحتاج إلى أن يستخدم غيره، والغير قد يكون إنساناً، ومن هنا صار الإنسان مدنياً بالطبع واجتماعياً بالطبع، ففي الواقع هو فطر على حب ذاته، فهو يتحرك لتحقيق بعض مصالحه، وبعض المصالح لا بد أن يستخدم الإنسان غيره فيها، فصار الإنسان مستخدماً بتبع كونه محباً لنفسه، وفطرته جعلته مستخدماً، ولما صار مستخدماً احتاج إلى أن يجتمع بالإنسان الآخر، ويكون معه لكي يستخدمه لتحقيق مصالحه، فكونه مدنياً بالطبع من جهة أنه ناقص يستكمل وبعض كمالاته لا يمكن أن يحققها إلا في ظل المجتمع الإنساني، وهذا ما ذكره العلامة الطبطبائي رحمته الله في تفسير الميزان في ذيل قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾.

المقدمة الثانية: هذه الفطرة التي تحركنا نحو المجتمع من أجل أن نستخدم

الآخر لتحقيق مصالحنا، كما نُحرِّك نحو إنشاء المجتمع هي - أيضاً - نُحرِّك نحو فساد المجتمع.

كيف؟

الجواب: إذا كان الإنسان يُحب ذاته، ويريد أن يستخدم الآخر لتحقيق مصالحه، فقد يتقوى على الآخر، ويضطهده، ويعلو عليه، فيظلمه من أجل تحقيق أهدافه ومصلحه، وأبناء المجتمع يتفاوتون بعضهم قوي وبعضهم ضعيف، وبعضهم كثير عندهم أعوان وعائلة وجماعة كثيرة ينصرونه، وبعضهم قليل، وإذا كان كل شخص يتحرَّك نحو استثمار الآخر لتحقيق مصالحه، فقد يعلو القوي على الضعيف، ويعلو الكثير على القليل، ومن هنا كان المجتمع البشري بحاجة إلى وجود قانون يضبط العلاقة الاجتماعية، فالقانون هو الذي يضمن أن لا يتكامل بعض أفراد المجتمع على حساب البعض الآخر، ويضمن أن لا يتقوى القوي على الضعيف، فيستثمر الضعيف في تحقيق مصالحه، ولو على حساب خسارة الضعيف، فالفطرة لوحدها لا تحقق العدالة؛ لأنها تدعو إلى الإفساد فيما إذا لم يكن هنالك قانون.

وكذلك العقل والعلم لا يكفيان، ففي القرن العشرين عاش الإنسان مرحلة تطوره في العلم، ومع ذلك في هذا القرن وقعت معركتان هما من أخطر المعارك التي عاشها المجتمع الإنساني (الحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية)، ونتيجة هاتين الحربين مئة وخمسة عشر مليون إنسان قتل

عدواناً، والذي ساهم في جعل الفجيعة أعظم، والإجرام أكبر التطور العلمي، والأسلحة الفتّاقة، والذي حرّك الدول نحو الحرب حب الذات، وطلب المصالح، ولو على حساب الآخر، فوجدت شعوب تريد أن تزدهر ولو على حساب شعوب أخرى، فستثمر العلم لأجل إحداث الخلاف والصراع، وتاريخ البشر مليء بالحروب والمعارك والجرائم. من هنا لا يشك عاقل في أن البشر بحاجة إلى قانون في تنظيم المجتمع، وضبط العلاقات الاجتماعية.

المقدمة الثالثة: لكي يكون القانون نافعاً في تحقيق العدالة الاجتماعية، ولكي يكون فاعلاً في تحقيق التوازن الاجتماعي، والأمن والسلم الاجتماعيين، لا بد أن يكون قانوناً إلهياً، وأما القانون الوضعي فلا أثر له في ذلك، وأذكر ثلاثة تقرّيات للبرهنة على هذه الدعوى:

توقف الإلزام الأخلاقي على الدين:

التقريب الأول: هو أن الإلزام الأخلاقي يتوقف على وجود الدين والاعتقاد بوجود الله تبارك وتعالى، فلكي يكون القانون فاعلاً في المجتمع لا بد أن يعتقد المجتمع بلزوم تطبيق القانون، ولا يكفي أن يعتقد بأن القانون حسن، فالأفعال الحسنة التي ندرك أنها حسنة ولا نلتزم بها كثيرة جداً، والذي يُحرّك النوع البشري ليس إدراك الحسن، وإنما إدراك الإلزام والضرورة، فلا بد أن ندرك أن من اللازم عدم فعل الظلم، ومن اللازم فعل العدل، لا أن ندرك

أن الظلم قبيح والعدل حسن، فالإدراك بهذا المقدار لا يُحقق الأثر في النوع البشري، ولا يمكن أن نُدرك الإلزام الأخلاقي ونعتقد بضرورة العمل بالقيم الأخلاقية إلا إذا اعتقدنا بوجود الله تبارك وتعالى.

تصور لو كان المجتمع مجتمعاً ملحداً يعتقد بنظرية التطور (لداروين) ويقول: إن أصل الإنسان مثل أصل الديدان والبعوض والذباب، مادة عمياء نشأت فيها الحياة، ثم تطورت وفق لقانون البقاء للأقوى أو قانون الانتخاب الطبيعي فتحولت إلى إنسان، بينما خلية أخرى تحولت إلى ذبابة، فالموجود مجرد عناصر وطاقة ليس إلا، فإن هذا المجتمع الذي يعتقد بهذه العقيدة لن يعتقد بوجود القيم الأخلاقية؛ لأن وجود الإنسان ووجود الأفكار ليس إلا مادة، كسائر المادة الموجودة في هذا الكون، فما الفرق بين فكرة الظلم قبيح ووجود القمر في الخارج؟ لا فرق، فهذه الفكرة مكونة من مادة، والقمر - أيضاً - مكون من مادة، فالعالم كله مادة تسبح غايته هذه المادة تتموج، وبعضها تحول إلى أفكار ضمن شروط طبيعية محضة، وبعضها تحول إلى موجودات خارجية، فهذه الأفكار ليست إلا ماديات متحققة كسائل الماديات، وكل حي مع أفكاره سيتحول إلى شيء آخر، فما هو الجانب الملزم حينئذ!

ولهذا يقول الملحد المشهور (رتشارد دكنز) في كتابه وهم الإله: من الصعب جداً جداً الدفاع عن القيم الأخلاقية المطلقة على أرضية غير الدين^(١).

(١) وهم الإله: ص ٢٣٢.

نعم، من يصعب على المفكر أن يُدافع عن الأخلاق عن ضرورة الالتزام بالعدل وترك الظلم، وضرورة الالتزام بالقانون إذا لم يكن متدينًا؛ لأن المتدين هو الذي يؤمن بوجود إله جعل تشريعات، وجعل عقوبة على مخالفة هذه التشريعات ويرى أنه إذا لم يلتزم بالقانون سوف يتضرر، فمن باب دفع الضرر عن نفسه سوف يلتزم عمليًا، فإن من أمن العقوبة أساء الأدب، والذي لا يرى نفسه معاقبة على سوء فعل فيما إذا تسلط وظلم، ولن يترتب أي ضرر على استعلائه، لن يلتزم بالقيم ولن يلتزم بالقوانين، فهو قد يخضع للقانون ما دام ضعيفًا، لكن بمجرد أن يشعر بأنه قوي، ولا يمكن أن يُعاقب، سوف ينقلب على القانون، وهذا ما نشاهده اليوم في ظل تسلط العقلية المادية.

ففي ظل الإيمان بوجود الله الذي يعاقب على مخالفة القانون يمكن أن نظفر بالالتزام الأخلاقي، وبالتالي يمكن أن يكون القانون فاعلاً في تحقيق العدالة الاجتماعية.

شروط المقنن لا تجتمع إلا في الله تعالى:

التقريب الثاني: هو أن القانون لا يكون فاعلاً في المجتمع ومؤثراً إلا إذا توفرت شروط في المقنن:

الشرط الأول: لا بد أن يكون المقنن عالماً بالإنسان، بروحه وبدنه، وبعلاقة الإنسان في الحال والمستقبل، ولا بد أن يكون خبيراً بتعقيدات روح الإنسان حتى يضع القانون النافع في تنظيم حياة الإنسان.

الشرط الثاني: لا بد أن يكون محيطاً بالإنسان في جميع أحواله في سره وعلنه، وقادراً على أن يردع الإنسان إذا خالف القانون، أو قادراً على أن يعاقبه، ولو كان أقوى الأقوياء، ولو كان النمرود أو فرعون، وإذا اعتقد الإنسان بأن المشرع يُحيط به في كل لحظاته، وقادر على أن يُعذبه مهما قوي، سوف يكون خائفاً من المشرع، فيراعي القانون والتشريع في جميع أحواله. وطبعاً، المقصود هنا ليس أن هذا الشرط علة تامة لترتب الأثر - وهو التزام الناس بالقانون فعلاً - وإنما الحديث على مستوى الاقتضاء، تبقى أمور أخرى لا بد أن يقوم بها الإنسان لكي يؤثر القانون التأثير المطلوب منه.

الشرط الثالث: هو غنى المشرع عن القانون، فإذا كان المشرع يحتاج إلى القانون، فربما يجعل القانون ويراعي فيه مصلحته الشخصية، فيكون قانونه سبباً لفساد المجتمع بدل أن يكون سبباً لانتشار العدل والأمن والسلام، فالذي يحتاج إلى القانون ربما يراعي مصلحته الشخصية في وضع القانون، فيجعل لنفسه امتيازاً، فيكون تطبيق القانون نفعاً له وظلماً لغيره، وهذا ما شاهده العالم بعد الحرب العالمية الثانية، فإن الحلفاء لما انتصروا على دول المحور جعلوا أنظمة وقوانين، وهذه الأنظمة كانت تراعي مصالح الحلفاء على حساب الشعوب التي لا تنتمي إلى دولها، مع أنها أكثر من الشعوب التي تعيش في دولها، فمثلاً حق الفيتو^(١) صار لدول معينة، مع أن الذين يسكنون

(١) قيل في بيان حقيقته ومخالفته للعدل الدولي: حق الفيتو أو حق النقض هو حق الاعتراض على

أي قرار يقدم لمجلس الأمن دون إبداء أسباب، ويمنح للأعضاء الخمس دائمي العضوية في مجلس الأمن، وهم: (روسيا، الصين، المملكة المتحدة، فرنسا، الولايات المتحدة).
لم يرد لفظ «فيتو» في ميثاق الأمم المتحدة، بل ورد لفظ «حق الاعتراض» وهو في واقع الأمر «حق إجهاض» للقرار وليس مجرد اعتراض. إذ يكفي اعتراض أي من الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن ليرفض القرار ولا يمرر نهائياً. حتى وإن كان مقبولاً للدول الأربعة عشر الأخرى.

يبدو أن هذا النظام في التصويت اعتمد في مجلس الأمن لتشجيع بعض الدول على المشاركة في الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، بعد أن بدا لها أنها قد تخسر بعض الامتيازات في حال شاركت في منظمة تحترم الديمقراطية. كما ساعد حق النقض (الفيتو) الولايات المتحدة على تقديم أفضل دعم سياسي للكيان الإسرائيلي ذلك بإفشال صدور أي قرار من مجلس الأمن يلزم «إسرائيل» بضرورة وقف احتلال أراضي فلسطين وأعمال العنف ضد الشعب الفلسطيني أو إفشال أي قرار يدين «إسرائيل» باستخدام القوة المفرطة وخصوصاً في الحرب على قطاع غزة في نهاية عام: ٢٠٠٨، أدى ذلك إلى الشك بمصداقية الأمم المتحدة بسبب الفيتو الأمريكي.
ويتناقض هذا النظام عموماً مع القواعد الأساسية التي تشترطها النظم الديمقراطية، فهايك عن أن الدول الخمس هذه لم تنتخب لعضوية هذا المجلس بصورة ديمقراطية، فهي أيضاً لا تصوت على القرارات بنظام الأغلبية المعروف.

وقد ظهرت في السنوات العشر الأخيرة أصوات تطالب بتعديل نظام الأمم المتحدة وتوسيع مجلس الأمن، بإضافة دول أخرى مقترحة كاليابان وألمانيا والبرازيل، وأصوات أخرى اقترحت صوتاً لأفريقيا وأمريكا الجنوبية، وهي على أي حال دعاوى للتوسيع دون المساس بمبدأ (الفيتو)، وقد سعت بعض الأصوات الداعية إلى إلغاء نظام التصويت بالفيتو نهائياً واعتماد نظام أكثر شفافية وديمقراطية وتوازناً.

ويرى البعض أن التوازنات التي يتطلبها صدور القرارات في مجلس الأمن تحت ظل الفيتو، تضعف من النزاهة والموضوعية لتلك القرارات، وأن هذا النظام للتصويت ساهم في إضعاف بل وتقويض نزاهة الأمم المتحدة، وحال دون تمكنها من حل أهم النزاعات الدولية، لكن آخرين يشيرون إلى أن النظام العالمي لا يتحمل حالياً نظاماً ديمقراطياً تنفصل فيه السلطات الثلاث إلى مجلس تشريعي عالمي، وجهاز تنفيذي، وجهاز قضائي، بسبب اعتبارات سياسية وعسكرية دولية خارجة عن نطاق التفكير النظري المثالي.

في هذه الدول أقل من الذي يسكنون في الدول الأخرى، أو لا أقلًا بعض الدول التي لم تُعطَ حق الفيتو عدد سكانها أكثر من بعض الدول التي أخذت هذا الحق، فهذا القانون لم يكن مراعيًا لمصلحة جميع الناس؛ لأن الذي وضعه مستكمل محتاج، ووضعه من منطق القوة والانتصار.

إذن، نحن بحاجة إلى مشرّع يكون غنيًا عن القانون.

وهذه الشروط التي ذكرناها، لا تتوفر إلا في الله تبارك وتعالى، هو الذي خلق الإنسان فهو أعلم بالإنسان ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١)، وهو محيط بكل شيء ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾^(٢)، وهو تبارك وتعالى غني مطلق ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٣)، فالعقل والفطر لا يمكن أن يضعا لنا القانون النافع لقلع جذور الظلم في المجتمع، ولا بد من قانون الله تبارك وتعالى.

العجز عن تمييز الموقف الصحيح:

التقريب الثالث: يمكن للإنسان أن يدرك المصالح والمفاسد والحسن والقبح في بعض الأفعال، فهو قادر على أن يدرك في الجملة، فمثلاً هو يدرك قبح الظلم بالبداهة، ويدرك حسن العدل بالبداهة، ولكن هو في كثير من

(١) سورة الملك: آية ١٤.

(٢) سورة الأنعام: آية ٧٣.

(٣) سورة فاطر: آية ١٥.

الأفعال لا يتمكن من تشخيص المصلحة والمفسدة والحسن والقبح، والعدل والظلم بسبب أمرين:

الأمر الأول: غموض المصلحة وعدم وضوح المفسدة، فمثلاً إذا باع شخص داراً، فهل المصلحة في أن يكون البيع لازماً لا يمكن أن يُفسخ من طرف واحد؟ أو المصلحة في أن يكون البيع جائزاً؟

وإذا تحقق عقد نكاح فهل العدل أو المصلحة في أن تكون القوامة للرجل فقط أو أن تكون القوامة للمرأة فقط، أو أن تكون القوامة مشتركة؟

هنا العقل البشري لا يمكن أن يعطي حسماً في مقام الجواب على هذين السؤالين، بل سوف يدخل في جدل، وكل طرف من المتجادلين سوف يذكر أدلة ووجوه وتقريبات، وبالتالي سوف لن تحسم القضية.

الأمر الثاني: هو تعارض المصلحة الشخصية مع المصلحة الاجتماعية والنوعية، فالإنسان قد يُدرك المصلحة النوعية، ولكن تعارض المصلحة النوعية والمصلحة الاجتماعية مع مصلحته الشخصية - وهو فطر على حب ذاته، ويريد أن يُحصّل مصالحه - يحول بينه وبين تحديد الموقف الذي ينبغي أن يتخذ.

من هنا كان المجتمع البشري بحاجة إلى وجود إنسان كامل، يملك عقلاً أعلى من عقول سائر الناس، مؤيداً مسدداً من الله تبارك وتعالى، لكي يأتي بالتعاليم الإلهية التي تحسم الخلاف في المسائل التي يختلف فيها العقل

البشري؛ لأنه يواجه فيها غموضاً.

والإنسان الكامل هو الذي يقول لكل فرد من أفراد المجتمع: عليك أن تلتزم بالمصلحة الاجتماعية، ولو كانت على حساب مصلحتك الفردية، ولا تجعل المصلحة الفردية الآنية تغطي على المصلحة النوعية الاجتماعية الباقية؛ لأنك إن فعلت ذلك سوف تحاسب وتعاقب، ويكشف له عواقب الفعل الدنيوية والأخروية بكشف السنن والقوانين الحكمة على مسيرة المجتمعات البشرية، فوجود مثل هذا الإنسان يمكن أن يتحقق العدل في المجتمع.

والمجتمعات اللادينية إنما تطورت في ظل وجود قانون يلتزمون به، والتزامهم إنما جاء من تعاليم الأنبياء وتعاليم المتدينين، وإلا لو طبقوا الإلحاد واللاتدين بحذافيره، لتحول مجتمعهم إلى غابة يتسلط فيها القوي على الضعيف، فحالة الالتزام بالقانون والقيم الأخلاقية أخذت من جهود الأنبياء وأتباعهم، وهذا سر تأثير الدين على تطور المجتمعات البشرية.

المنطلق الروحي والعلمي:

لكي يكون الإنسان سعيداً وكاملاً، ولكي يكون سلوكه متوازناً، وبالتالي لكي يقوم مجتمعه على القسط والعدالة والتوازن في علاقات أفراده لابد أن يكون متوازناً في نفسه وروحه، مهذباً لنفسه ومحققاً للتوازن الروحي لقواه الكامنة في ذاته، والتوازن الروحي لا يمكن أن يتحقق إلا في ظل بعثة الأنبياء وإنزال الكتب الإلهية، يقول تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ

وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴿١﴾، فلكي يتحقق القسط في المجتمع، ولكي يتحقق التوازن والقسط في علاقة الإنسان مع الإنسان لا بد أن تكون ذات الإنسان متوازنة مهذبة روحياً، وهذا لا يتحقق إلا بأمرين:

الأمر الأول: إرسال الرسل.

الأمر الثاني: إنزال التشريعات الإلهية.

فإنزال التشريعات لوحده لا يكفي بل لا بد من وجود الرسول الذي يقود المجتمع، ولهذا يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، فقيام الناس بالقسط يتوقف على الإرسال، وإنزال الكتب ولا يكفي فيه إنزال الكتب، حتى تتضح هذه الحقيقة أذكر في البداية أموراً ثلاثة:

الأمر الأول: هو أننا ندرك بالوجدان أن لنا نفوساً وراء أبداننا، فكل شخص منا يدرك أنه له نفساً تختلف عن بدنه، ولهذا يضيف البنية المادية التي تتكون من هذه الأعضاء إلى نفسه، ويقول: (بدني)، فهناك مضاف وهو البدن، وهنالك مضاف إليه، وهو النفس؛ ولأن الإنسان يجد نفسه مختلفة عن بدنه يرى أنه إذا دخل على بدنه نقص، فهو لا يدخل على نفسه، وإنما يدخل على شيء يضاف إليه، فإذا انقطعت يده أو انقطعت رجله لا يشعر أن هويته انتقصت، وإنما بدنه الذي يضاف إليه نقص، أما الهوية من حيث المشاعر

والأحاسيس من حيث الأفكار والمعتقدات، فلا يجد فيها نقصاً. وبحث تجرد النفس واختلاف النفس عن البدن بحث واسع جداً عن الفلاسفة، ويذكرون عليه أدلة كثيرة أكتفي بذكر دليل واحد^(١).

دليل اختلاف النفس عن البدن:

لقد أثبت علماء الطبيعة أن بدن الإنسان يتغير، وتتبدل خلاياه - خصوصاً إذا كان العمر طويلاً - أكثر من مرة، فالخلايا دائماً في حالة تحلل وتلاشٍ وتجدد، فالذي عاش خمسين سنة - مثلاً - قد تغيرت أجزاء بدنه الموجودة قبل أربعين سنة وجاءت أجزاء أخرى، وتبدل أجزاء البدن لم يؤثر على بقاء هوية الإنسان وحقيقة الإنسان، فزيد الذي نعرفه من أربعين سنة هو زيد بقناعته نفسها وأحواله النفسية وأفكاره ومعتقداته لم يتغير مع أن البدن قد تغير، والعقل يقول: المتغير يختلف عن الثابت الذي لا يتغير.

إذن، في الإنسان نفس تختلف البدن.

وتوجد في النفس منطقتان مختلفتان:

المنطقة الأولى: منطقة الإدراك، فنحن نجد في نفوسنا جهازاً وظيفته أن يُدرك، فلدينا حواس ظاهرية نتصل بها بالعالم الذي يحيط بنا، ولدينا وجدان وحواس باطنية، فمن يخاف يجد في نفسه حالة الخوف، فهو يُدرك حالة

(١) راجع كتاب الحجج البالغة في تجرد النفس الناطقة للشيخ المحقق حسن حسن زاده الآملي.

الخوف بالوجدان، ولدينا عقل، وبالعقل تعرّفنا على وجود الله تبارك وتعالى.

إذن، في النفس منطقة إدراك وظيفتها أنها تُحصل العلوم والمعارف.

المنطقة الثانية: منطقة الأحاسيس والمشاعر والأفعال الباطنية الجوانحية

التي تقع في جنان الإنسان، فنحن نُحب وُبُغض، ونؤمن ونريد، وهذه الأمور ليس حقائق إدراكية، بل هي أمور نفعلها في أنفسنا، وإذا فعلناها ووجدت في النفس، فنُدركها بالجهاز الإدراكي الوجداني.

ويوجد تفاعل بين منطقة العمل وبين منطقة الإدراك، فإذا أدركنا كمال الله تبارك وتعالى، وأنه رحيم ودود لطيف بعباده نُحبه، فالإدراك أثر في وجود الحب، وإذا أدرك أن الله أمر ونهى، تنوجد فينا إرادة الامتثال، فإدراك التكليف أثر على منطقة العمل ومنطقة الأحاسيس والمشاعر بأن أوجد إرادة، فإذا أردنا في داخل نفوسنا نفعل أفعالاً جوارحية، ومن يُدرك حُسن صديقه يُحبه، من يُدرك سوء عدوه يُبغضه، فهناك عملية تفاعل بين منطقة الإدراك وبين منطقة العمل في باطن الإنسان.

الأمر الثاني: منطقة العمل في باطن الإنسان يوجد فيها ثلاث قوى فاعلة

وعاملة وتؤثر على سلوك الإنسان الخارجي:

القوة الأولى: قوة الضمير، فنحن إذا أدركنا الحُسن والقبيح نجد فينا قوة

تُحرّكنا نحو فعل الحُسن وتزجرنا عن فعل القبيح، وإذا ارتكبنا - والعياذ بالله - أمراً قبيحاً نجد في داخلنا ما يلومنا ويعتب علينا، ويجعلنا نشعر بحالة من

العار والخزي على ارتكاب الفعل القبيح، وهذه القوة التي تقوم بهذا الدور تسمى بالضمير، وذكر بعض الباحثين أنها النفس اللوامة في قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾^(١).

القوة الثانية: هي قوة الشهوة، فالإنسان إذا أدرك أن في فعل مصلحة وكماً أو لذة؛ فلأنه فطر على حب ذاته يجد في نفسه قوة تُحرّكه نحو فعل ذلك الفعل الذي اعتقد أن فيه مصلحة له أو يُحقق له كماً أو لذة، فبمجرد أن يعتقد بوجود كمال في فعل يجد النفس تدفعه نحو تحقيق ذلك الفعل، وهذه القوة التي تدفع نحو تحقيق الملذات والكمالات هي قوة الشهوة، وهي تتبع يقين الإنسان بقطع النظر عن كون اليقين مطابقاً للواقع أو لا، فلو اعتقد الإنسان أن في فعل توجد مصلحة، وكان اعتقاده ليس مطابقاً للواقع، والفعل في الواقع توجد فيه مفسدة، فمع ذلك تفعل هذه القوة - قوة الشهوة - وتُحرّكه نحو تحقيق ذلك الفعل؛ لأن ما يفعل في هذه القوة ليس وجود المصلحة في الخارج، وإنما اعتقاد وجود المصلحة.

القوة الثالثة: قوة الغضب، فلأن الإنسان فطر على حب ذاته فهو دائماً يتحرك نحو الحفاظ على ذاته، والحفاظ على كمالاته الموجودة عنده، ودفع الموانع عن تحقيق الكمالات التي ليست موجودة عنده، فإذا تعرضت نفسه وذاته التي يُحبها لموقف لا يُناسبها قد يؤدي إلى ذهاب الذات، أو ذهاب كمال

(١) سورة القيامة: آية ٢.

موجود، أو الحرمان من كمال قد يوجد، تتحرك في الإنسان قوة تسمى بقوة الغضب، وهذه القوة يُبغض، ويتنقم فيما إذا تعرضت شخصيته لأمر لا يناسبها.

والضمير يتأثر بالتعليم والتربية، فإذا كانت التربية تربية صحيحة يكون الضمير فاعلاً بطريقة صحيحة، وأما إذا كانت التربية تربية سيئة فإن الضمير سوف يضعف أو يموت أو يعمل بطريقة معاكسة، فمن رُبي على بغض جماعة من الناس سوف يتخذ معهم مواقف سلبية وشديدة، وسوف يتعدى عليهم بالسب والضرب والتعذيب أو حتى بالقتل، ولن يرف له جفن، ولن يتحرك ضميره؛ لأنه يعتقد أن ما يفعله هو الفعل الصحيح بسبب التربية الخاطئة، وإذا اعتقد الإنسان بأن الإنسان مجرد مخلوق مادي متطور، كالحشرات، وأن الشعور بالألم والإحباط ليس إلا تفاعلات مادية لا قيمة لها، ولا ينبغي أن تراعى زيادة على المشاعر الموجودة في الحيوانات والحشرات، سوف يكون حينئذٍ مُنظرًا نازيًا، يُشرعن العنصرية، ويدعو إلى استعلاء شعب على شعب آخر، وقتل ذوي الاحتياجات الخاصة، انطلاقاً من قانون الانتخاب الطبيعي، والبقاء للأقوى، كما كان يُنظر فلاسفة النازية وما بعد الحداثة، كالفيلسوف الألماني فردريك نيتشه (بالألمانية: *Friedrich Nietzsche*)، فهؤلاء الذين يتحدثون بهذا المنطق لا يفتقرون إلى العقل، فالعقل كقوة مُدركة متحقق عندهم، ومشكلتهم في موت الضمير، والتربية والأفكار الخاطئة هي التي

أهلكت الضمير فيهم، فصار ارتكاب الجريمة فعلاً عادياً لا يدعو إلى الشعور بالخزي والعار، بل تحول إلى فعل حسن، ففي القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(١)، وفي الخبر قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا فَسَقَ شَبَابُكُمْ وَطَعَتْ نِسَاؤُكُمْ وَكَثُرَ جُهَالُكُمْ؟ قَالُوا: أَوْ إِنْ - أَوْ إِنْ - ذَلِكَ كَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! قَالَ: وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ. كَيْفَ بِكُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالُوا: وَإِنْ ذَلِكَ كَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! قَالَ: وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ. كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَرَأَيْتُمُ الْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا؟»^(٢).

وإذا مات الضمير يتحول عقل الإنسان إلى خادماً للشهوة والغضب؛ لأن الفاعل بعد موت الضمير الشهوة والغضب فقط، فإذا أدرك العقل وجود مصلحة في فعل سوف تتحرك الشهوة بلا لجام، فيعمل العقل لتحقيق تلك الشهوة، ولو كان بفعل محذور، وكان فيه تعدياً على الآخرين، وكذلك إذا تعرض الإنسان لموقف لا يُرضيه سوف تكون ردة فعله لا يمكن التنبؤ بسوئها؛ لأن الفاعل فيه الغضب من دون وجود عقل يحكم، ولهذا نجد انتقام بعض الناس بطريقة سيئة جداً، وقد تترتب عليها إبادة جماعة؛ لأن العقل

(١) سورة الكهف: آية ١٠٤.

(٢) ويوجد قريب منه في تهذيب الأحكام: ج ٦ ص ١٧٧.

تحول إلى عبد أسير يُخطط للشهوة أو للغضب، وأمير المؤمنين عليه السلام عنده كلمة ينبغي أن تكتب بهاء الذهب على صفائح الفضة وتنقط بالماس، وهي: (كم من عقل أسير تحت هوى أمير)^(١).

الأمر الثالث: إذا كان الضمير بموته يتحول الإنسان إلى حيوان يعمل تبعاً لشهوته وغضبه، فإن توازن نفس الإنسان بأن تكون الشهوة والغضب خاضعين للعقل، إنما يكون في قوة الضمير، فالضمير هو الذي يُحدث حالة التوازن داخل الإنسان بين العقل وبين الشهوة الغضب، وإذا كان الضمير هو الذي يُحقق التوازن وهو أمر باطني في نفس الإنسان، فلكي يصل الإنسان إلى سعادته ويكون متوازناً في سلوكه لابد أولاً أن يكون متوازناً في نفسه، فيبدأ بتهديب نفسه، وبإحداث التوازن في قواه الباطنية، ثم حيثئذ يمكن أن يضع قدمه في صراط تكامله، ويمكن أن يكون سلوكه متوازناً، وبالتالي يكون مجتمعه الذي يعيش فيه متوازناً من حيث العدل وإعطاء الحقوق، وهذا ما بينه رسول الله صلى الله عليه وآله عندما عبر عن جهاد النفس بـ (الجهاد الأكبر)، فهذا التعبير من معاجز رسول الله صلى الله عليه وآله وملاحم صدقه، فهو في تلك البيئة العربية المتخلفة أعطانا تعبيراً يختزل لنا الموقف الأخلاقي وتأثير توازن قوى النفس الباطنية مع توازن السلوك الخارجي، فقد جاء قوم من أصحابه من معركة، فقال لهم: «مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، قيل يا رسول

(١) نهج البلاغة: ص ٥٠٦.

الله ما الجهاد الأكبر؟ - هل هناك شيء أعظم من حمل السيف وإلقاء النفس في مواطن الهلكة؟ - قال ﷺ: جهاد النفس».

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه»^(١).
ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّكَ قَدْ جُعِلْتَ طَيِّبَ نَفْسِكَ وَيُنَّ لَكَ الدَّاءُ وَعُرِفَتْ آيَةُ الصَّحَّةِ وَدُلَّتْ عَلَى الدَّوَاءِ فَانْظُرْ كَيْفَ قِيَامُكَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٢).

وعلاج النفس في تهذيبها، وتهذيب أمر داخلي نستعين فيه بالتحاليم والقدوة الصالحة - كما سوف نبيّن إن شاء الله -، وإذا كان إحداث التوازن للنفس مناط إحداث التوازن السلوكي، وبالتالي التوازن الاجتماعي، وبالتالي تحقيق البيئة المناسبة لتكامل الإنسان وتحقيق سعادته فإن هذا التوازن النفسي لا يمكن أن يتحقق إلا في ظل بعثة الأنبياء وإرسال الرسل، لماذا؟

الجواب: لأن تهذيب النفس الإنسانية لا يمكن أن يتحقق إلا بوجود ركنين:

الركن الأول: وجود نظام أخلاقي، ونظام روحي عملي تسير عليه النفس، فتصل إلى مرحلة التوازن الروحي، فإن الإنسان يولد كالحیوان من حيث ضعف العقل وفعالية قوة الشهوة والغضب، فلا بد أن يخرج من القوة إلى الفعل بنحو متوازن، وهذا يتطلب النظام الروحي والسلوكي، والنظام

(١) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق: ص ١٦٠.

(٢) الكافي: ج ٢ ص ٤٥٤.

الروحي والأخلاقي لا يمكن أن يكون فاعلاً مُحققاً للتوازن الروحي إلا إذا كان صادراً من شخص عارف بالإنسان محيط بدقائق تفاصيل النفس وتعقيداتها، ولا يعلم بالنفس الإنسانية تمام العلم والمعرفة إلا الذي خلق هذه النفس، وهو الله تبارك وتعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١)، فهو الذي خلق النفس وأوجد ما فيها من قوى، هو الذي أوجد هذا الكائن المعقد وهو الإنسان، فقدركه طالت كل جزء من أجزاء الإنسان، وعلمه أيضاً أحاط بكل جهة وزاوية في أعماقه.

وأما غير الله تبارك وتعالى فهو إن ملك معرفة بالنفس الإنسانية فمعرفته محدودة، إلا إذا كان معلماً من الله تبارك وتعالى، وأكبر العقول البشرية اليوم تعترف بعجزها عن معرفة النفس الإنسانية، قد نقلنا عن جان جاك روسو من كتابه دين الفطرة أنه قال: «نجهل نفس الإنسان نوعها، محرکها، بل لا نعلم بالدقة هل هي بسيطة أو مركبة الألغاز تحيط بنا من كل ناحية»^(٢).

وقد يقول قائل: إن روسو كان يعيش في القرن الثامن عشر الميلادي، ونحن الآن في القرن الواحد والعشرين والمعرفة تطورت كثيراً.

والجواب: إن المعرفة الإنسانية لم تتطور كثيراً فالدكتور ألكسس كريل (Alexis Carrel) الحائز على جائزة نوبل عنده كتاب بعنوان: (الإنسان ذلك

(١) سورة الملك: آية ١٤.

(٢) صفحة ٢٧.

(المجهول)، ومن عنوان الكتاب نصل إلى النتيجة التي نريد الوصول إليها، وقد عقد في كتابه العنوان التالي: (الحاجة إلى معرفة الإنسان معرفة أفضل)، وذكر تحته أن العلوم الكونية كعلم الفلك وعلم الفيزياء وعلم الكيمياء تتطور تطوراً سريعاً؛ لأنها تعتمد على ما نلاحظه من حولنا، وأما علم الإنسان فهو بطيء جداً في تطوره؛ لأن من يلج في علم الإنسان فكأنه يلج في غابة كثة بالأشجار تتشابك فيها الأغصان، فهو يقول: «ولكن علم الكائنات الحية بصفة عامة، والإنسان بصفة خاصة، لم يصب مثل هذا التقدم.. إنه لا يزال في المرحلة الوصفية.. فالإنسان كل لا يتجزأ كما أنه في غاية التعقيد، ومن غير الميسور الحصول على عرض بسيط له، وليست هناك طريقة لفهمه في مجموعه، أو في أجزائه في وقت واحد، كما لا توجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجي.. ولكي نحلل أنفسنا، فإننا مضطرون إلى الاستعانة بفنون مختلفة، وإلى استخدام علوم كثيرة. ومن الطبيعي أن تصل كل هذه العلوم إلى رأي مختلف في غايتها المشتركة، فإنها تستخلص من الإنسان ما تمكنها وسائلها الخاصة من بلوغه فقط، وبعد أن تضاف هذه المستخلصات إلى بعضها البعض فإنها تبقى أقل غناء من الحقيقة الصلبة.. إنها تخلف وراءها بقية عظيمة الأهمية بحيث لا يمكن إهمالها.. إن التشريح والكيمياء والفسولوجيا وعلم النفس والبيداجوجيا (فن التعليم) والتاريخ، وعلم الاجتماع، والاقتصاد السياسي، لا تلم بجوانب موضوعها كلها. والإنسان - كما هو معروف للأخصائيين - أبعد

من أن يكون الإنسان الجامد.. فالإنسان الحقيقي لا يزيد على أن يكون رسماً بيانياً يتكون من رسوم بيانية أخرى أنشأتها فنون كل علم، وهو، في الوقت نفسه، الجثة التي شرحها البيولوجيون (علماء الحياة)، والشعور الذي لاحظته علماء النفس وكبار معلمي الحياة الروحية، والشخصية التي أظهر التأمل الباطني لكل إنسان أنها كامنة في أعماق ذاته.. إنه، أي الإنسان، عبارة عن المواد الكيميائية التي تؤلف الأنسجة وأخلاط أجسامنا.. إنه تلك الجمهرة المذهلة من الخلايا والعصارات المغذية التي درس الفسيولوجيون (علماء وظائف الأعضاء) قوانينها العضوية.. إنه ذلك المركب من الأنسجة والشعور الذي يحاول علماء الصحة والمعلمون أن يقودوه إلى الدرجات العليا في أثناء نموه مع الزمن.. إنه ذلك الكائن الحي العالمي الذي يجب أن يستهلك، من غير انقطاع، السلع التي تنتجها المصانع حتى يمكن أن تظل الآلات، التي جعل لها عبداً، دائرة بلا توقف.. ولكنه قد يكون أيضاً شاعراً أو بطلاً أو قديساً.. إنه ليس فقط ذلك المخلوق الشديد التعقيد الذي تحلله فنوننا العلمية، ولكنه أيضاً تلك الميول والتكهنات وكل ما تنشده الإنسانية من طموح.. وكل آرائنا عنه مبشرة بالفلسفة العقلية.. وهذه الآراء جميعاً تنهض على فيض من المعلومات غير الدقيقة بحيث يراودنا إغراء عظيم لنختار من بينها ما يرضينا ويسرنا فقط.. ومن ثم فإن فكرتنا عن الإنسان تختلف تبعاً لإحساساتنا ومعتقداتنا، فالشخص المادي والشخص الروحي يقبلان التعريف الذي يطلق على

«بلوزة» من «الكاوريد»، ولكنها لا يتفقان أحدهما مع الآخر في تعريف الكائن الحي. وعلم وظائف الأعضاء الذي يبحث في عمليات الجسم الميكانيكية، ويبحث في مذهب الحياة نفسه لا يمكن أن ينظر إلى جسم الإنسان من زاوية واحدة. وكذلك فإن الكائن الحي، كما يراه «جاك لويب»، يختلف اختلافاً عظيماً عما يراه «هانز» و«ريش».. وفي الحق لقد بذل الجنس البشري جهداً جباراً لكي يعرف نفسه، ولكن على الرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا.. إننا لا نفهم الإنسان ككل.. إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا.. فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح، تسير في وسطها حقيقة مجهولة. وواقع الأمر أن جهلنا مطبق، فمعظم الأسئلة التي يوجهها أولئك الذين يدرسون الجنس البشري إلى أنفسهم تظل بلا جواب؛ لأن هناك مناطق غير محدودة في ديانا الباطنية ما زالت غير معروفة.. فنحن لا نعرف حتى الآن الإجابة عن أسئلة كثيرة مثل: كيف تتحد جزئيات المواد الكيميائية لكي تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية؟ كيف تقرر «الجينة» الموجودة في نواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة؟ كيف تتنظم الخلايا في جماعات من تلقاء أنفسها، مثل الأنسجة والأعضاء؟.... إننا ما زلنا بعيدين جداً من معرفة ماهية العلاقات الموجودة

بين الهيكل العظمي والعضلات والأعضاء ووجوه النشاط العقلي والروحي.. وما زلنا نجهل العوامل التي تحدث التوازن العصبي ومقاومة التعب والكفاح ضد الأمراض.. إننا لا نعرف كيف يمكن أن يزداد الإحساس الأدبي وقوة الحكم، والجرأة.. ولا ما الأهمية النسبية للنشاط العقلي والأدبي وكذلك النشاط الديني؟ أي شكل من أشكال النشاط مسؤول عن تبادل الشعور أو الخواطر؟ لا شك مطلقاً في أن عوامل فسيولوجية وعقلية معينة والتي تقرر السعادة أو التعاسة، النجاح أو الفشل، ولكننا لا نعرف ما هذه العوامل.. إننا لا نستطيع أن نهب أي فرد ذلك الاستعداد لقبول السعادة بطريقة صناعية، وحتى الآن، فإننا لا نعرف أي البيئات أكثر صلاحية لإنشاء الرجل المتدين وتقدمه.. هل في الإمكان كبت روح الكفاح، والجهد، وما قد نحس به من عناء بسبب تكوننا الفسيولوجي والروحي؟ كيف نستطيع أن نحول دون تدهور الإنسان وانحطاطه في المدنية العصرية؟ وهناك أسئلة أخرى لا عداد لها يمكن أن تلقى في موضوعات تعتبر على غاية الأهمية بالنسبة لنا، ولكنها ستظل جميعاً بلا جواب.. فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم، فيما يتعلق بدراسة الإنسان، ما زال غير كافٍ، وإن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب... صفوة القول، أن التقدم البطيء في معرفة بني الإنسان، إذا قورن بالتقدم الرائع في علوم الطبيعة والفلك والكيمياء والميكانيكا، يعزى إلى حاجة أجدادنا إلى وقت الفراغ، وإلى تعقد الموضوع، وإلى تركيب عقولنا.. وهذه

العقبات أساسية، وليس هناك أمل في تذليلها.. وسيظل التغلب عليها شاقاً يستلزم جهوداً مضنية.. إن معرفة أنفسنا لن تصل أبداً إلى تلك المرتبة من البساطة المعبرة، والتجرد، والجمال، التي بلغها علم المادة، إذ ليس من المحتمل أن تختفي العناصر التي أخرجت تقدم علم الإنسان. فعلينا أن ندرك بوضوح أن علم الإنسان هو أصعب العلوم جميعاً»^(١).

ومن الأدلة التي تدل على جهل الإنسان المعاصر بالإنسان ما نجده من اختلاف مذاهب علم النفس، فعلماء النفس يتناولون جانباً من جوانب شخصية الإنسان، ومع ذلك اختلفوا إلى علم نفس وظيفي، وعلم نفس سلوكي، وعلم نفس بنائي، وعلم نفس تحليلي، وكل أصحاب مذهب يُقدمون نظريات وأدلة يُخالفهم فيها أو كثير منها أصحاب المذهب الآخر.

فإذا كان الإنسان يجهل حقيقة الإنسان ويجهل تعقيدات باطنه، فكيف يمكن أن يجعل برنامجاً روحياً عملياً يُحقق التوازن المطلق للنفس الإنسانية، فالطريق الوحيد لتحقيق التوازن والتهذيب الروحي ينحصر في بعثة الأنبياء وإرسال الرسل، ولهذا يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾^(٢)، فالتزكية الحقيقية والواقعية إنما هي بالأنبياء الكُمل الذي أطلعهم الله على الخارطة الإنسانية والبرنامج الإنساني الروحي

(١) الإنسان ذلك المجهول: ص ١٨، ٢٤.

(٢) سورة الجمعة: آية ٢.

الذي صدر من لدن اللطيف الخير.

الحجة إلى القدوة الصالحة:

الركن الثاني: في تحقيق التزكية والتهذيب هو وجود القدوة الصالحة، فالإنسان لا يكفي أن يتعرف على النظام الروحي والأخلاقي، بل يحتاج إلى قدوة تُجسد في الواقع القيم الأخلاقي، والبرنامج الروحي، فهناك فرق بين جهة التنظير وبين جهة التطبيق، وفي العلوم العلمية يوجد خبراء تنظير ويوجد خبراء تطبيق، والأمر كذلك في علم الأخلاق، فلا يكفي أن يتعرف الإنسان بفطرته أو بعقله على النظام الأخلاقي، بل يحتاج إلى فقيه تطبيق، ولهذا نقول لروسو: حتى لو سلّمنا بأن الأنبياء لا يأتون بشيء من الناحية النظرية زائداً على ما تأتي به الفطرة والعقل، مع ذلك لا تكون بعثتهم عبثاً؛ لأن الأنبياء يقومون بدور القدوة التي تنفع الفطرة والعقل في مرحلة التطبيق.

وحتى يتضح هذا المعنى أذكر ثلاثة أمور:

الأمر الأول: ذكر علماء النفس أن الإنسان كائن محاكٍ ومُقلد، فطبيعته تحمله على متابعة الآخرين، والإنسان لا يقلد الآخرين فقط في اللغة أو كيفية التعبير، بل يقلدهم - أيضاً - في العادات والتقاليد في الأفكار والمعتقدات، فالمجتمع مدرسة كبيرة يدرس فيها كل فرد، فيأخذ العادات والتقاليد، ويأخذ القيم والمبادئ والمعتقدات.

وفي علم النفس الاجتماعي يوجد عنوان يسمى بعنوان: (التنشئة

الاجتماعية)، وقد عرفه الدكتور خالد محمد القليوبي نقلاً عن جملة من المتخصصين بأنها: «عملية تفاعل يتم من خلالها تحويل الفرد من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي، وهي في الأساس عملية تعليم؛ لأن الطفل يتعلم أثناء تفاعله مع بيئته الاجتماعية العادات السائدة في أسرته، والتنشئة الاجتماعية تتضمن عدة عمليات نفسية فهي عملية معقدة تتضمن من جهة كائناً بيولوجياً له تكوينه الخاص واستعداداته المختلفة، ومن جهة أخرى تتضمن شبكة من العلاقات والتفاعلات الاجتماعية التي تحدث داخل إطار معين من القيم والعادات العام والشامل، والفرد حيث يؤدي هذا كله إلى نمو ذات الفرد (الاجتماعية) تدريجياً». (انتصار يونس، ١٩٧٨م، ٢٦٩).

ويعرفها محمود السيد أبو النيل بأنها: تعني أن الطفل يتلقى خبرات يومية من خلال علاقاته بجماعة الأسرة وجماعة المدرسة وجماعة اللعب والأصدقاء ويتلقى أثناء ذلك من هؤلاء العقاب والثواب والحب والتهديد. (محمود أبو النيل، ١٩٨٥م، ٤١ - ٤٢). ويعرفها موري (Murray) بأنها العملية التي يتم من خلالها التوفيق بين دوافع ورغبات الفرد الخاصة وبين مطالب واهتمامات الآخرين، والتي تكون متمثلة في البناء الثقافي الذي يعيش فيه الفرد، والنهاية الغالبة هو أن الفرد يكون أكثر قابلية للتطبيع، والشخص يتغير تحقيقاً للصراع من الهدف المحرم إلى الهدف المقبول، والاستخدام المألوف للأساليب الشائعة في المجتمع المحافظة على المواعيد وهذا الشيء ضروري إذا

ما كان على الفرد أن يحيا في وئام مع الآخرين في إطار المجتمع الذي يعيش فيه. (من خلال محمود أبو النيل، ١٩٨٥ م، ٤٢)^(١).

فالتنشئة الاجتماعية عملية تحويل الإنسان من فرد بيولوجي إلى فرد اجتماعي بواسطة التعليم التفاعلي مع المجتمع، وهي تقوم على فطرة المحاكاة، فإذا كان المجتمع ثقافته ثقافة سديدة سوف ينمو الفرد نمواً سديداً، والعكس بالعكس، ولهذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (إذا خبث الزمان كسدت الفضائل وضرت)^(٢)، ولهذا جعل من أهداف (التنشئة الاجتماعية) اكتساب الفرد السلوك السائد، وإيجاد الشخصية (المنوالية)، وهي التي تجسد العلاقات البارزة في مجتمع ما، وتقديم القدوة؛ لأنها تكسب الفرد مهارات سلوكية وخلقية.

الأمر الثاني: الإنسان المحاكي كلما أحب شخصاً أكثر كلما حاول أن يُحاكيه بصورة أشد، ولهذا يقال: إن الأبوين أكثر تأثيراً على الطفل؛ لأنها الأحب إلى قلبه، وقد ذكر الدكتور مصطفى فهمي ومحمد القطان أن الأسرة العامل الأول في صبغ سلوك الطفل^(٣)، وذكر علماء النفس قائمة لأهم تأثيرات الأسرة، ولهذا لا ينبغي على الأب والأم في الأسرة أن يكونا مجرد

(١) مقدمة في علم النفس الاجتماعي: ص ٩٧، ٩٨.

(٢) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد: ج ٢٠ ص ٢٥٧.

(٣) مقدمة في علم النفس الاجتماعي: ص ١٠٣.

منظرين، بل ينبغي أن يكونا قدوتين في العفو والطيبة، وفي إظهار التعامل الحسن، وإكساب الطفل الثقة بنفسه، والقدرة على التكيف؛ لأن هذا سوف ينعكس على سلوك الطفل، فالأب العدائي سوف ينتج ولداً عدائياً، والأب البذيء سوف يكون منتجاً لولدٍ مثله، وهكذا.

فالحب والإعجاب سبب أساس للمحاكاة، وهذا سبب ما نشاهد في شبابنا هذه الأيام، من محاولات محاكاة المشاهير في المظهر وكيفية اللبس، وحتى في التعبير واختيار الأمثلة والمفردات، فإن بوصلة الحب تعاني من مشكلة، فهم يعتقدون أن الكمال مناطه الشهرة؛ لهذا يحبون المشهورين، فيقومون بعملية المحاكاة الخاطئة، والدين الإسلامي أكد على مبدأ الولاء والبراءة، وحب أولياء الله وبغض أعداء الله؛ لأن هذه الفكرة المقدسة - الولاية والبراءة - ليست فكرة حيوانية تنطلق من الشهوة أو الغضب، وإنما هي فكرة عقلية لها علاقة أساسية بكيفية نشوء الفرد المسلم في مجتمعه، فإذا كان يحب الصالحين سوف يحاكي الصالحين، ويكون على طريقتهم، وإذا كان يحب الطالحين سوف يحاكيهم ويتحول إلى طالح مثلهم، يقلدهم في كل شيء حتى في المظهر واللباس واصطحاب الحيوانات وتكريس الحياة لها!

الأمر الثالث: إن الأنبياء والأوصياء أكمل ما خلق الله تبارك وتعالى، فهم الأفضل في كمالهم الروحي، وفي سلوكهم العلمي، فينبغي أن يبنى المجتمع الإسلامي على محبتهم أكثر من غيرهم، حتى يحاكيهم أكثر من غيرهم، فكما

أنهم هم الذين يصبغون المجتمع بصبغة إلهية من خلال التعاليم الإلهية التي يُبينونها للناس، فيبرمجون المجتمع ببرمجة إلهية، فتتحول المدرسة الكبرى - مدرسة المجتمع - إلى مدرسة إلهية، كذلك هم الذين يُجسّدون الفضيلة والسلوك الحسن، وبهذا تسيطر المبادئ والقيم الربانية على جميع مفاصل الحياة.

والإنسان إذا أعطي نظريات، وقيل له: جرّب، فسوف يبقى وقتاً طويلاً يصيب ويُخطئ، فيحتاج إلى قطع مسافة طويلة ووقت طويل، ولن يصل إلى قمة ما يمكن له من كمال وسعادة.

ولكن إذا أعطي قدوة معصومة تقوم أمامه بالسير في طريق الخير والصلاح، سوف يجد الخطوات التي ينبغي أن يخطوها، وسيجد الطريق الذي خطه النبي، وخطه الوصي مرسوماً له، فيسير فيه من دون أن يتعب نفسه بعملية التجربة المتكررة والوقوع في الخطأ والإصابة، ولهذا وجود الأنبياء وجود ضروري ومهم؛ لأنه هو الذي يجعل المجتمع يسير وفق التعاليم التربوية الفاضلة، فيوجد فيه الكاملون الذين يكونون قدوة لغيرهم في طريق الخير والصلاح، ويصبغون المدرسة الكبرى بالصبغة الإلهية.

المحطة الثالثة

في لزوم بعثة الأنبياء وإرسال الرسل

قال الله العلي العظيم في كتابه الكريم: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا
مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ﴾^(١).

(١) سورة الأنعام: آية ٩١.

قبل أن نذكر التقريبات التي ذكرت لإثبات لزوم بعثة الأنبياء وإرسال الرسل نبين أمرين تعريفين وتمهيديين:

الفرق بين الحسن واللزوم:

الأمر الأول: تقدم - فيما سبق - إثبات وجود الفائدة في بعثة الأنبياء، وإرسال الرسل، وإنزال الدين والتشريعات الإلهية، ويمكن أن نُلخص الفائدة في عناوين ثلاثة:

العنوان الأول: هو الكشف عن مصير الإنسان بعد الموت.

العنوان الثاني: هو بيان التشريعات والقوانين التي تنظم علاقة الإنسان مع خالقه من جهة، ومع المخلوقات من جهة أخرى، وتُبيّن له الكيفية التي ينبغي أن يسير عليها في صراط تكامله، وفي طريق تحقيق سعادته في الدنيا والآخرة.

العنوان الثالث: هو عنوان القدوة والأسوة، فإن الأنبياء يُشكلون قدوة للناس في طريق الصلاح، فهم يأخذون بيد الناس نحو الخير والسداد والرشاد.

فما تقدم بيانٌ لفائدة بعثة الأنبياء، ولا شك في أن هذا البيان يُثبت حسن

بعثة الأنبياء، لكن هناك فرق بين الحسن وبين اللزوم والوجوب، فقد يكون الشيء حسناً، ولكنه ليس واجباً، فمن الحسن أن يتصدق الإنسان بنصف أمواله، ولكن هل يحكم العقل بوجوب ذلك عليه؟

الجواب: لا يحكم، فإن من تصدق بنصف أمواله استحق المدح، وإن لم يتصدق لم يستحق الذم، والسؤال الذي نريد أن نُجيب عليه في هذه المحطة من محطات النبوة هو:

هل بعثة الأنبياء لازمة وواجبة بحكم العقل أم لا؟

وبعبارة أخرى: هل يدرك العقل ضرورة ولزوم بعثة الأنبياء أم لا يدرك الضرورة، وإنما يُدرك الحسن فقط؟

وبالباحثون انقسموا في الجواب على هذا السؤال إلى قسمين:

القسم الأول: قالوا: إن العقل لا يدرك وجوب بعثة الأنبياء، ولا يستقل في إدراك الضرورة. نعم، إذا بعث الله تبارك وتعالى نبياً، وأخبرنا عن الله تبارك وتعالى بأن البعثة واجبة في حكمة الله، حينئذٍ سندرك بإخبار النبي، وأما قبل إخبار النبي فإن العقل لا يُدرك ذلك.

وذكر بعض الباحثين أن الأنبياء بالفعل أخبروا عن لزوم بعثة الأنبياء في حكمة الله تبارك وتعالى، كما في قوله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾^(١)، فإن هذه الآية تدل على أن مقتضى

(١) سورة الأنعام: آية ٩١.

كمال الله تبارك وتعالى أن يُنزل الوحي ويبعث الأنبياء، فمن عرف الله تبارك وتعالى حق معرفته سوف يقول: لقد أنزل الباري تبارك وتعالى على بشر شيء، وأما الذي يجهل قدر الله ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، فإنه سوف يقول: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾، فالجاهلون بعظمة الله وبقدرة وبكمال ذاته فقط يتصورون أن الله تبارك وتعالى يمكن أن يُهمَل الخلق ولا يبعث فيهم نبياً.

وفي وصية أمير المؤمنين عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام جاءت هذه العبارة: (واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأنتك رسله)^(١)، ومفادها: لو كان لله تبارك وتعالى شريك يُماثله في كمال ذاته وصفاته وأسمائه لبعث إليك رسولاً، فهنا أمير المؤمنين عليه السلام يبين أن هنالك علاقة بين كمال الذات وبين بعثة الأنبياء وإرسال الرسل؛ ولهذا إذا فرضنا وجود شريك لله يُماثله فلا بد أن يكون لهذا الشريك رسول، وحيث إن جميع الرسل يدعون إلى إله واحد، ولا يوجد رسل يدعون إلى إله آخر، فلا يوجد إله آخر، فعدم وجود رسول يدعو إلى إله آخر دليل على عدم وجود إله آخر؛ لأن وجود الإله الآخر لا ينفك عن إرسال الرسل.

القسم الثاني: الذي قالوا: نحن ندرك بعقولنا لزوم البعثة بقطع النظر عن إخبار الأنبياء، فبمجرد أن نتعرف على الله، ونتعرف على صفاته وكمالاته، وندرك أنه خلق الإنسان، سوف نقطع بأنه تبارك وتعالى لا يُهمَل خلقه،

(١) نهج البلاغة: ج ٣ ص ٤٤.

وسوف يبعث إليهم رسولاً، ويُنزل عليهم أحكاماً وتشريعات تُنظم حياتهم.

ما هو المراد من (اللزوم)؟

الأمر الثاني: في بيان معنى اللزوم والوجوب.

في هذه المحطة نريد أن نُجيب على هذا السؤال: هل من اللازم بعثة الأنبياء؟ وهل يجب إرسال الرسل؟ وقبل الجواب على هذا السؤال لا بد من تحديد المراد من (اللزوم والوجوب)، وهو ما ورد في السؤال، ويوجد احتمالان:

الاحتمال الأول: أن يكون المقصود اللزوم الفعلي الذي يُدركه العقل العملي، وهو ما يُدرك ما ينبغي أن يُفعل وما ينبغي أن لا يُفعل، فنحن نقول: العدل ينبغي أن يُفعل، ومعنى ذلك أن ترك العدل قبيح، فتارك العدل يستحق الذم عقلاً، فيكون الفعل لازماً وواجباً، وهذا الوجوب يُدركه من الإنسان عقله العملي الذي يُميز بين حسن الأفعال وقبحها، ويدرك بأن الأفعال الحسنة ينبغي أن تُفعل.

و يقابل اللزوم الفعلي لزوم الترك، فنحن نقول: الظلم قبيح، أي لا ينبغي أن يُفعل، فمن فعله يستحق الذم، فهنا يوجد لزوم للترك.

الاحتمال الثاني: أن يكون المقصود اللزوم الوقوعي الذي يُدركه العقل النظري في الإنسان، فالإنسان عنده قوة تدرك النظريات التي لا ترتبط بالعمل مباشرة، كمسائل علم الرياضيات، فنحن نقول: إذا أضفنا واحداً إلى

مثله يلزم أن يتحقق اثنان، فما معنى (يلزم أن يتحقق اثنان) هنا؟

الجواب: لا يعني ينبغي ويقبح أن لا يتحقق اثنان، وإنما المقصود لزوم الوقوع ولابدية التحقق، فإذا قلنا: (عندما نلقي ورقة في النار ولم يكن هنالك مانع يمنع من إحراق النار للورقة، فيجب - أو يلزم - أن تحترق الورقة)، لا يقصد ينبغي على النار أن تُحرق بحيث إذا لم تُحرق تستحق الذم أو ينبغي على الورقة أن تحترق، وإذا لم تحترق تستحق الذم، إن هذا غير مقصود على الإطلاق، وإنما المقصود ضرورة الوقوع وضرورة التحقق.

والسؤال المطروح في هذا الأمر: ما هو المقصود من وجوب ولزوم بعثة الأنبياء، هل المقصود اللزوم الفعلي؟ أو اللزوم الوقوعي؟ وهل المقصود ما يُدركه العقل العملي أو ما يُدركه العقل النظري؟

وهنا انقسم الباحثون إلى قسمين:

القسم الأول: علماء الكلام، فقد ذهبوا إلى أن المقصود هنا اللزوم الفعلي، بمعنى أنه يجب أن يفعل الله تبارك وتعالى بعثة الأنبياء وإرسال الرسل، ويقبح في ساحته تبارك وتعالى أن يُهمل الخلق، ولا يبعث الأنبياء ويُنزل التعاليم الإلهية التي ترشد الناس إلى الخير.

وإذا سألت علماء الكلام ما معنى يجب أن يبعث الله الأنبياء؟ هل هناك جهة تشريعية أعظم من الله تلزم الله تبارك وتعالى ببعثة الأنبياء وإرسال الرسل؟ فإنهم يُجيبون: لا نقصد هذا المعنى، فالباري تبارك وتعالى هو مالك

كل شيء، وكل شيء خاضع لسلطانه، ولا توجد جهة تشرع وتُلزم الباري تبارك وتعالى بشيء.

إذن، ما المقصود بالوجوب هنا؟

الجواب: المقصود بالوجوب الوجوب عنه وليس الوجوب عليه، فمن تعرف على كمال ذات الله عز وجل وكمال صفاته وأسمائه، وأنه غني مطلق وقادر على كل شيء يُدرك أن تبارك وتعالى بإمكانه أن يُحقق أغراضه بالطرق الحسنة، فليس مضطراً؛ لأن يسلك الطرق الملتوية ويرتكب الفعل القبيح، فالفعل القبيح لا يتناسب مع كمال ذاته، والفعل الذي لا ينبغي أن يصدر ويستحق الفاعل على فعله الذم لا يصدر من ذاته الكاملة، وهذا ما يستفاد من دعاء الإمام السجاد عليه السلام: «إنما يعجل من يخاف الفوت ويحتاج إلى الظلم الضعيف وقد تعاليت يا سيدي عن ذلك علواً كبيراً»^(١)، فالذي يعجل هو الجاهل الذي لا يعلم بعاقبة الأمور، فيخاف الفوت فيقع في العجلة، والذي يظلم هو الموجود الضعيف المحتاج إلى الظلم، ولهذا يفعل ما لا ينبغي لكي يسد نقصه، أما الكامل المطلق الذي لا يعرف النقص وكله جمال، فلا يمكن أن يصدر منه إلا الفعل الجميل.

وهذا ينبغي على أن الحسن والقبح مفهومان واقعيان ويدرك العقل أنها لا ينبغي الإتيان بهما، ولا يتناسبان مع كمال الذات، وهذا هو الحق في مسألة

(١) جامع أحاديث الشيعة: ج ١٢، ص ٢١٣

الحسن والقبح، خلافاً لقول بعض الفلاسفة، حيث ذهب إلى أنها أمران اعتباريان، وفصلنا الكلام في ذلك في كتاب (قواعد مهمّة في علم الكلام)^(١).

القسم الثاني: قالوا: إن المقصود من اللزوم هنا اللزوم الوقوعي، وليس اللزوم الفعلي، وهؤلاء هم الفلاسفة والحكماء، فالفلاسفة يقولون: إذا تعرفنا على كمال الذات، وأنها تامة سوف نتعرف على كمال الفعل وأنه تام، فكما أننا إذا أدركنا إلقاء الورقة في النار مع عدم وجود مانع من احتراقها ندرك وجوب تحقق الاحتراق، كذلك إذا أدركنا أن الله تبارك وتعالى تامٌّ في ذاته وكاملٌ في صفاته، وقد خلقنا، سوف نقطع بأنه تبارك وتعالى بعث الأنبياء وأنزل الكتب، وقال بعضهم: هذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٢)، فإن معرفة كمال الذات وتام الذات، وأن الذات الكاملة لا يصدر منها إلا الفعل الكامل ملزومة لمعرفة أن الله تبارك وتعالى أنزل على بشر بواسطة الوحي شيئاً.

وبعد وضوح هذين الأمرين نأتي عند التقريبات التي ذكرها الباحثون لإثبات وجوب بعثة الأنبياء، ولزوم إرسال الرسل:

تطبيق قاعدة اللطف:

التقريب الأول: وهو يُثبت اللزوم الفعلي استناداً إلى قاعدة يصطلح عليها

(١) ص ٩١، ١٠٥.

(٢) سورة الأنعام: آية ٩١.

علماء الكلام بـ: (قاعدة اللطف)، وحتى يتضح هذا التقريب نبينه في مقدمات ثلاث:

المقدمة الأولى: في توضيح اللطف.

ذكر علماء الكلام أن المقصود من اللطف ما يقرب نحو تحقيق الغاية من الفعل، فإذا قمت بفعل لأجل غاية وهدف، وتوجد أمور تساهم في جعلك أقرب إلى تحقيق الهدف، فهذه الأمور تسمى بالاصطلاح أطفافاً، وكل واحد منها يسمى لطفافاً، وأذكر مثلاً لتوضيح هذا التعريف، وهو مثال مشهور:

لو فرضنا أن شخصاً أراد أن يدعو صديقه إلى مأدبة، فذهب إلى السوق واشترى أغلى الأطعمة، وكلف أولاده، فحملوا الأطعمة إلى البيت، ثم كلف أهله في صنع الطعام، وعلم أن صديقه له نظام نفسي خاص، لا يلبي الدعوة ولا تنقذ عنده إرادة تلبية الدعوة، أو لا تكون إرادة تلبية الدعوة شديدة، إلا إذا خاطبه مباشرة ودعاه بنفسه، فهنا بمجرد أن يُعلم صديقه أنه أعد مأدبة ويدعوه بأي طريقة حتى بإرسال ابنه سوف يكون الصديق قادراً على تلبية الدعوة، ولكن الصديق مع الدعوة المباشرة سوف يكون أقرب إلى تلبية الدعوة، باعتبار أنه يملك مزاجاً خاصاً، فهنا تعتبر الدعوة المباشرة لطفافاً، لأنها تجعل الداعي أقرب إلى تحقيق غرضه من الفعل الذي قام به - وهو شراء الطعام ونقله إلى البيت ثم إعداده -، فهو إنما فعل ذلك لكي يأتي الصديق، ويكون تحقق هذا الغرض أقرب مع الدعوة المباشرة.

والباري تبارك وتعالى في أفعاله توجد ألطاف كثيرة جداً، فمثلاً الباري تبارك وتعالى كلفنا بجملة من التكاليف، والغرض منها أن نمثل ونظفر بالمصالح الموجودة في امتثال أحكامه تبارك وتعالى، والباري عز وجل لم يكتفِ بالتشريع فقط، بل قام زيادة على ذلك بجعل العقوبة على المخالفة وتوعد بالعقاب على المعصية، والوعيد بالعقوبة مع جعل العقوبة لطف يجعل الإنسان أقرب إلى تحقيق مصلحة التكليف، فإن التكليف الذي لا ترتب عليه عقوبة تكون إرادة امتثاله ضعيفة، وربما لا تحدث، فمن أمن العقوبة أساء الأدب، فلكي يكون الإنسان أقرب إلى تحقيق مصالح التشريعات الإلهية جعل الباري تبارك وتعالى عقاباً وتوعداً بالعذاب فيما إذا تحققت المعصية.

ومن الألفاف الإلهية الابتلاءات، يقول تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١)، فإن الابتلاء لطف إلهي؛ لأن الإنسان إذا كان يعيش في حالة مستقرة لا يرى فيها إلا الرخاء سوف يغفل عن خالقه، ويغفل عن كونه يعيش في دار لها وقت محدد تنتهي صلاحيتها بانتهائه، وسوف يغفل عن كونه محتاجاً إلى الله تبارك وتعالى في جميع لحظاته، والبلاء هو الذي يشد الإنسان بخالقه، ويجعله يدرك فعلاً أنه يعيش الفقر والحاجة، وأن أمره بيد الله تبارك وتعالى، والابتلاء هو الذي

(١) سورة البقرة: آية ١٥٥-١٥٦.

يُحرك القلب نحو التعلق بالله عز وجل، فهو يجعل الإنسان أقرب إلى الغاية التي من أجلها خلق الإنسان.

المقدمة الثانية: إذا كان اللطف ما يُقرب نحو غاية الفعل فهو واجب بحكم العقل، وبقبح تركه، ومن تركه يستحق الذم، فهو لازم باللزوم الفعلي، وإذا رجعنا إلى وجداننا بقطع النظر عن الشبهات والإشكالات التي تُثار نُدرك وجوب اللطف، فلو أن الشخص الذي دعا صاحبه لم يدعه دعوة مباشرة، وإنما اكتفى بإرسال رسالة، فلم يأت صاحبه، ألا يلومه العقلاء؟ ويقولون له: لقد ذهبت إلى السوق وبذلت أموالاً، وكلفت أولاك في حمل الطعام، وكلفت أهلك في صنعه، وكنت تدري أن صاحبك لا تنقذ فيه الإرادة إلا إذا دعوته مباشرة، وكنت قادراً على أن تدعوه مباشرة، ومع كونك تريد أن يأتي وليست مازحاً وهازلاً تركت الدعوة المباشرة وترتب على ذلك أنه لم يأت وبقي الطعام على الأرض ولم يؤكل! لقد نقضت غرضك، فقد كان عندك غرض، وتعلم أن الدعوة المباشرة تساهم في التقريب نحو تحقيق هذا الغرض، وتركت ذلك وترتب عليه عدم تحقق الغرض، وينسب عدم تحقيقه إليك في هذه الحالة.

المقدمة الثالثة: بعثة الأنبياء مصداق من مصاديق اللطف، فنحن إذا أدركنا أن الله تبارك وتعالى قد خلقنا وميّزنا عن الحيوانات بأن أعطانا عقلاً، وأعطانا قدرة على أن نُميز به الخير والشر، وأيضاً - أعطانا اختياراً، وجعلنا في

هذه النشأة تتكامل بأفعالنا الاختيارية، فنحن ليسنا كسائر الحيوانات التي تُحرّكها الغرائز بدون عقل، بل نمتاز بعقل واختيار ونتكامل بأفعالنا، فأفعالنا تحقق لنا العلم، والعلم تكامل بالنسبة إلينا، وأفعالنا تُحقق لنا التوازن الروحي فيما إذا التزمنا بالأفعال الحسنة، فإن هذا سبب استقامة القوى الباطنية، وهذه الاستقامة ضرب من ضروب الكمال، فالله تعالى خلقنا وجعلنا في صراط أن نتكامل بأفعالنا، فلا بد أن يكون الخالق الذي خلقنا بهذه الكيفية وجعلنا لهذه الغاية - وهي التكامل بفعلنا الاختياري - قد جعل لنا ما يُقربنا نحو تحقيق الغاية من وجودنا، وهو الكمال الذي يُكسب بالفعل الاختياري، والنبوة من أعظم الألطاف التي تجعلنا أقرب إلى السعادة وتحقيق كمالنا والظفر بالمرتبة العالية في درجات الإنسان، فبالنبي نكون بصيرين بوجود النشأة الأخرى، ونحن مع البصيرة بالنشأة الأخرى أقرب إلى تحقيق كمالنا فيما إذا كنا غير بصيرين، والأنبياء يأتون بالنظم التشريعية العملية والروحية، ونحن مع هذه النظم أقرب إلى كمالنا فيما إذا كنا محرومين من هذه النظم، والأنبياء يُشكلون القدوة الصالحة التي تأخذ بيد المجتمع نحو مرضاة الله في صراط التكامل، وفي طريق الخير، ونحن مع القدوة أقرب إلى الحق فيما إذا عُمدنا القدوة.

فالأنبياء مصداق من مصاديق اللطف الإلهي، وإذا كانوا كذلك، فإن العقل يحكم بلزوم بعثة الأنبياء؛ لأن الله تبارك وتعالى لو لم يبعث الأنبياء لكان حاله حال ذلك الشخص الذي دعا صاحبه ولكنه لم يدعه مباشرة، ولم يُحقق

اللفظ الذي يجعله أقرب إلى تلبية الدعوة، فالله تعالى إذا خلقنا لكي نتكامل بأفعالنا، ثم لم يُبين لنا من خلال بعثة الأنبياء كيف نتكامل بأفعالنا، وكيف نصل إلى السعادة في النشأة الأخرى، سيكون خلقنا لغرض دون تحقيق ما يقرب له، بل ما يتوقف عليه التحقق، وهذا قبيح لا يصدر من الله تبارك وتعالى لمكان كمال ذاته.

فوفق هذا البيان تكون بعثة الأنبياء لازمة باللزوم الفعلي؛ لأنها مصداق من مصاديق اللفظ الذي يحكم العقل بوجوبه.

عدم البخل في ساحة الله:

التقريب الثاني: ذكره علماء الكلام - أيضاً - وهو يُثبت اللزوم الفعلي حاصله: أن الباري تبارك وتعالى عالم وقادر وجوّد، فإذا خلقنا، ونحن في خلقتنا لا يمكن أن نتعرف على النشأة الأخرى، ولا يمكن أن نُحدد العلاقة بين النشأة الأخرى والنشأة الدنيوية، وبالتالي لا يمكن أن نعرف أي عمل يوصل إلى السعادة في تلك النشأة، وأي عمل يوصل إلى الشقاوة، وخلقنا متكاملين ويعلم أننا نحتاج إلى قدوة، والقدوة لا بد أن تكون أفضل منا، ومع ذلك لم يبعث الأنبياء، فمن حقنا أن نسأل لماذا لم يبعث الأنبياء، هل لأنه مجهول بوجود مصلحة في بعثة الأنبياء؟

هذا باطل؛ لأن علم الله تبارك وتعالى مطلق، وهو محيط بكل شيء.

هل يعلم، وهو غير قادر على بعثة الأنبياء؟

هذا باطل؛ لأنه تبارك وتعالى على كل شيء قدير لا يُعجزه شيء.

هل يعلم وقادر، ولكنه بخیل لا يُعطي العباد؟

هذا باطل؛ لأنه تبارك وتعالى لا بُخل في ساحته هو جواد كريم، فلمكان قبح البخل لابد أن يكون الباري تبارك وتعالى تفضل على العباد وبعث فيهم الأنبياء؛ لأن العباد بما أودع الله فيهم من فطرة ومن عقل لا يمكن أن يُحققوا الفائدة الموجودة في بعثة الأنبياء، وهذا ما بيّنه الإمام الرضا عليه السلام بقوله: «لأنه لما لم يكن في خلقهم وقواهم ما يكملوا لمصالحهم، وكان الصانع متعالياً عن أن يرى، وكان ضعفهم وعجزهم عن إدراكه ظاهراً، لم يكن بد من رسول بينه وبينهم معصوم يؤدي إليهم أمره ونهيه وأدبه، ويقفهم على ما يكون به إحراز منافعهم ودفع مضارهم، إذ لم يكن في خلقهم ما يعرفون به ما يحتاجون إليه منافعهم ومضارهم. فلو لم يجب عليهم معرفته وطاعته لم يكن لهم في مجيئ الرسول منفعة ولا سد حاجة، ولكان يكون إتيانه عبثاً غير منفعة ولا صلاح، وليس هذا من صفة الحكيم الذي أتقن كل شيء»^(١)، فهو تعالى لما أن خلقهم متكاملين، وخلقهم لا تحقق لهم كل ما يحتاجون إليه بدون بعثة الأنبياء وإرسال الرسل، فلا بد لمكان جوده وكرمه أن يبعث الأنبياء ويرسل الرسل.

نفي عبثية خلقة الإنسان:

التقريب الثالث: هو أن الله عز وجل جعل فينا فوق ما نحتاجه في هذه

النشأة من العقل وفطرة حب البقاء، وهذا دليل وجود العالم الآخر، فغرض الخلقة لا ينحصر بالدنيا، ومقتضى عدم العبثية بيان طريق الآخرة، وهو بالبعثة.

التقريب الرابع: ما ذكره الفلاسفة والحكماء، وهو يريد أن يثبت اللزوم الوقوعي وليس اللزوم الفعلي، فالحكماء يقولون: لا نحتاج إلى قاعد وجوب اللطف ولا قبح البخل، أو نقض الغرض، فلا حاجة إلى توسيط مدركات العقل العملي، ويكفي أن نتعرف على الله تبارك وتعالى، لكي نعرف ضرورة بعثة الأنبياء، فالباري تبارك وتعالى تام في ذاته، وإذا كان تاماً في ذاته لا بد أن يكون تاماً في فاعليته؛ لأن هناك علاقة بين تمام الفاعل وتمام الفاعلية، فالقرآن الكريم يرشد إلى قاعدة عقلية في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾^(١)، فإذا كان الفاعل تاماً سوف تكون الفاعلية تامة ويكون الفعل تاماً، وإذا كان الفاعل ناقصاً حينئذٍ يمكن أن نتوقع أن يكون الفعل ناقصاً، ولما كانت ذات الله تامة فهو كامل في جميع صفاته وأسمائه لا بد أن تكون فاعليته تامة، فهو فياض مطلق لا نقص في عطائه، دائم الفيض على البرية، منه قديم عليهم لا يوجد نقص في عطائه، وإذا كان كذلك لا بد أن يكون عالم الخلقة عالماً تاماً وكاملاً لا توجد فيه نقائص، فهذا الوجود لا توجد فيه جهات مظلمة ليس فيها خير أودعه الله

تبارك وتعالى فيها؛ لأنه الباري تبارك وتعالى لتمام الفاعلية يُفيض على كل من عنده قابلية لأن يتلقى الفيض منه. نعم، إذا كان الوجود قاصراً يوجد ضعف في قابليته حينئذٍ لن يتلقى، ولكن المشكلة في القابل لا لوجود نقص في الفاعل، وهو الله تبارك وتعالى، وهذا معنى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾^(١)، فهؤلاء الذي يزعمون أن الله تعالى لم ينزل الوحي لو علموا بتمام ذات الله، وبتمام فاعليته، وبحقيق الإنسان المستكملة، لعلموا أن من كمال عالم الخلقة، ومن كمال الوجود الإنساني أن يوجد فيه إنسان تام كامل يُخاطبه الله تبارك وتعالى، ويُبلغ عن الله تبارك وتعالى الأحكام والتشريعات، والشيخ ابن سينا في كتابه إلهيات الشفاء ذكر برهان الحاجة إلى النبوة لمكان مدنية الإنسان - وتقدم تفصيله -، ثم يبين أننا إذا نظرنا إلى الكون نجد أن الله تبارك وتعالى فعل أموراً كمالية لم يُهملها، وهي أقل من حيث الأهمية بكثير من بعثة الأنبياء، مثلاً الباري تبارك وتعالى لما خلقنا أعطانا الأهداب، وجعل باطن الأقدام مقعرة، ورتب اليد بطريقة خاصة، وجعل الأصابع فيها بنحو خاص لا يوجد أكمل منه، والذي لم يُهمل هذه الأمور التي هي أقل أهمية بكثير من النبوة، كيف يُهمل وجود الإنسان الكامل الذي يتصل بالله ويأخذ منه التعاليم لتنظيم شؤون المجتمع البشري؟! قال: «إنه من المعدوم أن الإنسان يفارق سائر الحيوانات بأنه لا يحسن

(١) سورة الأنعام: آية ٩١.

معيشته لو انفرد وحده شخصاً واحداً يتولى تدبير أمره من غير شريك يعاونه على الضروريات حاجاته، وأنه لا بد من أن يكون الإنسان مكيفاً بآخر من نوعه يكون ذلك الآخر أيضاً مكيفاً به ونظيره، فيكون مثلاً هذا يقبل لذلك، وذاك يخبر لهذا، وهذا يخطط لآخر، والآخر يتخذ الإبرة لهذا، حتى إذا اجتمعوا كان أمرهم مكيفاً. ولها ما اضطروا إلى عقد المدن والاجتماعات فمن كان منهم غير محتاط في عقد مدينته على شرائط المدينة وقد وقع منه ومن شركائه الاقتصار على اجتماع فقط فإنه يتحيل على جنس بعيد الشبه من الناس وعادم لكلمات الناس، ومع ذلك فلا بد لأمثاله من اجتماع ومن تشبه بالمدينين. فإذا كان هذا ظاهراً فلا بد من وجود إنسان وبقاؤه من مشاركته، ولا تتم المشاركة إلا بمعاملته، كما لا بد من ذلك من سائر الأسباب التي تكون له، ولا بد من المعاملة من سنة عدل، ولا بد للسنة والعدل من سنّان ومُعَدَل، ولا بد من أن يكون هذا بحيث يجوز أن يخاطب الناس ويلزمهم السنة. ولا بد من أن يكون هذا إنساناً، ولا يجوز أن يترك الناس وآراءهم في ذلك فيختلفون ويرى كل واحد منهم ما له عدلاً، وما عليه ظلماً؛ إلى هذا الإنسان في أن يبقي نوع الإنسان ويتحصل وجوده أشد من الحاجة إلى إنبات الشعر على الأشفار وعلى الحاجيين، وتقدير الأخص من القدمين، وأشياء أخرى من المنافع التي لا ضرورة فيها في البقاء، بل أكثر ما لها أنها تنفع في البقاء، ووجود الإنسان الصالح لأن يسن ويعدل ممكن كما سلف لنا ذكره. فلا يجوز أن تكون العناية

الأولى تقتضي تلك المنافع ولا تقتضي هذه التي هي أسها، ولا أن يكون المبدأ الأول والملائكة بعده يعلم ذلك ولا يعلم هذا، ولا أن يكون ما يعلمه في نظام الخير الممكن وجوده الضروري حصوله لتمهيد نظام الخير لا يوجد؛ بل كيف يجوز أن لا يوجد وما هو متعلق بوجود مبني على وجوده موجود؟ فواجب إذن أن يوجد نبي، وواجب أن يكون إنساناً، وواجب أن تكون له خصوصيته ليست لسائر الناس حتى يستشعر الناس فيه أمراً لا يوجد لهم، فيتميز به منهم، فتكون له المعجزات التي أخبرنا بها، وهذا الإنسان إذا وجد يجب أن يسن الناس في أمورهم سنّاً بإذن الله تعالى وأمره ووحيه وإنزاله الروح المقدس عليه، ويكون الأصل الأول فيما يسنه تعريفه إياهم أن لهم صانعاً واحداً قادراً، وأنه علام بالسر والعلانية، وإن من حقه أن يطاع أمره؛ فإنه يجب أن يكون الأمر لمن له الخلق، وأنه قد أعد لمن أطاعه المعاد المسعد، ولمن عصاه المعاد المشقي، حتى يتلقى الجمهور رسمه المنزل على لسانه من الإله والملائكة بالسمع والطاعة، ولا ينبغي أن يشغلهم بشيء من معرفة الله تعالى فوق معرف أنه واحد لا شبيه له. فأما أن يعدي بهم إلى أن يكلفهم أن يصدقوا بوجوده وهو غير مشار إليه في مكان، ولا خارج العالم ولا داخله، ولا شيئاً من هذا الجنس، قد عظم عليهم الشغل وشوش فيما بين أيديهم الدين، وأوقعهم فيما لا مخلص عنه، إلا لمن كان المعان الموفق الذي يشذ وجوده ويندر كونه، فإنه لا يمكنهم أن يتصوروا هذه الأحوال على وجهها إلا بكد، وإنما يمكن القليل

منهم أن يتصوروا حقيقة هذا التوحيد والتنزيه، فلا يلبثون أن يكذبوا بمثل هذه الوجوه، ويقعوا في تنازع وينصرفوا إلى المباحثات والمقايسات التي تصدهم عن أعمالهم المدنية. وربما أوقعهم في آراء مختلفة لصالح المدنية، ومنافية لواجب الحق، وكثر فيهم الشكوك والشبه، وصعب الأمر على الإنسان في ضبطهم، فما كل بميسر له في الحكمة الإلهية، ولا إنسان يصلح له أن يظهر أن عنده حقيقة يكتمها عن العامة، بل يجب أن لا يرخص في تعرض شيء من ذلك، بل يجب أن يعرفهم جلالة الله تعالى وعظمته بروز وأمثلة من الأشياء التي هي عندهم جليلة وعظيمة، ويلقي إليهم مع هذا، هذا القدر، أعني أنه لا نظير له ولا شريك له ولا شبيه له، وكذلك يجب أن يقرر عندهم أمر المعاد على وجه يتصورون كلفيته، وتسكن إليهم نفوسهم، ويضرب للسعادة والشقاوة أمثالاً مما يفهمونه ويتصورونه. وأما الحق في ذلك فلا يلوح لهم منه إلا أمراً مجملاً، وهو أن ذلك الشيء لا عين رأت ولا أذن سمعت، وأن هناك من اللذة ما هو ملك عظيم ومن الألم ما هو عذاب مقيم. واعلم أن الله تعالى يعلم أن وجه الخير في هذا، فيجب أن يوجد معلوم الله تعالى على وجهه على ما علمت، ولا بأس أن يشتمل خطابه به على رموز وإشارات تستدعي المستعدين بالجلبة للنظر إلى البحث الحكمي^(١).

وهذا نظير ما ذكره هشام بن الحكم لعمر بن عبيدة المعتزلي، فعن يونس

(١) إلهيات الشفاء: ص ٧٨ إلى ص ٤٩٠.

بْنِ يَعْقُوبَ قَالَ كَانَ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْهُمْ حُمْرَانُ بْنُ
 أَعْيَنَ وَ مُحَمَّدُ بْنُ النُّعْمَانِ وَ هِشَامُ بْنُ سَالِمٍ وَ الطَّيَّارُ وَ جَمَاعَةٌ فِيهِمْ هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ
 وَ هُوَ شَابٌّ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: يَا هِشَامُ أَلَا تُخْبِرُنِي كَيْفَ صَنَعْتَ بِعَمْرٍو ابْنِ
 عُبَيْدٍ وَ كَيْفَ سَأَلْتَهُ فَقَالَ هِشَامُ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ إِنِّي أُجَلِّكَ وَ أَسْتَحْيِيكَ وَ لَا
 يَعْمَلُ لِسَانِي بَيْنَ يَدَيْكَ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَافْعَلُوا قَالَ
 هِشَامُ: بَلَّغْنِي مَا كَانَ فِيهِ عَمْرٍو بْنُ عُبَيْدٍ وَ جُلُوسُهُ فِي مَسْجِدِ الْبَصْرَةِ فَعَظَّمَ
 ذَلِكَ عَلَيَّ فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ وَ دَخَلْتُ الْبَصْرَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَأَتَيْتُ مَسْجِدَ الْبَصْرَةِ فَإِذَا
 أَنَا بِحَلَقَةٍ كَبِيرَةٍ فِيهَا عَمْرٍو بْنُ عُبَيْدٍ وَ عَلَيْهِ شِمْلَةٌ سَوْدَاءُ مُتَزَرًّا بِهَا مِنْ صُوفٍ
 وَ شِمْلَةٌ مُرْتَدِيًّا بِهَا وَ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ فَاسْتَفْرَجْتُ النَّاسَ فَأَفْرَجُوا لِي ثُمَّ قَعَدْتُ فِي
 آخِرِ الْقَوْمِ عَلَى رُكْبَتَيَّ ثُمَّ قُلْتُ: أَيُّهَا الْعَالَمُ إِنِّي رَجُلٌ غَرِيبٌ تَأَذَّنُ لِي فِي مَسْأَلَةٍ
 فَقَالَ لِي نَعَمْ فَقُلْتُ لَهُ: أَلَاكَ عَيْنٌ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ أَيُّ شَيْءٍ هَذَا مِنْ السُّؤَالِ وَ شَيْءٌ
 تَرَاهُ كَيْفَ تَسْأَلُ عَنْهُ فَقُلْتُ: هَكَذَا مَسْأَلَتِي فَقَالَ: يَا بُنَيَّ سَلْ وَإِنْ كَانَتْ
 مَسْأَلَتُكَ حَقًّا قُلْتُ: أَجِيبْنِي فِيهَا قَالَ لِي: سَلْ قُلْتُ أَلَاكَ عَيْنٌ قَالَ: نَعَمْ قُلْتُ:
 فَمَا تَصْنَعُ بِهَا قَالَ: أَرَى بِهَا الْأَلْوَانَ وَ الْأَشْخَاصَ قُلْتُ: فَلَاكَ أَنْفٌ قَالَ: نَعَمْ
 قُلْتُ: فَمَا تَصْنَعُ بِهِ قَالَ: أَشَمُّ بِهِ الرَّائِحَةَ قُلْتُ: أَلَاكَ فَمٌّ قَالَ: نَعَمْ قُلْتُ: فَمَا
 تَصْنَعُ بِهِ قَالَ: أَذُوقُ بِهِ الطَّعْمَ قُلْتُ: فَلَاكَ أُذُنٌ قَالَ: نَعَمْ قُلْتُ: فَمَا تَصْنَعُ بِهَا
 قَالَ: أَسْمَعُ بِهَا الصَّوْتَ قُلْتُ: أَلَاكَ قَلْبٌ قَالَ: نَعَمْ قُلْتُ: فَمَا تَصْنَعُ بِهِ قَالَ:
 أُمَيِّزُ بِهِ كُلَّ مَا وَرَدَ عَلَى هَذِهِ الْجَوَارِحِ وَ الْحَوَاسِّ قُلْتُ: أَوْلَيْسَ فِي هَذِهِ الْجَوَارِحِ

غَنَى عَنِ الْقَلْبِ فَقَالَ: لَا قُلْتُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ وَهِيَ صَحِيحَةٌ سَلِيمَةٌ قَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّ الْجَوَارِحَ إِذَا شَكَّتْ فِي شَيْءٍ شَمَّتْهُ أَوْ رَأَتْهُ أَوْ ذَاقَتْهُ أَوْ سَمِعَتْهُ رَدَّتْهُ إِلَى الْقَلْبِ فَيَسْتَيْقِنُ الْيَقِينَ وَيُبْطِلُ الشَّكَّ قَالَ هِشَامٌ: فَقُلْتُ لَهُ: فَإِنَّمَا أَقَامَ اللَّهُ الْقَلْبَ لِشَكِّ الْجَوَارِحِ قَالَ: نَعَمْ قُلْتُ: لَا بُدَّ مِنَ الْقَلْبِ وَإِلَّا لَمْ تَسْتَيْقِنِ الْجَوَارِحُ قَالَ: نَعَمْ قُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا مَرْوَانَ فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَتْرُكْ جَوَارِحَكَ حَتَّى جَعَلَ لَهَا إِمَامًا يُصَحِّحُ لَهَا الصَّحِيحَ وَيَتَقَيَّنُ بِهِ مَا شُكَّ فِيهِ وَيَتْرُكُ هَذَا الْخَلْقَ كُلَّهُمْ فِي حَيْرَتِهِمْ وَشَكِّهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ لَا يُقِيمُ لَهُمْ إِمَامًا يَرُدُّونَ إِلَيْهِ شَكَّهُمْ وَحَيْرَتَهُمْ وَيُقِيمُ لَكَ إِمَامًا لِحَوَارِحِكَ تَرُدُّ إِلَيْهِ حَيْرَتَكَ وَشَكَّكَ قَالَ: فَسَكَتَ وَلَمْ يَقُلْ لِي شَيْئًا ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ لِي: أَنْتَ هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ فَقُلْتُ: لَا قَالَ: أَمِنْ جُلَسَائِهِ قُلْتُ: لَا قَالَ: فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ قَالَ: قُلْتُ: مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ قَالَ: فَأَنْتَ إِذَا هُوَ ثُمَّ ضَمَّنِي إِلَيْهِ وَأَقْعَدَنِي فِي مَجْلِسِهِ وَزَالَ عَنِ مَجْلِسِهِ وَمَا نَطَقَ حَتَّى قُمْتُ قَالَ: فَضَحِكَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام وَقَالَ: يَا هِشَامُ مَنْ عَلَّمَكَ هَذَا قُلْتُ: شَيْءٌ أَخَذْتَهُ مِنْكَ وَالْفَتْهُ فَقَالَ: هَذَا وَاللَّهِ مَكْتُوبٌ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ^(١).

فالذي يعرف الله حق معرفته يجزم بأن الله تبارك وتعالى قد بعث الأنبياء، و- أيضاً - جعل الأئمة والأوصياء، وبأن الأرض لا تخلو من حجة، فوجود صاحب العصر عليه السلام من كمال المجتمع البشري، والمجتمع البشري من دون وجوده مجتمع ناقص، والغرض لا يمكن أن يستوفي بنحو تام.

(١) الكافي: ج ١، ص ١٧١.

المحطة الرابعة

في طرق إثبات صدق مدعي النبوة

قال الله العلي العظيم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾^(١).

(١) سورة الإسراء: آية ١٠١.

إذا ادعى شخص أنه نبي فكيف نتحقق من صدقه؟
جواب هذا السؤال مهم جداً في أبحاث النبوة العامة؛ فإنه ينبغي علينا أن
نعتمد الطرق القطعية في إثبات صدق مدعي النبوة، ولا نعتمد أي طريق
حتى الطريق غير المعتبر، كالرؤى، أو الخيرة، أو حساب الجمل، أو
المصادفات، ونحو ذلك.

موقف علم النفس التحليلي من الرؤى:

فالرؤيا لا يمكن الوثوق بها في إثبات صدق من يدعي النبوة؛ لأن الرؤيا
تتأثر بالمواقف الحياتية، فقد تكون مجرد صدق عن موقف عاشه الإنسان في
حياته، وعلماء النفس التحليلي يرجعون الرؤى إلى العقل الباطن، والعقل
الباطن هو مخزن المعلومات والمشاعر والمواقف التي يعيشها الإنسان، فكل
واحد منا إذا رأى في المنام رؤيا يحتمل أنها ليست إلا انعكاس في فكره، وقد
قيل في بيان ذلك: «يُعرَّف الحلم على أنه نشاط تفكيري يحدث استجابةً لمنبه أو
دافعٍ ما، وهو عبارة عن سلسلة من الصور أو الأفكار أو الانفعالات التي
تمثل لعقل المرء أثناء النوم، وقد وصف بعضهم الأحلام بأنها مسرحيات
تحدث في الذهن وتصور بعض الجوانب اللاشعورية من حياة النائم. والدوافع

أو المثيرات التي تثير الأحلام بعضها سيكولوجي مثل الرغبات العدوانية والتي تُكبت في الوعي، أو قد يكون المثير فسيولوجياً مثل امتلاء المعدة بطعام ثقيل قبل النوم مما يؤدي إلى حصول أحلام أو كوابيس. ويعتبر فرويد أول من وضع الأسس العلمية لتفسير الأحلام في كتابه الشهير عام (١٨٩٩) (تفسير الأحلام) حيث ذهب فيه إلى أن الأحلام تنتج عن الصراع النفسي بين الرغبات اللاشعورية المكبوتة والمقاومة النفسية التي تسعى لكبت هذه الرغبات اللاشعورية، وبالتالي فإن الحلم عبارة عن حل وسط أو محاولة للتوفيق بين هذه الرغبات المتصارعة ويلعب الحلم عند فرويد وظيفة «حراسة النوم» وصد أي شيء يؤدي إلى إقلاق النائم وإيقاظه فإذا أحس النائم بالعطش، مثلاً، فإنه يرى في منامه أنه يشرب الماء وبهذا يستمر نائماً ولا يضطر للاستيقاظ لشرب الماء، ولقد وضع فرويد مجموعة من الرموز يستعان بها لفهم الحلم وتفسيره، أما الفريد أدلر (١٨٧٠ - ١٩٣٨) فلقد رأى أن للحلم وظيفة توقعية أي أن النائم يتنبأ من خلال الحلم بما يمكن أن يواجهه في المستقبل. أما كارل يونغ (١٨٧٤ - ١٩٦١) فكان يرى أن الحلم ليس فقط استباقاً لما قد يحدث في المستقبل ولكنه ناتج عن نشاطات اللاوعي، وهو يرى أن الأحلام تقدم حلولاً لمشكلات الشخص في محاولة لإعادة التوازن إلى الشخصية الحلم واللاشعور حسب فرويد.

وجاء في بحث سياماك خُدارحيمي استعراض جملة من المنامات ومحاولة

بيان كيفية حصولها من مؤثر نفسي باطني، وهذا جزء منه: «كان أكبر غرضنا من تقويم سلسلة أحلام (ليدا) هو استكشاف مسببات الرهاب الاجتماعي عندها ومآل نتيجة العلاج النفسي. كان أول حلم لها في الطور الابتدائي من العلاج النفسي هو هذا: (أنا وصديقتي جالستان في نافذة مثل النافذة التي في مدرستنا الجامعية، لكن صديقتي يبدو عليها الهدوء والثقة وأنا أخشى السقوط).

نعلم أن الأرض هي رمز للأنوثة في علم نفس الأعماق علماً بأن قضية الأنوثة هي أمر مخجل لـ ليدا بسبب خبرات غير مؤاتية مرت بها فيما مضى. وعليه، الخوف من السقوط على الأرض في الحلم أعلاه يلتصق مباشرة بمسبباتها المرضية الجوهرية ومشكلاتها الأساسية في نيل الهوية. عندها تناقض كامن ولا شعوري بإزاء طيف الأنوثة-الذكورة يرجع أصله إلى خبراتها الشخصية اللاشعورية من الطفولة إلى المراهقة. من الظاهر أنها غير راضية عن ذاتها الأنثوية بالقياس إلى غيرها من الإناث. أيد هذا الفرض تداعيات حلمها وإيضاحاته. من الوجهة التحليلية النفسية، التصق حلمها بما في باكر طفولتها وتطورها الجنسي النفسي من شذوذ عن الحالة السوية في تعيين الهوية. أكثر ما أثبتته تداعياتها هو الطبيعة الأنثوية لرمز الأرض وليس الخوف من الفشل في الواجبات الجامعية. لقد أبرز هذا الحلم المسببات المرضية الحادثة عن مأزقها والتوجُّه المستقبلي لعلاجها النفسي، وقد كان الحلم عوناً لها على متابعة

اعترافها وتنفيها. لقد كان الحلم بمثابة «خط إرشادي لجهة العلاج» و«تنبؤ بالنتيجة» بالمعنى اليوناني الذي مفاده أن لأكثر الأحلام عزماً ناظرًا إلى الأمام، بُعدًا مستقبليًا. لذلك تركز علاجها التحليلي على صدمات الطفولة التي تعلق رهابها، ولا سيما الإساءة الجنسية على يد أخيها. كانت هذه التداعيات عونًا لها على التغلب على إساءات الطفولة وعلى تطوير موقف جديد من طرزها البدئية المذكورة والمؤنثة. الآن، نلاحظ رسالة الحلم عندها بعد بضع جلسات. كان حلمها الثاني، في الطور الأوسط من العلاج النفسي، هو هذا:

(أنا راجعة من المقبرة ذاهبة إلى منزل عمي، وعلى رأسي غطاء قاتم كبير. ليس في الشارع أحد. أحس بمن يتبعني، فألتفت فأرى ذكرًا يتبعني. لا أعيره اهتمامًا بل أمضي في المشي وأسرع وكذلك يفعل هو. أدخل موضعًا في شارع والسماء تمطر والغطاء القاتم الكبير على رأسي قد ابتلّ بأكمله. أحس أن الذكر الذي يتبعني يريد أن يشنقني. أجري فيلاحقني، بيد أن شيئًا ما يوقفني. أدفع بابًا فأفتحه لأهرب، لكنه يمسكني ويأخذ في خنقي. أحسب أنه ملك الموت).

هذا نمط من الصور التعبيرية المركبة التي تصوّر محاولتها الفرار مما في داخلها من عالم الصمت والوحدة والتجنب الاجتماعي إلى عالم يجبّد الاجتماع بالناس. لعل المقبرة والغطاء القاتم على الرأس يتوجهان إلى العجز الفطري والتخيلات العقلية الصارمة التي تحزنها. إنها تحاول تغيير هذه المشاعر كما أنها تخاف من هذا التبديل. تبين تداعيات العم عندها أنه رجل محب وعقلاني

ومتدين ومرن ومسؤول يعوضها عن لاسؤولية أبيها. يزيد تداعي العم من أمنها وسلامها وإيمانها. أضف إلى ذلك أنه يُظهر ميلها إلى التغير الذي منعه الأفكار الذكورية والخبرات السلبية مع الرجال التي اتخذت صورة الإساءة. تدل الصور التعبيرية الحالية على نضالها الداخلي للتغلب على عقبات العلاج النفسي الذي يرجع أصله إلى المستوى الشخصي اللاشعوري. وكما قلنا أعلاه، أثبتت المقابلة السريرية تاريخاً من الإساءة على أيدي أقاربها الأقربين من مثل أخيها وأن النجاة من ذلك كانت غير ممكنة. إن إيضاح الحلم وإدراك تضخمه العاطفي مع الاستعادة الحرة للخبرات الصدمية الآنف الذكر في أثناء الجلسات قد كان أثره الأكبر هو تقديم العون لها في صورة التنفيس والاستقرار العاطفي، ومن ثم انتقلنا إلى المستوى اللاشعوري الماوراء - شخصي أو الجمعي. مثال ذلك أن العم والمطر لعلهما يُبرزان المستويات الماوراء - شخصية لطرازي المذكر والخلاص البدئين. لقد كان الحلم بمثابة «خط إرشادي لجهة العلاج» و«تنبؤ بالنتيجة» بالمعنى اليونغي. ركز العلاج النفسي، هاهنا، على إفشائها المفصل بنفسها لأسرار طفولتها ومحاولتها تطوير مهارات اجتماعية للوقاية الذاتية لها كفاية أكبر قدرًا. إن الحلم الحالي هو بمثابة وسيلة جيدة لتحقيق الأهداف الإيضاحية والتربوية في المداواة. كان حلمها الثالث، في الطور الأخير من العلاج النفسي، هو هذا:

(أنا في منزل غير مألوف. يريد حيوان شبيه بالقط الوصول إلى أفرأنا،

وأنا أجري لأبتعد عنه أما هو فيها جمني. حين يدنو مني أقصم ظهره، والذين بجنبي يدعونني لأحاول من جديد، إلى أن أمسكه في آخر الأمر).

في علم نفس الأعماق، المنزل غير المؤلف هو تعبير مجازي عن أقسام العالم داخل النفس. يُظهر حلمها استبصارات نافعة في استكشاف حدود اللاشعور في شخصيتها، ولا سيما استكشاف الأنيمة. لقد حاولت أن تقتل قطعاً، وهذا قد يدل على ميلها إلى ضبط عاداتها غير المرغوب فيها من مثل الغضب والعدوانية وسوء النية في قطاعي الأنيم والبرسونا. إنه يرشد العلاج إلى ضرورة أن تتوازن المريضة في طيف الانطواء-الانبساط لأن الذين لحظوها إنما هم الذين بجنبها وليس عالمها الداخلي. لقد توجه حلمها إلى ظلها والأنيمة والأنيم طلباً للتوازن المنطقي في وظائفها النفسية الأربع وجدواها في التحول في أثناء العلاج النفسي. في أثناء إيضاح الحلم وتفسيره، ناقشنا كل هذه الطرز البدئية في الجلسات العلاجية. لقد عمل هذا الحلم كبُعد مستقبلي لعلاجها النفسي. مثال ذلك أنها كانت ذات إغواء شديد، وكان لها الكثير من الانطباعات الجنسية الغامضة والتصرفات الشبيهة بالشريرة مع الذكور في العلاقة بين شخصية فكان ذلك ينتج سياقاً يتيح الإساءة إليها. على نحو مماثل، كانت ليدا شاردة الانتباه عن أفكارها وإحساساتها وشعورها وحدوسها. وفيما عدا هذا، كانت أكثر القوالب التي تعتمد عليها هي القوالب المذكورة. كان هذا الاستبصار المستقبلي عوناً لليدا على رصد التصرفات المغوية التي تهدد أمانها في السياقات

الاجتماعية، وعلى تقليل توجهات الأنيم عندها وتحقيق التوازن في أدائها الوظيفي النفسي الأساسي. كان حلمها الرابع في الطور الأخير من العلاج النفسي، هو هذا:

(أنا في الامتحان وللمقرر مدرسة أنثى. إنها تجلس أمامي وتلاحظ أنني خائفة قليلاً. عند شروعي في الإجابة، أرى قطعة نقد كُتِب على سطحها كلمة طبيب، أما على وجهها الآخر فقد كُتِب «نفسى». متى أواجه مشكلة أنظر إليها فوراً لأجد «ماذا عليّ عمله»).

يشتمل هذا الحلم على رمز هو للمريضة موجّه وشافٍ. أضف إلى ذلك أنه يعبر عن تجانسها مع الطبيعة المؤنثة، وعن حس التمكين الداخلي والبحث عن المعنى بمشاعر من الارتياح والإيمان بالذات. كذلك يوحي الحلم بأن إيقاف العلاج النفسي ممكن. إنه يدل على تحولها وتحسنها وعلى نتيجة الشفاء في عالم الواقع الموافق لتحسناتها داخل البيئة الخارجية. بناءً على تداعياتها وتسجيلاتها ووظائفها البيتية عن وظائفها النفسية الأربع، أثبت إيضاح الحلم وتفسيره الافتراضات الأربعة المذكورة أعلاه. لقد قام الحلم الحالي بوظيفة الاستكشاف «لرمز الشفاء الداخلي» بالمعنى اليونغي. إنه برهانٌ على عزم المريضة ناظرٍ إلى الأمام وإرشادٌ لها إلى التحقيق الذاتي لمهام حل المشاكل اليومية وكذلك انتهاء المداواة^(١).

(١) الأحلام في علم النفس اليونغي: استعمال الأحلام كأداة لعمل بحث على الرُهاب الاجتماعي

احتمال تأثير الشيطان في المنامات:

كما أنه من المحتمل أن تكون الرؤيا عبثاً شيطانياً، فإبليس قد لا يتوقف نشاطه عند نوم الإنسان، وللشيخ المفيد رحمته الله تعبير لطيف جداً مفاده: إننا في عالم اليقظة نشاهد بعض الشياطين يدعون بعض المناصب، فكيف نستبعد أن يكون إبليس في عالم الرؤيا قادراً على أن يأتي الإنسان ويدعي مثل تلك المناصب، ففرعون في اليقظة قال: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾^(١)، فلا بعد في قدرة إبليس في المنام على أن يدعي أنه ملك، أو نبي، ويدعي منصباً لضال مضل يدعي أنه نبي، أو إمام، أو نائب خاص للإمام.

يقول الكراجكي رحمته الله: «فإما منامات الأنبياء عليهم السلام فلا تكون إلا صادقة وهي وحي في الحقيقة ومنامات الأئمة عليهم السلام جارية مجرى الوحي وإن لم تسمَّ وحيًا، ولا تكون قط إلا حقاً وصدقاً، وإذا صح منام المؤمن لأنه من قبل الله تعالى كما ذكرناه وقد جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: رؤيا المؤمن جزء من سبعة وسبعين جزءاً من النبوة (وروى) عن علي عليه السلام قال: رؤيا المؤمن تجري مجرى كلام تكلم به الرب عنده، فأما وسوسة شياطين الجن فقد ورد السمع بذكرها قال الله تعالى: ﴿من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾: وقال: (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم

وتشخيصه ومداواته، ترجمة: وفيق فائق كريشات.

(١) سورة النازعات: آية ٢٤.

ليجادلوكم)، وقال: (شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً)، وما ورد السمع به فلا طريق إلى دفعه، فأما كيفية وسوسة الجنى للإنسي فهو أن الجن أجسام رقاق لطاف فيصح أن يتوصل أحدهم برقة جسمه ولطافته إلى غاية سمع الإنسان ونهايته فيوقر فيه كلاماً يلبس عليه إذا سمعه ويشبه عليه بخواطره؛ لأنه لا يرد عليه ورود المحسوسات من ظاهر جوارحه ويصح أن يفعل هذا بالنائم واليقظان جميعاً، وليس هو في العقل مستحيلاً (وروى) جابر بن عبد الله أنه قال بينما رسول الله ﷺ يخطب إذ قام إليه رجل فقال يا رسول الله إني رأيت كأن رأسي قد قطع وهو يتدحرج وأنا أتبعه فقال رسول الله ﷺ لا تحدث بلعب الشيطان بك، ثم قال إذا لعب الشيطان بأحدكم في منامه فلا يحدثن به أحداً، وأما رؤية الإنسان للنبي ﷺ أو لأحد الأئمة عليهم السلام في المنام، فإن ذلك عندي على ثلاثة أقسام قسم أقطع على صحته وقسم أقطع على بطلانه وقسم أجوز فيه الصحة والبطلان فلا أقطع فيه على حال، فأما الذي أقطع على صحته فهو كل منام رأى فيه النبي ﷺ أو أحد الأئمة عليهم السلام وهو فاعل لطاعة أو أمر بها ونهيه عن معصية أو مبین لقبحها وقائل لحق أو داعٍ إليه أو زاجر عن باطل أو ذام لما هو عليه، وأما الذي أقطع على بطلانه فهو كل ما كان على ضد ذلك لعلمنا أن النبي والإمام عليهما السلام صاحبا حق وصاحب الحق بعيد عن الباطل، وأما الذي أجوز فيه الصحة والبطلان فهو المنام الذي يرى فيه النبي أو الإمام عليهما السلام وليس هو آمراً ولا ناهياً ولا على حال

يختص بالديانات، مثل أن يراه راكباً أو ماشياً أو جالساً ونحو ذلك، فأما الخبر الذي يروى عن النبي ﷺ من قوله: من رآني فقد رآني فإن الشيطان لا يتشبه بي، فإنه إذا كان المراد به المنام يحمل على التخصيص دون أن يكون في حال، ويكون المراد به القسم الأول من الثلاثة أقسام لأن الشيطان لا يتشبه بالنبي ﷺ في شيء من الحق والطاعات، وأما ما روى عنه ﷺ من قوله: من رآني نائماً فكأنها رآني يقظان، فإنه يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون المراد به رؤية المنام ويكون خاصاً، كالخبر الأول على القسم الذي قدمناه، والثاني أن يكون أراد به رؤية اليقظة دون المنام ويكون قوله نائماً حالاً للنبي ﷺ وليست حالاً لمن رآه، فكأنه قال: من رآني وأنا نائم فكأنها رآني وأنا منتبه، والفائدة في هذا المقام أن يعلمهم بأنه يدرك في الحالتين إدراكاً واحداً، فيمنعهم ذلك إذا حضروا عنده وهو نائم أن يفيضوا فيما لا يحسن أن يذكروه بحضرته وهو منتبه وقد روي عنه ﷺ أنه غفا ثم قام يصلي من غير تجديد الوضوء فسئل عن ذلك، فقال إني لست كأحدكم تنام عينا ولا ينام قلبي، وجميع هذه الروايات أخبار آحاد فإن سلمت فعلى هذا المنهاج، وقد كان شيخنا رحمه الله يقول: إذا جاز من بشر أن يدعي في اليقظة أنه إله، كفرعون، ومن جرى مجراه مع قلة حيلة البشر وزوال اللبس في اليقظة، فما المانع من أن يدعي إبليس عند النائم بوسوسته له أنه نبي، مع تمكن إبليس بما لا يتمكن منه البشر، وكثرة اللبس المعترض في المنام، ومما يوضح لك أن من المنامات التي يتخيل للإنسان أنه قد

رأى فيها رسول الله والأئمة عليهم السلام منها ما هو حق ومنها ما هو باطل أنك ترى الشيعي يقول: رأيت في المنام رسول الله صلى الله عليه وآله، ومعه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يأمرني بالاعتداء به دون غيره ويعلمني أنه خليفته من بعده... ونحو ذلك مما يختص بمذهب الشيعة، ثم ترى الناصبي يقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله ما يختص بمذهب الناصبة، فتعلم لا محالة أن أحد المنامين حق والآخر باطل، فأولى الأشياء أن يكون الحق منها ما ثبت بالدليل في اليقظة على صحة ما تضمنه، والباطل ما أوضحت الحجة عن فساده وبطلانه وليس يمكن للشيعي أن يقول للناصري: إنك كذبت في قولك: إنك رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأنه يقدر أن يقول له مثل هذا بعينه وقد شاهدنا ناصبياً تشيع وأخبرنا في حال تشيعه بأنه يرى منامات بالضد مما كان يراه في حال نصبه، فبان بذلك أن أحد المنامين باطل وأنه من نتيجة حديث النفس أو من وسوسة إبليس ونحو ذلك»^(١).

وفي رجال الكشي: وجدت بخط جبرئيل بن أحمد حدثني محمد بن عيسى عن علي بن الحكم عن حماد بن عثمان عن زرارة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: أخبرني عن حمزة أيزعم أن أبي آتیه؟ قلت: نعم، قال كذب والله ما يأتيه إلا المتكون، إن إبليس سلط شيطاناً يقال له: المتكون، يأتي الناس في أي صورة شاء، إن شاء في صورة كبيرة وإن شاء في صورة صغيرة، ولا والله ما يستطيع

(١) كنز الفوائد: ص ٣١٢، ٣١٣. بتصرف.

أن يجيء في صورة أبي إسحاق^(١).

فالشیطان لا يمكن أن يتصور بصورة النبي والإمام الواقعية، وهذا أحد معاني (من رأي فقد رأي فإن الشيطان لا يتشبه بي)، ولكن يمكن للشيطان أن يدعي أنه نبي، أو إمام، ويأتي بصورة أخرى، وعليه قد يأتي دجال يدعي كذباً وزوراً، ويقول: الدليل على صدقي أن سوف يأتيك في المنام نبي الله إبراهيم عليه السلام - مثلاً - ويخبرك بما أدعي، وهو بينه وبين إبليس اتفاقية، فيأتي إبليس في المنام فعلاً، ويقول كما أخبر الدجال، فلا يوجد أي ضمان من عدم وقوع هذا الأمر، فكيف نعول على الرؤى والمنامات؟!

وقد ورد في الكافي الشريف عن ابن أذينة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال: ما تروي هذه الناصبة فقلت: جعلت فداك فيما ذا؟ فقال: في أذانهم وركوعهم وسجودهم فقلت: إنهم يقولون: إن أبي بن كعب رآه في النوم، فقال: كذبوا، فإن دين الله أعز من أن يرى في النوم^(٢).

فالدين لا يؤخذ من الأحلام، فلا يمكن أن نعتمد على الرؤيا في إثبات أصل النبوة.

و- أيضاً - لا يمكن أن نعتمد على الخيرة، فأى علاقة بين أن تخرج ثلاث حبات أو حبتان، فيما إذا جررنا المسبحة وبين صدق الدعوى، إن الطريق

(١) بحار الأنوار: ج ٢٥ ص ٢٨١.

(٢) الكافي: ج ٣ ص ٤٨٢.

العلمي هو: ذلك الطريق الذي توجد علاقة منطقية وعلمية بين مقدماته وبين النتيجة، ولا علاقة بين خروج عدد من حلقات المسبحة وبين كون المدعي صادقاً في الواقع.

إذن، ينبغي في إثبات النبوة أن نعتمد طرقاً خاصة، وهي الطريق العلمية القطعية المعتبرة.

الفرق بين المنصب الشهودي والغيبى:

والمناصب التي يدعيها الإنسان تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: مناصب شهودية، وهي التي يمكن أن نتحقق من صدقها حساً، كما إذا جاء شخص وادعى أنه معلم يعمل في مدرسة محددة، فإنه يمكن بالأسلوب الحسي أن نتحقق من صدقه، بأن نرى عقد التوظيف الرسمي، أو نراه يومياً يُعلم في المدرسة التي ذكرها، ويأخذ راتباً في آخر الشهر، فهنا لا نواجه مشكلة؛ لأن المدعي يدعي منصباً شهودياً يمكن أن نتحقق من وقوعه فعلاً بالوسائل الحسية.

القسم الثاني: المناصب الغيبية، وهي المناصب الإلهية، كالنبوة، والإمامة، والنيابة الخاصة، فالنبوة أمر غيبي؛ لأنها بجعل من الله، وهي اتخاذ غير مادي، فعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال سَمِعْتُهُ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ نَبِيًّا وَاتَّخَذَهُ نَبِيًّا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ رَسُولًا وَاتَّخَذَهُ رَسُولًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ خَلِيلاً وَاتَّخَذَهُ خَلِيلاً قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ إِمَامًا فَلَمَّا جَمَعَ لَهُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَقَبَضَ يَدَهُ

قَالَ لَهُ - يَا إِبْرَاهِيمُ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ﴿فَمِنْ عِظَمِهَا فِي عَيْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ يَا رَبِّ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾﴾^(١).

فمقام النبوة اتخاذ، ومقام الرسالة اتخاذ، وهذا أمر غيبي لا ندركه بالحس، كما أن النبوة فيها تلقى للوحي، وعلمية تلقي الوحي أمر غيبي لا يدرك بالحس، فهنا لا يمكن أن نتحقق بالحس، وهذا يعني أن عملية التحقق أكثر صعوبة ومشقة، فلا بد أن نكون أكثر دقة وثباتاً، لا نقبل أي دعوى، وإنما علينا نسلك خصوص الطرق العلمية.

طرق إثبات صدق مدعي النبوة:

وتوجد أربعة طرق لإثبات صدق مدعي النبوة:

الطريق الأول: أن يثبت عندنا عقلاً وجوب بعثة الأنبياء، وأن ترك البعثة قبيح، ثم بامتداد عمود الزمان يأتي شخص واحد فقط، ويدعي أنه نبي، فهنا سوف نقول: بمجرد أن ادعى هذا الشخص أنه نبي علمنا بأنه صادق؛ لأنه لو كان كاذباً، يلزم أن يكون الباري تبارك وتعالى لم يبعث نبياً، والمفروض أننا انتهينا في الرتبة السابقة إلى ضرورة وجوب بعثة الأنبياء، فالادعاء هنا يكشف عن الصدق؛ لأن عدم الصدق يعني عدم البعثة، وعدم البعثة قبيح لا يصدر من الله تبارك وتعالى.

(١) الكافي، الكليني: ج ١ ص ١٧٥.

وهذا الطريق يتوقف على العلم بأن غير هذا الشخص لم يدع النبوة، كما أنه ليس طريقاً عملياً؛ لأن الواقع هو ادعاء الكثيرين للنبوة، فنحن بحاجة إلى أن نميز الصادق من الكاذب بينهم.

الطريق الثاني: هو نص المعصوم، فإذا وجد معصوم نبياً كان أو إماماً، ونص على نبوة شخص، فلمكان عصمته سوف نقطع بالنبوة، وفي العادة علماء الكلام يمثلون لهذا الطريق ببشارة الأنبياء السابقين بالنبي الأكرم ﷺ^(١)، ولكنهم لو عكسوا لكانوا أقرب إلى الصواب؛ لأن كتب الديانات السابقة كتب محرفة لا قيمة لها من الناحية التاريخية، ولا يمكن أن نُعول عليها في إثبات نبوة النبي ﷺ بقدر التعويل على إخبار النبي ﷺ بثبوت نبوة الأنبياء السابقين. نعم، وجود البشارة في الكتب السابقة من قرائن الوثوق والعلم، وهذا طريق آخر.

فالمثال الأصح لهذا الطريق هو إخبار النبي ﷺ - الذي نملك دليلاً قطعياً على صدقه - بنبوة الأنبياء السابقين.

الطريق الثالث: هو المعجزة.

الطريق الرابع: هو طريق جمع القرائن، أو ما يسمى بحساب الاحتمال الرياضي، أو الطريق العلمي، وهو الذي ذكره قيصر الروم لأبي سفيان في

(١) وقد تعرضنا للبشارة ضمن مفردة (الفارقليط) تبعاً لبعض الباحثين في ج ٢ ص ٩٥ وص ١٠٣ من سلسلة أطروحات هامة.

إثبات نبوة النبي الأكرم ﷺ^(١)، واعتنى به المفكر الكبير الشهيد السيد محمد باقر الصدر رحمه الله في كتابه: (موجز في أصول الدين المرسل والرسول والرسالة)^(٢) فقد أبدع رحمه الله في بلورته، وتشيد أركانه، وفي صياغته وتقريبه، فشكر الله سعيه. وإذا تأملنا نجد أن الطريق الثالث والطريق الرابع أهم هذه الطرق الأربعة؛ لأن الطريق الأول - كما ذكرنا - ليس عملياً أو يرجع إلى الرابع، والطريق الثاني الذي هو نص المعصوم يرجع بحسب الدقة إلى هذين الطريقين؛ لأن المعصوم الذي سوف ينص على نبوة شخص لابد أن يثبت في الرتبة السابقة أنه نبي أو إمام أو متكلم معصوم، وثبوت النبوة والإمامة والعصمة إما بالمعجزة أو بجمع القرائن، فالطريق الأهم في إثبات صدق النبي يتمثل في الطريقين الآخرين.

لهذا سوف نقف في هذه المحطة عند هذين الطريقين، وسوف نتحدث أولاً في المعجزة ضمن نقاط، ثم نحاول الإجابة على بعض الأسئلة والشبهات المثارة حول المعجزة، وبعد ذلك نقف عند الطريق الأخير، وهو طريق جمع القرائن وحساب الاحتمالات.

بحث حول المعاجز:

ونتكلم في المعجزة ضمن نقاط ثلاث:

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٢٩٠.

(٢) راجع ص ١٨٨.

النقطة الأولى: في تعريف المعجزة، وما هو المقصود بالمعجزة؟

لم ترد لفظة المعجزة في القرآن الكريم، فلم يُعبّر الكتاب المجيد عن الدليل الدال على صدق الأنبياء بلفظ المعجزة، وإنما عبر بلفظ الآية أو الآيات أو الآيات البيانات، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾^(١)، ويقول على لسان نبيه عيسى (على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام): ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، والتعبير بالآية أعم التعبير المعجزة، لأنه يدل على كل علامة ودليل يدل على الصدق، سواء كان معجزة أو لم يكن، كما لو كان طريق جمع القرائن وحساب الاحتمالات.

و عدم تعبير القرآن بلفظ المعجزة جعل المرحوم الشهيد مطهري رحمه الله يعتقد أن لفظ المعجزة من وضع المتكلمين^(٣)، ولكن الواقع هو أن لفظ المعجزة ورد في لسان أهل العصمة عليهم السلام، ففي الرواية عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام لأي علة أعطى الله عز وجل أنبياءه ورسله وأعطاكم المعجزة؟ فقال: ليكون دليلاً على صدق من أتى به والمعجزة علامة لله لا يعطيها إلا أنبياءه ورسله وحججه ليعرف به صدق الصادق من كذب الكاذب^(٤).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ يَزِيدَ الْجُعْفِيِّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْبَاقِرِ عليه السلام قَالَ: لَمَّا أَظْهَرَ رَسُولُ

(١) سورة الإسراء: آية ١٠١.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٤٨.

(٣) النبوة: ص ١٦٣.

(٤) علل الشرائع للشيخ الصدوق: ج ١ ص ١٢٢.

الله ﷺ الرِّسَالَةَ وَالْوَحْيَ بِمَكَّةَ وَأَرَاهُمُ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةَ وَالْبَرَاهِينَ الْمُبْهَرَةَ تَحَيَّرَتْ قَبَائِلُ قُرَيْشٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي تَيْمٍ وَعَدِيٍّ فِيمَا أَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ اجْتَمَعَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَقَالُوا لِدِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ: مَاذَا تَرَوْنَ مِنَ الرَّأْيِ فِيمَا يَأْتِي بِهِ مُحَمَّدٌ بِمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ السَّحَرَةِ وَالْكَهَنَةِ وَالْجِنِّ وَأَتَى بِشَيْءٍ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ مَنْ ذَكَرْنَاهُ أَحَدٌ حَتَّى نَسْأَلَ مُحَمَّدًا مِنْ أَيْنَ أَتَى بِهِ فَلَمْ يُدْعَ بِدِينِهِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَلَا الْكَهَنَةِ وَالسَّحَرَةِ وَلَا الْجِنِّ الْمُسْحَرَةِ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ وَلَا مُعْجَزَةٍ إِلَّا وَقَدْ أَتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِمِثْلِهَا وَأَعْظَمَ مِنْهَا فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اجْمَعُوا عَلَى أَنْ نَسْأَلَهُ أَنْ يُشَقَّ لَنَا الْقَمَرُ فِي السَّمَاءِ وَيُنْزِلَهُ إِلَى الْأَرْضِ شُعْبَتَيْنِ فَإِنَّ الْقَمَرَ مَا سَمِعْنَا مِنْ سَائِرِ النَّبِيِّينَ أَحَدًا يَقْدِرُ عَلَيْهِ كَمَا قَدَرَ عَلَى الشَّمْسِ فَإِنَّهَا رَجَعَتْ لِيُوشَعَ بْنِ نُونٍ ﷺ وَصِيَّ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ﷺ وَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ الشَّمْسَ لَا تُرَدُّ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَمِنْ ذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَهُوَ التَّمْرُودُ ثُمَّ رُدَّتْ عَلَى يُوشَعَ بْنِ نُونٍ عَلَى عَهْدِ مُوسَى ﷺ فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَجَاوُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ قَدْ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَنَا آيَةً إِنْ أَتَيْتَ بِهَا آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ: اسْأَلُونِي فَإِنِّي أُبَيِّنُكُمْ بِكُلِّ آيَةٍ لَوْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. ^(١)

وعن محمد بن موسى الرازي قال حدثني أبي قال: ذكر الرضا ﷺ يوماً

(١) الهداية الكبرى، خصيبي، حسين بن حمدان، - بيروت، ١٤١٩ ق.

الْقُرْآنَ فَعَظَّمَ الْحُجَّةَ فِيهِ وَالْآيَةَ وَالْمُعْجِزَةَ فِي نَظْمِهِ قَالَ هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَعُرْوَتُهُ الْوُثْقَى وَطَرِيقَتُهُ الْمُثَلَّى الْمُوَدِّي إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمُنْجِي مِنَ النَّارِ لَا يَخْلُقُ^(١) عَلَى الْأَزْمِنَةِ وَلَا يَغُثُ^(٢) عَلَى الْإِلْسِنَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يُجْعَلْ لَزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ بَلْ جُعِلَ دَلِيلَ الْبُرْهَانِ وَالْحُجَّةَ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ^(٣)

إذن، لفظة المعجزة وردت في لسان أهل البيت عليهم السلام، وليس مجرد لفظ وضعه المتكلمون.

والمقصود بالمعجزة: الفعل الخارق للعادة، وهو - كما قيل -: ما اشتمل على خرق للقوانين والنواميس الحاكمة على عالمنا، أو الفعل الذي فيه تغيير للقوانين الحاكمة بإحداث قانون مكان قانون آخر، ولكن بشرط أن يكون الفعل مقروناً بادعاء منصب سماوي، كادعاء النبوة أو الإمامة، أو أي منصب سماوي يجعله الله تبارك وتعالى.

فإذا ادّعى شخص أنه نبي، وجاء بفعل خارق للعادة، فإن جريان الفعل الخارق للعادة على يده يدل على صدقه، فلو قال شخص: أنا نبي، وألقي في النار ولم يحترق، كان عدم احتراقه دليلاً على صدقه؛ لأن بحسب القانون

(١) خلق الثوب: بلى.

(٢) غث حديث القوم: ردؤ وفسد.

(٣) ابن بابويه، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام - تهران، چاپ: اول، ١٣٧٨ ق.

الجارى يجب أن يحترق، وكذلك بحسب السنن الجارية لا يمكن أن تنقلب العصا إلى ثعبان في لحظة واحدة، فإذا جاء شخص وادعى أنه نبي وألقى العصا وتحولت في ساعتها إلى ثعبان دل ذلك على صدقه، وبحسب نظام الكون لا يمكن أن تخرج ناقة من جبل، فإذا جاء شخص وقال: أنا نبي، ودليل نبوتي أني أخرج من هذا الجبل ناقة، وبالفعل أشار فأخرجها، فإن خرقه للعادة دليل على صدقه، وسواء جاء بهذا الفعل الخارق للعادة في مقام التحدي، كما لو تحدى الأمة أن يأتوا بفعل أو يتركوا فعلاً، فما استطاعوا، وهو تفرد في قدرته واستطاع، أم لم يكن في مقام التحدي، فمجرد أن يدعي المنصب، ويجري الفعل الخارق على يده يصدق عنوان المعجزة.

ويقابل مفهوم المعجزة مفهوم آخر يسمى: (مفهوم الكرامة)، فالكرامة فعل خارق للعادة، ولكن يجري على يد شخص لا يدعي منصباً سماوياً، وأن الله تبارك وتعالى جعل له منزلة بين العباد، وهذا كما في آصف بن برخيا في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾^(١)، ففي الرواية عَنْ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ النَّوْفَلِيِّ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ صَاحِبِ الْعَسْكَرِ (عليه السلام) قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ حَرْفًا كَانَ عِنْدَ آصَفَ حَرْفٌ فَتَكَلَّمَ بِهِ فَأَنْحَرَفَتْ لَهُ الْأَرْضُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَبَأٍ فَتَنَاولَ عَرْشَ بَلْقَيْسَ حَتَّى صَيَّرَهُ إِلَى سُلَيْمَانَ ثُمَّ انْبَسَطَتِ الْأَرْضُ فِي أَقَلِّ مِنْ طَرْفَةٍ عَيْنِ

وَعِنْدَنَا مِنْهُ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ حَرْفًا وَحَرْفٌ عِنْدَ اللَّهِ مُسْتَأْثَرٌ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ^(١).
 فلا شك في أن هذا الفعل خارق للعادة، ولكنه لا يسمى معجزة؛ لأن
 آصف لم يكن يدعي منصباً سماوياً، وكذلك في وصول الرزق للسيدة
 مريم عليها السلام في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا
 قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ
 حِسَابٍ﴾^(٢)، فوصول الرزق بطريق غير متعارف فعل خارق للعادة، لكنه في
 هذا المورد ليس معجزة؛ لأن السيدة مريم عليها السلام لم تكن تدعي منصباً إلهياً.

شروط المعجزات:

النقطة الثانية: في شروط المعجزة.

مما ينبغي الالتفات إليه بدقة أنه ليس كل فعل استثنائي يأتي بعض أفراد
 المجتمع، ولا يقدر عليه غيره يسمى معجزة، بل لابد أن تتوفر شروط:
 الشرط الأول: ما ذكرناه من أن الفعل لابد أن يكون خارقاً للعادة،
 والمقصود أنه لا يمكن أن يتوصل الإنسان إلى القدرة على فعله بالتعلم، فأي
 فعل يمكن أن يتوصل إليه أي إنسان إذا تعلم لا يسمى خارقاً للعادة؛ لأن له
 نظاماً معيناً، وهو التعلم، وتوجد له عادة، وإن كانت عادة للنادر من الناس،
 وهو المتعلم أو القادر على التعلم، فالفعل الذي يمكن كسبه بالتعلم ليس

(١) الكافي: ج ١ ص ٢٣٠.

(٢) سورة آل عمران: آية ٣٧.

خارقاً للعادة لوجود عادة خاصة به، غاية الأمر تتحقق بالتعلم لكل أحد. وبعض الأفعال يمكن لكل أو أغلب الناس أن يقوموا بها بعد التعلم؛ لأن عملية التعلم متاحة ولا تحتاج إلى قابليات خاصة، كسياقة السيارة، وقيادة الطائرة، فلو جاء شخص وقال: أنا نبي، والدليل أنني أقود الطائرة، فسوف نقول له: قيادة الطائرة ليست فعلاً خارقاً للعادة؛ لأن كل شخص إذا تعلم كما تعلمت سوف يكون قادراً على قيادة الطائرة.

وبعض الأفعال لها نظام تعليمي، ولكن ليس كل إنسان بإمكانه أن يتعلم؛ لأنها تحتاج إلى قابليات روحية وعقلية خاصة، أو فيها ضريبة تمنع من إقدام عامة الناس، مثل السحر، والكهانة، وألعاب الخفة، وينقل صاحب الميزان عن الشيخ البهائي عليه السلام أنه مرّ ببلدة تسمى: (هيرات) فوجد فيها كتاباً اسمه: (كله سر) وهو يجمع جملة من العلوم، وفي عنوان هذا الكتاب حروف بعدد تلك العلوم، وإلى هذه العلوم ينتمي السحر، والكهانة، والشعبذة، قال عليه السلام: «(بحث علمي) العلوم الباحثة عن غرائب التأثير كثيرة والقول الكلي في تقسيمها وضبطها عسيرة جداً، وأعرف ما هو متداول بين أهلها ما نذكره: منها: السيمياء، وهو العلم الباحث عن تمزيج القوى الإرادية مع القوى الخاصة المادية للحصول على غرائب التصرف في الأمور الطبيعية، ومنه التصرف في الخيال المسمى بسحر العيون وهذا الفن من أصدق مصاديق السحر، ومنها الليمياء وهو العلم الباحث عن كيفية التأثيرات الإرادية

باتصالها بالأرواح القوية العالية كالأرواح الموكلة بالكواكب والحوادث وغير ذلك بتسخيرها أو باتصالها واستمدادها من الجن بتسخيرهم، وهو فن التسخيرات، ومنها: الهيمياء: وهو العلم الباحث عن تركيب قوى العالم العلوي مع العناصر السفلية للحصول على عجائب التأثير وهو الطلسمات، فإن للكواكب العلوية والأوضاع السماوية ارتباطات مع الحوادث المادية كما أن العناصر والمركبات وكيفياتها الطبيعية كذلك، فلو ركبت الأشكال السماوية المناسبة لحادثة من الحوادث كموت فلان، وحياة فلان، وبقاء فلان مثلاً مع الصورة المادية المناسبة أنتج ذلك الحصول على المراد وهذا معنى الطلسم، ومنها: الريمياء، وهو العلم الباحث عن استخدام القوى المادية للحصول على آثارها بحيث يظهر للحس أنها آثار خارقة بنحو من الأنحاء وهو الشعبذة، وهذه الفنون الأربعة مع فن خامس يتلوها وهو الكيمياء الباحث عن كيفية تبديل صور العناصر بعضها إلى بعض كانت تسمى عندهم بالعلوم الخمسة الخفية، قال شيخنا البهائي: أحسن الكتب المصنفة التي في هذه الفنون كتاب رأيته ببلدة هرات اسمه: (كله سر) وقد ركب اسمه من أوائل أسماء هذه العلوم، الكيمياء، والليمية، والهيمياء، والسيمياء، والريمياء، انتهى ملخص كلامه. ومن الكتب المعتمدة فيها خلاصة كتب بليناس ورسائل الخسر وشاهي والذخيرة الإسكندرية والسر المكتوم للرازي والتسخيرات للسكاكي وأعمال الكواكب السبعة للحكيم طمطم الهندي. ومن العلوم

الملحقة بما مر علم الأعداد والأوفاق وهو الباحث عن ارتباطات الأعداد والحروف للمطالب ووضع العدد أو الحروف المناسبة للمطلوب في جداول مثلثة أو مربعة أو غير ذلك على ترتيب مخصوص، ومنها: الخافية وهو تكسير حروف المطلوب أو ما يناسب المطلوب من الأسماء واستخراج أسماء الملائكة أو الشياطين الموكلة بالمطلوب والدعوة بالعزائم المؤلفة منها للنيل على المطلوب ومن الكتب المعتبرة فيها عندهم كتب الشيخ أبي العباس التوني والسيد حسين الأخلطي وغيرهما. ومن الفنون الملحقة بها الدائرة اليوم التنويم المغناطيسي وإحضار الأرواح وهما كما مر من تأثير الإرادة والتصرف في الخيال وقد ألف فيها كتب ورسائل كثيرة، واشتهر أمرها يغني عن الإشارة إليها ههنا، والغرض مما ذكرنا على طوله إيضاح انطباق ما ينطبق منها على السحر أو الكهانة^(١).

فقد يكون القادر على تعلم هذه العلوم خصوص من تتوفر فيه قابلية محددة، وقد لا تكون هذه القابلية موجودة عند عامة الناس، وإنما عند النادر، لكن كل من عنده هذه القابلية إذا تعلم سوف تجري على يده أفعال غير مألوفة، كأفعال السحر إلا أن هذا لا يعني وجود معجزة، فإن النبي في المعجزة يأتي بأمر لا يمكن أن يتحقق بالتعلم، ولو عند القابليات الخاصة والمتفردة.

(١) تفسير الميزان: ج ١ ص ٢٤٤، ٢٤٥.

فنبى الله موسى (على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام) لما ألقى العصا، وتحولت إلى ثعبان جاء بفعل لا يمكن أن يصل إليه إنسان، ولهذا أكبر عقول السحر في زمان السحر خضعت له ﴿وَالْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ، قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾^(١).

ونبي الله عيسى (على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام) كان يخلق ويحدث الحياة، وكان يُبرئ الأكمه والأبرص، وكان يُحدث بالأمور الغيبية، يقول تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، هذه الأفعال لا يمكن أن يصل إليها الإنسان بالتعلم.

ونبينا الأكرم ﷺ جاء بعدة معاجز، وأهم المعاجز والدستور الخالد القرآن الكريم، فهو معجز في بلاغته، ومعجز في علومه ومعارفه، فعلى سبيل المثال كانت العقلية الفيزيائية المسيطرة على العالم قبل بعثة النبي ﷺ تعتقد بأن أصل السماوات والأرض من الماء.

فطاليس وتلميذه أنكسمندر صاحب كتاب: (حول الطبيعة) قبل الميلاد

(١) سورة الأعراف: آية ١٢٠-١٢٢.

(٢) سورة آل عمران: آية ٤٩.

ذهبوا إلى أن أصل الكون ماء، هذا المذهب الفيزيائي تسرب إلى الكتاب المقدس لليهود والنصارى، ففي ٢ بطرس ٣/ ٥ (السموات كانت منذ القديم، والأرض بكلمة الله قائمة من الماء وعلى الماء)، وبعض الفيزيائيين المعاصرين النصارى من يحاول أن ينتصر لهذا مثل راسل همفريز (بالإنجليزية: *Russell Humphreys*).

والنبي ﷺ لم يفعل بما ذهب إليه اليونان ولا ما اعتقده اليهود والنصارى، وإنما جاء بكلام يوافق ما انتهت إليه الحقائق العلمية، وأحدث النظريات هي نظرية الانفجار العظيم (*Big Bang*) توافق ذلك، فأصل الكون ليس من الماء، وإنما من شيء مرتبط بالحرارة، والقرآن يقول: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾^(١)، والدخان شيء يأتي من حرارة أو نار، فلو كان النبي ﷺ إنساناً بسيطاً يعيش في منطقة بدائية من نوع أفرادها لكان منفعلاً بالثقافة السائدة، ولكنه خالف ما هو سائد، وصحح ما في الكتب السابقة وجاء بكلام يوافق الحقائق العلمية الثابتة اليوم بعد تطور وسائل الرصد.

كما أن القرآن الكريم حدثنا عن تاريخ الأمم السابقة بطريقة إعجازية، فمثلاً القرآن الكريم تفرد بذكر طريقة تعذيب الفراعنة ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٢)، ولم يتعرض لذلك العهد

(١) سورة فصلت: آية ١١.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٢٤.

القديم الذي تطرق لشيء من تاريخ اليهود في مصر، وقد ذكر الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف في كتابه: (مصر في القرآن والسنة)^(١) أنه اكتشف مؤخراً في معبد عمدا في بلاد النوبة ضمن الجداريات أن الفراعنة كانوا يعذبون بالقطع والصلب، ونحن ذكرنا في المحطة الأولى أن الجداريات كانت مكتوبة بالخط الهيروغليفي، وهذا الخط لم تحل رموزه إلا بعد النبي ﷺ بما يقرب من ألف ومئتين سنة، فكيف استطاع النبي ﷺ أن يصل إلى الجداريات المدفونة في أعماق الأرض، ويفك هذا الخط ويأتي بهذا الخبر، فالمعجزة إن كانت كهذا، وإلا فلا.

سر اختلاف معاجز الأنبياء:

ولعل هذا سر اختلاف معاجز الأنبياء ﷺ، فإن الله تعالى جعل كل نبي متفوقاً في الآية الجارية على يده على أصحاب الحرف والصناعات والفنون الموجودين في أمته، لبيان أن المعجزة فوق القابليات الخاصة، ففي [علل الشرائع]، و[عيون أخبار الرضا ﷺ] عَنْ أَبِي يَعْقُوبَ الْبَغْدَادِيِّ قَالَ: قَالَ ابْنُ السَّكِّيتِ لِأَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا ﷺ: لِمَاذَا بَعَثَ اللَّهُ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ بِيَدِهِ الْبَيْضَاءِ وَالْعَصَا وَالْآلَةَ السَّحْرِ وَبَعَثَ عِيسَى بِالطَّبِّ وَبَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْكَلامِ وَالْخُطْبِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو الْحَسَنِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَّا بَعَثَ مُوسَى ﷺ كَانَ الْأَغْلَبُ

عَلَى أَهْلِ عَصْرِهِ السَّحَرِ، فَأَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِ الْقَوْمِ مِثْلُهُ - وَبِمَا أَبْطَلَ بِهِ سِحْرَهُمْ وَأَثَبَتْ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ عِيسَى فِي وَقْتٍ ظَهَرَتْ فِيهِ الزَّمَانَاتُ وَاحْتِاجَ النَّاسِ إِلَى الطَّبِّ، فَأَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِثْلُهُ وَبِمَا أَحْيَا لَهُمُ الْمَوْتَى وَأَبْرَأَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَثَبَتْ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا فِي وَقْتٍ كَانَ الْأَغْلَبُ عَلَى أَهْلِ عَصْرِهِ الْخُطَبَ وَالْكَلَامَ - وَأَظْنُهُ قَالَ وَالشَّعْرَ - فَأَتَاهُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَوَاعِظِهِ وَأَحْكَامِهِ مَا أَبْطَلَ بِهِ قَوْلَهُمْ وَأَثَبَتْ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ ابْنُ السَّكِّيتِ تَالَهُ مَا رَأَيْتُ مِثْلَ الْيَوْمِ قَطُّ - فَمَا الْحُجَّةُ عَلَى الْخَلْقِ الْيَوْمَ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْعَقْلُ تَعْرِفُ بِهِ الصَّادِقَ عَلَى اللَّهِ، فَتُصَدِّقُهُ وَالْكَاذِبَ عَلَى اللَّهِ، فَتُكَذِّبُهُ، فَقَالَ ابْنُ السَّكِّيتِ هَذَا وَاللَّهِ الْجَوَابُ^(١).

وقد ذهب بعض الأعلام إلى أن عجز الأمة عن التمييز بين كون الفعل خارقاً للعادة وكونه سحراً - مثلاً - يوجب عدم إمكانية جريان السحر على يد المدعي كذباً، لجريان دليل قبح تأييد الكاذب بالمعجزة فيه، وهو محل تأمل.

الشرط الثاني: لا بد أن تكون المعجزة صادرة من شخص سيرته عطرة وأخلاقه أخلاق حسنة، وعُرف بالصدق والأمانة وبفضائل الأخلاق، أو لم يعرف منه سوء الحال، ولا منافيات النبوة؛ لأن الله تبارك وتعالى لا يجعل الشخص المنحرف والوضيع والسيء نبياً وسفيراً بينه وبين خلقه، فإن هذا

(١) بحار الأنوار: ج ١١ ص ٧٠.

يقبح في حقه تبارك وتعالى مع قدرته على اجتناب الأنبياء والرسل .
 فإذا ادّعى شخص النبوة، وكانت سيرته سيئة، وجاء بفعل غير مألوف،
 فإن سوء سيرته يكشف عن أن ما جاء به ليس خارقاً للعادة، وإنما هو ضرب
 من ضروب السحر أو الكهانة، أو هو أي شيء، ولكنه ليس تأييداً من الله
 تبارك وتعالى.

الشرط الثالث: لا بد أن يكون الفعل الخارق للعادة موافق لدعوة النبي،
 ولا يكون عكسياً، فمما ينقل أن مسيلمة الكذاب مسح على أعور فذهبت عينه
 الصحيحة، أو مسح على رأس أصلع حتى ينبت الشعر، فاشتعل جسده برصاً
 في لحظة واحدة، فهذا - إن وقع - فهو فعل خارق للعادة؛ لأنه البدن لا يشتعل
 برصاً - مثلاً - في لحظة واحدة، ولكنه معاكس، فهو دليل الكذب وليس دليلاً
 للصدق، فالمعجزة لا بد أن تكون موافقة لدعوى النبي.

قال العلامة الحلي رحمته الله في بيان الخلاف في تحقق الفعل الخارق المعاكس
 تعليقاً على قول المحقق الطوسي رحمته الله (وقصة مسيلمة وفرعون إبراهيم تعطي
 جواز إظهار المعجزة على العكس):

«أقول: اختلف الناس هنا، فالذين منعوا الكرامات منعوا من إظهار
 المعجزة على يد الكاذبين على العكس من دعواهم إظهاراً لكذبهم، واستدل
 المصنف رحمه الله بالوقوع على الجواز كما نقل عن مسيلمة الكذاب لما ادعى
 النبوة، فقليل له: إن رسول الله صلّى الله عليه وآله دعا لأعور فرد الله عينه الذاهبة، فدعا لأعور

فذهبت عينه الصحيحة. وكما نقل أن إبراهيم عليه السلام لما جعل الله تعالى عليه النار برداً وسلاماً قال نمرود عند ذلك: إنما صارت كذلك هيبة مني فجاءته نار في تلك الحال فأحرقت لحيته.

لا يُقال: يكفي في التكذيب ترك المعجز عقيب دعواهم فيبقى إظهار المعجز على العكس خرقاً للعادة من غير فائدة فيكون عبثاً، لأننا نقول: قد يتضمن المصلحة إظهاره على العكس إظهاراً لتكذيبه في الحال بحيث يزول الشك لتجوز أن يقال: تأخير المعجز عقيب الدعوى قد يكون لمصلحة ثم يوجد بعد وقت آخر فلا يحصل الجزم التام بالتكذيب»^(١).

الشرط الرابع: أن تكون الدعوة ممكنة لا مستحيلة، وإلا كشفت الاستحالة عن كون الفعل غير خارق، يقول السيد الخوئي رحمته الله: «وإنما يكون المعجز شاهداً على صدق ذلك المدعي إذا أمكن أن يكون صادقاً في تلك الدعوى. وأما إذا امتنع صدقه في دعواه بحكم العقل، أو بحكم النقل الثابت عن نبي، أو إمام معلوم العصمة، فلا يكون ذلك شاهداً على الصدق، ولا يسمى معجزاً في الاصطلاح وإن عجز البشر عن أمثاله:

مثال الأول: ما إذا ادعى أحد أنه إله، فإن هذه الدعوى يستحيل أن تكون صادقة بحكم العقل، للبراهين الصحيحة الدالة على استحالة ذلك.

ومثال الثاني: ما إذا ادعى أحد النبوة بعد نبي الإسلام، فإن هذه الدعوى

(١) كشف المراد: ص ٣٣٠.

كاذبة قطعاً بحكم النقل المقطوع بثبوتها الوارد عن نبي الإسلام، وعن خلفائه المعصومين بأن نبوته خاتمة النبوات، وإذا كانت الدعوى باطلة قطعاً، فماذا يفيد الشاهد إذا أقامه المدعي؟ ولا يجب على الله جل شأنه أن يبطل ذلك بعد حكم العقل باستحالة دعواه، أو شهادة النقل ببطلانها.

وقد يدعي أحد منسباً إلهياً ثم يأتي بشيء يعجز عنه غيره من البشر ويكون ذلك الشيء شاهداً على كذب ذلك المدعي، كما يروى أن «مسيلم» تفل في بئر قليلة الماء ليكثر ماؤها فغار جميع ما فيها من الماء، وأنه أمر يده على رؤوس صبيان بني حنيفة وحنكهم فأصاب القرع كل صبي مسح رأسه، ولثغ كل صبي حنكه فإذا أتى المدعي بمثل هذا الشاهد لا يجب على الله أن يبطله، فإن في هذا كفاية لإبطال دعواه، ولا يسمى ذلك معجزاً في الاصطلاح.

وليس من الإعجاز المصطلح عليه ما يظهره الساحر والمشعوذ، أو العالم ببعض العلوم النظرية الدقيقة، وإن أتى بشيء عنه غيره، ولا يجب على الله إبطاله إذا علم استناده في عمله إلى أمر طبيعي من سحر، أو شعبة، أو نحو ذلك وإن ادعى ذلك الشخص منسباً إلهياً، وقد أتى بذلك الفعل شاهداً على صدقه، فإن العلوم النظرية الدقيقة لها قواعد معلومة عند أهلها، وتلك القواعد لا بد من أن توصل إلى نتائجها، وإن احتاجت إلى دقة في التطبيق، وعلى هذا القياس تخرج غرائب علم الطب المنوطة بطبائع الأشياء، وإن كانت خفية على عامة الناس، وبل وإن كانت خفية على الأطباء أنفسهم. وليس من

القيح أن يختص الله أحداً من خلقه بمعرفة شيء من تلك الأشياء، وإن كانت دقيقة وبعيدة عن تناول أيدي عامة الناس، ولكن القبيح أن يغري الجاهل بجهله، وأن يجري المعجز على يد الكاذب فيضل الناس عن طريق الهدى»^(١).

فإذا تحققت هذه الشروط؛ فحينئذٍ يمكن أن نعتبر الفعل الذي جاء به مدعي النبوة دليلاً على صدقه، ونحن بحاجة إلى أن نكون حصيفين ودقيقين في طرق الإثبات، فما أكثر الذين يدعون مناصب سماوية، ولربما ينذر من يدعي النبوة، ولكن يوجد من يدعي غيرها من المناصب الإلهية، المهدوية، أو النيابة الخاصة، وفي علمية التحقق ينبغي أن نكون ناهين.

وقد وجد شخص يدعي أنه نائب الإمام المهدي عليه السلام، وأخذ يدعو الناس إلى نفسه، ويظهر لهم بعض الأفعال الاستثنائية، فمثلاً: قال لشخص أنا نائب الإمام الخاص، وبإمكاني أن أرجع الشمس من المغرب إلى المشرق، وفعلاً أراه الشمس ترجع، وكان الشخص ذكياً وحصيفاً، فلم يقع في شراكه كما وقع الكثيرون، وإنما خرج إلى الناس وسألهم: هل رأيتم الشمس ترجع من المغرب إلى المشرق؟

فأجابوه: لا، فعلم أنه كاذب؛ لأن إرجاع الشمس حدث عالمي، لو وقع لرآه عامة الناس، وسوف ترصده المحطات الفلكية، فتفرد شخص برؤيته دون سواه دليل عدم الوقوع.

(١) تفسير البيان: ص ٣٥، ٣٦.

كيفية دلالة المعجزة على الصدق:

النقطة الثالثة: في كيف دلالة المعجزة على صدق دعوى النبي.

ويوجد تقريبات:

التقريب الأول: يتكون من مقدمتين:

المقدمة الأولى: نحن ندرك أن هناك أفعالاً قبيحة لا تصدر من الله تبارك وتعالى، كالظلم، والكذب، وتأييد الكاذب، وغش الناس وإيقاعهم في الخديعة، فهذه الأفعال لا تليق بساحته تبارك وتعالى.

المقدمة الثانية: الباري تبارك وتعالى منذ أن خلق الكون - قبل تقريباً: (١٣.٧ مليار سنة) - إلى يوم الناس هذا جعله يسير وفق قانون دقيق محكم لا يتخلف، فالسنن الإلهية حاکمة على الكون بدقة، والواحد منا قد يعيش مئة سنة، ولا يرى في لحظة من الزمن انخرم قانون من قوانين الله تبارك وتعالى، فإذا جاء شخص وادّعى أنه نبي، ورأينا الله تبارك وتعالى خرق هذا القانون لأجله، سوف نقول: خرّقه للقانون وإجراء الفعل الخارق للعادة على يد هذا المدعي يدل عند عامة الناس على التأييد، وسيجعل عامة الناس يصدقون المدعي، ويعتقدون بأنه نبي، فلا بد أن يكون المدعي صادقاً، وإلا يلزم أن يكون الله تبارك وتعالى غش عامة الناس، وغرر بهم، وأوقعهم في تصديق الرجل الكاذب، والغش والتغريير لا يصدر من الله تبارك وتعالى.

وهذا التقريب الأول يعتمد على مدركات العقل العملي، ويريد إثبات

الصدق بتوسيط الزوم التركي، فلأنه يلزم أن يترك الباري تبارك وتعالى تأييده الكاذب، فإذا أيد شخصاً، فإن تأييده يكشف عن صدقه.

التقريب الثاني: لا نحتاج إلى قاعدة قبح تأييد الكاذب وقبح التغرير، فالعقل يدرك أن المعجزة هي في نفسها تدل على صدق من جاءت على يده، فإذا وجدنا أن الله تبارك وتعالى جعل الكون وفق قوانين، ولم يخرق هذه القوانين إلا عندما جاء شخص وادّعى النبوة، أو ادّعى الإمامة، أو ادّعى السفارة الخاصة، فنفس جريان الفعل الخارق للعادة يدل على الصدق من دون أن نوسط مدركات العقل العلمي وقبح الكذب أو قبح تأييد الكاذب وقبح التغرير.

فالمعجزة هي طريق علمي قطعي؛ لأنها تدل بذاتها، ولو كانت لا تدل بذاتها لم ينفع توظيف قبح تأييد الكاذب كما ذكر الشهيد الصدر رحمته الله، حيث قال: «إن دلالة المعجزة على النبوة يستحيل أن تتوقف على هذه المقدمة العقلية أعني قبح الكذب والتغرير؛ لأن المعجزة إن كانت بقطع النظر عن قبح الكذب والتغرير دالة على نبوة من جرت على يديه فهذا معناه عدم الحاجة في إثبات النبوة إلى مقدمة عقلية كهذه، وإن كانت لا تدل على ذلك إلا بضم هذه المقدمة العقلية أي إنها بقطع النظر عن كبرى قبح الكذب لا تدل على نبوة مدعيها فسوف لا تدل على ذلك حتى بعد الاعتراف بهذه الكبرى لأن كبرى قبح الكذب لا تحقق صغراها إذ لا بد من كذب وكشف عن النبوة ليقال

بقبحه والمفروض أنه لا دلالة ولا كشف لمجرد ظهور إعجاز على يد النبي .
والحاصل: إن توقف دلالة المعجزة على نبوة مدعيها على كبرى عقلية هي قبح الكذب وإظهار خلاف الواقع تغريراً للناس دوري لأن فعلية الكبرى المذكورة فرع فعلية الدلالة والكشف ليكون كذباً فيستحيل أن تكون فعلية الدلالة متوقفة على فعلية الكبرى. اللهم إلا أن يُقال: بأنه يكفي في موضوع الكبرى العقلية التغرير بحسب فهم العوام، وظهور المعجزة عند العوام له دلالة على النبوة في نفسه وهذه الدلالة وإن لم تكن عقلية وبرهانية وتامة بالدقة ولكنها بضمها إلى الكبرى العقلية يتشكل دليل فني على النبوة»^(١).

وكما ذكر الشهيد الصدر رحمته الله فإن لمعجزة القرآن خصوصية بأنها من الله، وهي أخبار عنه.

التقريب الثالث: بالإمكان استبدال قضية قبح الكذب والتغرير إلى قضية عقلية نظرية هي منقصة الكذب، وهي منفية عن الواجب سبحانه وتعالى على حد نفي العجز عنه، وبهذا يمكن لمن ينكر خصوص العقل العملي أن يعتمد على هذه المقدمة لإثبات النبوة، ويبقى بعد ذلك البحث عن كيفية تحويل القضية العملية إلى قضية نظرية، وهو خارج عن هذا البحث^(٢).

التقريب الرابع: تطبيق حساب الاحتمال، ببيان أن خرق النواميس لهذا

(١) بحوث في علم الأصول: ج ٤ ص ١٣٦.

(٢) المصدر السابق

المدّعي دون سواه لا يحتمل فيه إلا التأييد.

القرآن الكريم فوق الشبهات:

ونتحدث هنا حول القرآن الكريم بنحو مختصر ضمن نقاط ثلاث:

النقطة الأولى: ما هو المقصود بإعجاز القرآن الكريم؟

المقصود هو: إن القرآن الكريم كلامٌ خارقٌ للعادة لا يمكن أن يأتي أحدٌ بمثله إلا إذا كان مؤيداً ومسدداً من الله تبارك وتعالى، وقد تحدى رسول الله ﷺ بلغاء العرب على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فلم يستطيعوا، يقول تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(١)، فحتى لو ساعد بعضهم بعضاً وعضد بعضهم بعضاً لا يتمكنون.

وإعجاز القرآن يتجلى ويتجسد في أمور ثلاثة:

الأمر الأول: هو أسلوب القرآن في تركيب الكلمات والجمل مع معاني القرآن، وما تحويه هذه الجمل من مطالب دقيقة بليغة تتناسب مع مقتضى الحال.

فمسيّلة الكذاب تصور أن إعجاز القرآن الكريم يتمثل في أسلوبه وفي كيفية تركيب الكلمات والجمل، فأراد أن يعارض سورة القارعة فجاء بسورة

(١) سورة الأسراء: آية ٨٨.

أسمائها بـ: (الفيل) (الفيل وما أدراك ما الفيل له ذيل وبيل وخرطومٌ طويل)، وهو:

أولاً: لم يُعارض القرآن في الأسلوب، وإنما هو سار على طريقة القرآن حيث رفع بعض الكلمات ووضع كلمات أخرى، وفرق بين أن تعارض القرآن، وبين أن تسير على نهج القرآن.

وثانياً: جاء بكلام معناه هابط جداً لا يتطابق مع حال العرب الذين خاطبهم بسورة الفيل، فماذا يستفيد العرب من وجود خرطوم أو ذنب للفيل، وما كسبهم من ذلك؟!

وهذا بخلاف مضمون سورة القارعة، فهذه السورة تتحدث عن مصير الإنسان في النشأة الأخرى، وعن يوم القيامة، وعن الدار الخالدة التي يكون الإنسان فيها إما ثقیل الموازين وإما خفيفها ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ، وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَتْ، نَارٌ حَامِيَةٌ﴾^(١)، فهذا المعنى يرتبط بمصير الإنسان، ويحتاج الإنسان إلى معرفته حاجة ماسة، فالفرق كبير بين هذا المضمون وذاك المضمون، والقرآن معجز لأنه جاء بطريقة جديدة حديثة لم تكن مسبقة، وهذه الطريقة بليغة تتناسب مع مقتضى حال الإنسان، و- أيضاً - مضمونها مضمون عالٍ، وحتى يتضح وجه بلاغة القرآن أذكر مثلاً، وهو الآية رقم (٤٤) من سورة هود التي لما

(١) سورة القارعة: آية ٦، ٧، ٨.

نزلت أنزل العرب المعلقات من جدار الكعبة - كما قيل - أو ينبغي عليهم فعل ذلك، فقد قال تعالى: ﴿قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيَضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فهذه الآية فيها وجوه بلاغية عجيبة جداً حتى قُدمت فيها دراسات ورسائل مستقلة، ففيها نكات بيانية كثيرة، ونذكر بعض هذه النكات:

النكتة الأولى: إن هذه الآية في مقام بيان عظمة الله تبارك وتعالى، وخضوع الكائنات، وسرعة استجابة الكائنات لأمره، وقد بينت هذه المعاني بألفاظ جزلة قليلة واضحة جلية لا غموض فيها.

يقول الشاعر:

الصمت أليق بالفتى من منطق في غير حينه

لا خير في حشو الكلام إذا اهتديت إلى عيونه

ويقول آخر:

خير الكلام قليل على كثير دليل

وفي المثل: (خير الكلام ما قل ودل)، فهذا ما تقتضيه البلاغة، وهذه الآية استخدمت الفعل المبني للمجهول فلم تقل: (وقال الله يا أرض) وإنما قالت: ﴿وقيل يا أرض﴾، فلم تستخدم لفظ الجلالة، وبهذا قللت الألفاظ، ولكنها دلت على أن القائل هو الله تبارك وتعالى من خلال بيان المأمور وسرعة استجابة المأمور ﴿وقيل يا أرض ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾، وتقول الآية:

﴿وَغِيَضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾، فمن الذي يأمر السموات والأرض، فتجيب
السموات والأرض بسرعة؟

الجواب: الله تبارك وتعالى.

إذن، هي لم تذكر لفظ الجلالة فاختصرت، لكنها عوضت عن عدم هذا
الذكر لمناسبة الحديث عن سرعة أخذ الله تعالى.

النكتة الثانية: الآية لم تقل: (يا أيها الأرض) فلم تستخدم (هاء) التنبيه في
أداة النداء لبيان أن السموات والأرض في أعلى مراتب الجهوزية لله تبارك
وتعالى، فهي مهياة للاستجابة لأمره، ولا تحتاج إلى تنبيه، ثم الآية لم تقل:
(فقال السموات والأرض نستجيب) أو (واستجابت السموات
والأرض)، بل بينت سرعة الاستجابة بذكر النتيجة ﴿وَغِيَضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ
الْأَمْرُ﴾، ولم تدخل الآية في تفاصيل ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾، فلم تقل: الكافر هلك
والمؤمن نجا، وإنما اختزلت كل هذا في جملة ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾.

النكتة الثالثة: الآية قالت في ذيلها: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ولم تقل
(بعداً للهاالكين)؛ لأن هذه الجملة لا تُبين المعنى الذي تبينه ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ﴾، فهذه الجملة تُبين تحقق الهلاك والبُعد والطرْد والإبعاد عن رحمة
الله تبارك وتعالى، وتُبين علة وسبب ذلك، وهو الظلم.

فهذه وغيرها نكات بلاغية أوصلها البعض إلى أكثر من (٢٦) نكتة
بلاغية في هذه الآية المباركة، فالمعارضة ليست أن تأتي بكلمات لا يألّفها الناس

أو ترتب كلمات تعطي معنى جميلاً، وإنما أن يكون عندك قدرة على الإتيان بمعانٍ دقيقة بأسلوب وجيز يتطابق مع مقتضى الحال، وكلما تأمل فيه المرء يكتشف معرفة، ويستنتج علماً.

وفي سنة ١٩١٢م طبعت المكتبة الإنجليزية كتاباً بعنوان: (حسن الإيجاز في إبطال الإعجاز)، وشُحن بالشبهات حول القرآن الكريم، والمرحوم السيد الخوئي رحمته الله قبل ستين سنة - تقريباً - رد بكتيب صغير بعنوان: (نفحات الإعجاز)، فأصحاب كتاب: (حسن الإيجاز في إبطال الإعجاز) أرادوا أن يُعارضوا القرآن الكريم فذكروا جملة من العبارات على أنها معارضة لبعض آيات القرآن الكريم، ومن ضمنها جمل جعلوها معارضة لسورة الفاتحة، والسيد الخوئي رحمته الله تعرض لها^(١)، وأذكر مثالين فقط:

المثال الأول: القرآن الكريم يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وحسن الإيجاز جاء بجملة: (الحمد للرحمن رب الأكوان) وقال صاحب كتاب: (حسن الإيجاز) لا فرق بين هذه الجملة، وبين آية سورة الفاتحة.

والسيد الخوئي رحمته الله قال: الفرق كبير جداً بين آية سورة الفاتحة وبين هذه الجملة، فسورة الفاتحة تقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ولفظ الله اسم للذات الجامعة لجميع الصفات، أي الحمد لله من جهة أنه رحيم، ومن جهة أنه عطوف ومن جهة أنه ودود، و- أيضاً - من جهة أنه معذب ومنتقم وشديد العقاب، فهو لا

(١) نفحات الإعجاز: ص ٢٤.

يفعل إلا الحسن سواء كان إنعاماً أو كان إيلاًماً، ثم إن الآية الكريمة قالت: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ولفظ العالمين يدل على أن الموجودات أنواع، وتوجد عوالم، فهناك عالم كثيف، وعالم لطيف، وهناك عالم مادي وعالم مجرد - حسب تعبير الفلاسفة -، وهذا لا تفي ببيانه جملة (الحمد للرحمن رب الأكوان)، ففرق كبير بين هذا المعنى، وبين ذاك المعنى.

المثال الثاني: قالت سورة الفاتحة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وكتاب حسن الإيجاز جاء بجملة: (الملك الديان لك العبادة وبك المستعان).

والسيد الخوئي رحمته الله قال: إن أصحاب حسن الإيجاز لم يفهموا معنى آية سورة الفاتحة، فسورة الفاتحة لا تُبين أن الله تبارك وتعالى ديّان، وسوف يحاسب فقط، بل تُبين علاوة على ذلك أن الله تبارك وتعالى ديّان في يوم خاص، وتقرر العبد على الاعتراف بذلك اليوم الخاص، وهو يوم القيامة.

أما (الملك الديان) فغاية ما تدل عليه أنه مجازي، لكن أين؟ هل في الدنيا أو حال الموت أو في القبر أو يوم القيامة؟ فهذا مما لا تتكفل هذه الجملة ببيانه، بخلاف القرآن الكريم في قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

و- أيضاً - جملة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لا تدل فقط على حصر العبادة والاستعانة بالله تبارك وتعالى، بل فيها علاوة على ذلك تقرير للعبد واعتراف بأنه هو - أيضاً - يحصر العبادة في الله تبارك وتعالى ويحصر الاستعانة

في الله تعالى، وهذا لا تدل عليه جملة (لك العباداة وبك المستعان)، فإنها تدل على أن لله العباداة وبه المستعان، ولكن ماذا يصنع العبد عملاً؟ هل يلتزم بذلك أم لا؟ هل يقر بذلك أم لا؟

فالفرق كبير بين معنى القرآن، وبين معنى هذه الجملة الهزيلة والريكية. وهذا مضافاً إلى أن هذه الجملة تحاول أن تسير على نهج القرآن الكريم، فهي لا تعارض القرآن الكريم، وإنما تحاول أن تحاكي القرآن الكريم، ولكن بطريقة هزيلة.

الأمر الثاني: إن القرآن الكريم أخبر بالمغيبات وبالحقائق العلمية التي لم تكن مكتشفة في زمان نزوله، فالقرآن - مثلاً - تحدث عن كروية أو انحناء الأرض ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾^(١) وكروية الأرض اكتشفت في العصور المتأخرة بعد نزول القرآن بمئات السنين، والنبى الأكرم ﷺ لم يُعرف عنه أنه تعلم في معهد علمي، ولم يحضر عند أستاذ، فمن أين جاء بهذه العلوم؟ لا بد أن يكون مؤيداً ومسدداً من قبل الله تبارك وتعالى.

الأمر الثالث: إن النبى ﷺ في هذا الكتاب العظيم جاء بنظام معرفي متقن ومحكم، فيوجد فيه نظام معرفي نظري، فإن القرآن الكريم بين رؤية كونية، فقد قسم الوجود إلى غني وفقير ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ

(١) سورة المعارج: آية ٤٠.

الْغَنِيِّ الْحَمِيدُ^(١) وَبَيَّنَ مَا هِيَ عِلَاقَةُ الْمَخْلُوقِ مَعَ الْخَالِقِ، وَهِيَ عِلَاقَةُ فَقْرٍ وَاحْتِيَاجٍ، وَبَيَّنَ أَنَّ الْغَنِيَّ مَهِيْمَنَ عَلَى جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ الْفَقِيرَةِ، وَهِيَ لَا تَسْتَقِلُّ عَنْهُ فِي شَيْءٍ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٢)، كَمَا بَيَّنَّ أَنَّ الْمَوْجُودَ الْفَقِيرَ لَيْسَ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ، فَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى أَمْرٍ وَخَلْقٍ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣)، وَبَيَّنَّ أَنَّ الْخَلْقَ مَرَاتِبٌ وَدَرَجَاتٍ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(٤)، وَ- أَيْضًا - بَيَّنَّ لَنَا نِظَامًا عَمَلِيًّا، فَقَدْ جَاءَ بِنِظَامٍ حَقُوقِي، فَحَدَّدَ الْحَقُوقَ، وَمَا هُوَ حَقُّ الْخَالِقِ وَحَقُّ الْخَلْقِ؟ وَكَيْفَ تَدَارُ الْحَقُوقُ بَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ؟

وَجَاءَ بِأَحْكَامٍ عَمَلِيَّةٍ تَنْظِمُ عِلَاقَةَ الْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ وَعِلَاقَةَ النَّاسِ فِيهَا بَيْنَهُمْ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْمَعَامَلَاتِ، وَجَاءَ بِقَوَانِينٍ جَزَائِيَّةٍ، فَحَدَّدَ عَقُوبَاتٍ مَعِينَةً عَلَى مَخَالَفَةِ الْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةِ، وَهَذَا النِّحْوُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ مَا كَانَ مَعْهُودًا فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَكَيْفَ اسْتَطَاعَ شَخْصٌ لَمْ يَمَارَسِ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ، وَلَمْ يَذْهَبْ عِنْدَ مُعَلِّمٍ، وَلَيْسَتْ لَهُ مِشَارَكَاتٌ أَدَبِيَّةٌ مَعَ الشُّعْرَاءِ، وَكَانَ يَعْمَلُ فِي التِّجَارَةِ وَالرَّعْيِ أَنْ يَأْتِيَ بِكُلِّ هَذَا النِّظَامِ الْمَعْرِفِيِّ؟

(١) سورة فاطر: آية ١٥.

(٢) سورة فصلت: آية ٥٣.

(٣) سورة الأعراف: آية ٥٤.

(٤) سورة الطلاق: آية ١٢.

إن هذا يدل دلالة واضحة على أنه مؤيد من قبل الله تبارك وتعالى، خصوصاً إذا أضفنا قرائن النبوة التي سوف يأتي الحديث عنها.

لقد حاول بعض المستشرقين أن يبحث عن رجل يكون معلماً لرسول الله ﷺ، ومنهم المستشرق تيودور نولدكه (بالألمانية: *Theodor Nöldeke*)، فقد - كتب في ذلك، وعادة يعتمد هؤلاء على شخصية ورقة بن نوفل، ولكن لا توجد رواية معتبرة تثبت وجود ورقة، فمن المحتمل جداً أنه شخصية أسطورية أو مبالغ فيها، ولو كان موجوداً، فمن أين له علم المستقبل ومعرفة حقائق الكون التي يجهلها كل الناس لفقد وسائل الرصد؟!

إذن، إعجاز القرآن في أسلوبه الحادث غير المسبوق بالمثل، وفي معانيه الدقيقة المطابقة لمقتضى الحال، وفي حقائقه العلمية التي لم تكتشف إلا بعد ذلك، ففي كل هذا يُشكل القرآن الكريم معجزة، ويُشكل شاهد صدق على نبوة نبينا ﷺ.

يقول العلامة الطباطبائي رحمه الله: «... فلو كان التحدي ببلاغة بيان القرآن وجزالة أسلوبه فقط لم يتعدَّ التحدي قوماً خاصاً، وهم العرب العرباء من الجاهليين والمخضرمين قبل اختلاط اللسان وفساده، وقد قرع بالآية أسمع الإنس والجن. وكذا غير البلاغة والجزالة من كل صفة خاصة اشتمل عليها القرآن كالمعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة والأحكام التشريعية والأخبار المغيبة ومعارف أخرى لم يكشف البشر حين النزول عن وجهها النقاب إلى غير

ذلك، كل واحد منها مما يعرفه بعض الثقلين دون جميعهم، فإطلاق التحدي على الثقلين ليس إلاّ في جميع ما يمكن فيه التفاضل في الصفات. فالقرآن آية للبليغ في بلاغته وفصاحته، وللحكيم في حكمته، وللعالم في علمه، وللاجتماعي في اجتماعه، وللمقننين في تقنينهم، وللسياسيين في سياستهم، وللحكام في حكومتهم، ولجميع العالمين فيما لا ينالونه جميعاً كالغيب والاختلاف في الحكم والعلم والبيان. ومن هنا يظهر أن القرآن يدعي عموم إعجازه من جميع الجهات من حيث كونه إعجازاً لكل فرد من الإنس والجن من عامة أو خاصة أو عالم أو جاهل أو رجل أو امرأة أو فاضل بارع في فضله أو مفضول إذا كان ذا لب يشعر بالقول»^(١).

كيف يكون القرآن دليلاً لغير العربي الفصيح؟

النقطة الثانية: يوجد سؤال متداول، وطرحه كتاب (حسن الإيجاز)، وأجاب عنه السيد الخوئي رحمته الله^(٢)، وهو:

إن القرآن الكريم كتاب عربي، وهو وفق اللغة العربية الفصيحة، وفي زماننا هذا لا يوجد عربي فصيح، والعرب الأقحاح انقرضوا والعرب الموجودون الآن اختلطت لغتهم بلغة غيرهم، فهم يجهلون الوجوه البلاغية والوجوه البيانية، فلا يدركونها كما يدركها العربي في ذلك الزمان، وبالتالي

(١) تفسير الميزان: ج ١ ص ٦٢.

(٢) نفحات الإعجاز: ١٠.

العرب في زماننا لا توجد عندهم إحاطة باللغة العربية، ولا يستطيعون أن يميزوا بين القرآن، وبين كلام العرب السابقين، فكيف يستطيعون أن يتعرفوا على تميز القرآن، وبالتالي على صدق النبي الأكرم ﷺ بواسطة القرآن؟ وهذا السؤال أوضح وأجلى بالنسبة إلى غير العرب، كالهندي والإنجليزي والفرنسي والهولندي، فهؤلاء أصلاً لا يعرفون اللغة العربية، فكيف يكون القرآن عليهم حجة، وبالقرآن يتمكنون من معرفة صدق دعوة النبي ﷺ مع أنهم يجهلون أسلوبه البياني؟

والسيد الخوئي رحمته الله أجاب عن هذا السؤال بجواب دقيق ذكي قال: يمكن للعربي غير الفصيح، ويمكن للهندي وغيره أن يتعرف على كون القرآن معجزاً فيما إذا نظر في الروايات المتواترة القطعية التي بينت عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، فإن العرب لما نزلت الآية (٤٤) من سورة هود أنزلوا المعلقات؛ لأنهم لم يجدوا في المعلقات بيتاً يداني هذه الآية، والوليد بن المغيرة اعترف بالعجز، فقد نقل المفسرون في تفسير ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا، سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا، إِنَّهُ فَكَرَّ وَقَدَّرَ، فُقْتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ، فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ، سَأُصْلِيهِ سَقَرَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ، لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ، لَوَاحِةٌ لِلْبَشَرِ، عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ ﴿١﴾﴾ أن الله تعالى لما أنزل على النبي ﷺ ﴿حَم تَنْزِيلُ

الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١﴾ إلى قوله: ﴿الْمَصِيرُ﴾^(١) قام النبي ﷺ في المسجد، والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته، فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه أعاد قراءة الآية، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم، فقال: [والله] لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلو، ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش: [سحره محمد] [صبأ والله الوليد، والله لتصبون قريش كلهم، وكان يقال للوليد: ريحانة قريش] فقال لهم أبو جهل: أنا أكفيكموه فانطلق فقعد إلى جنب الوليد حزينا، فقال له الوليد: مالي أراك حزينا يا بن أخي؟ قال: وما يمنعني أن لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك النفقة يعينونك على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد وتدخل على ابن أبي كبشة، وابن أبي قحافة، لتنال من فضل طعامهم فغضب الوليد، فقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالا وولداً، وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام فيكون لهم فضل من الطعام؟ ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه، فقال لهم: تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه يخنق قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من

الكذب؟ قالوا: لا - وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسمى الأمين قبل النبوة، من صدقه - فقالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكر في نفسه ثم نظر ثم عبس، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه وولده؟ فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر^(١).

فالواقع التاريخي يكشف عن تفوق القرآن الكريم، فالنبي ﷺ تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ثم خفض النبي ﷺ التحدي إلى عشر سور ولم يستطيعوا ثم خفض التحدي إلى سورة واحدة، كسورة العصر، ومع ذلك الجماعة لم يُعارضوا سورة من القرآن الكريم، وبدل ذلك سلكوا الطريق الصعب فدخلوا في حرب وقتال، وقتلت أبناؤهم، حتى هزموا وذلوا وأطلقهم رسول الله ﷺ كما يطلق العبد، فقال لهم: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)، ولو كان بإمكانهم أن يعارضوا القرآن، لو فروا على أنفسهم العناء وسفك الدم والقتل، ولكن ما استطاعوا حيث إن المعارضة ليست أمراً سهلاً يأتي فيها المعارض بجمل أو كلمات، فالمعارضة تعني أن يجلس الشخص أمام النبي ﷺ، ويعرض ما عنده ثم يُبين وجوه البلاغة في الموضوع الذي حدد، وأن كلامه أكثر بياناً وبلاغة من الآية المباركة، ويعترف له المنصفون من أهل البلاغة، وهذا ما عجزوا عن تقديمه؛ لأنهم يفتقرون إلى العلم والمعرفة، ويفتقرون إلى هذا المستوى الراقي في البيان.

(١) تفسير البغوي: ص ٥٧٥.

ويمكن أن نقرب هذا المعنى بمثال:

لو فرضنا أن شخصاً مزارعاً لم يذهب إلى مدرسة، ولا يوجد عنده أستاذ، وخرج في يوم من الأيام، وادعى أنه نبي وبعثه الله رسولاً، وقال: حجتي أي أتفوق على كل العلماء في علم الفيزياء، وبالفعل اجتمع العلماء بأجمعهم، فتفوق عليهم، وأثبت أنه يعلم ما عندهم، وصحح بعض نظرياتهم، وقبلوا منه، وأخبرهم بنظريات جديدة لم يتوصلوا إليها، فلا شك سوف نقطع بأنه صادق في دعواه؛ لأنه لم يدرس، ولم يذهب إلى مدرسة، فمن أين جاءه هذا العلم؟

فالعلم لا يأتي للشخص إلا عبر طرق متعارفة، وهذا المدعي المتفوق لم يخضع لهذه الطرق المتعارفة، فلا بد أن يكون وصله العلم بطريق غير متعارف، فهو خارق للعادة، فهو يملك شيئاً معجزاً لا يمكن لغيره أن يأتي به، ونحن مع أننا لسنا متخصصين في علم الفيزياء سوف نصدق بأنه نبي؛ لأننا رأينا المتخصص خضع له وعجز أمامه.

والأمر كذلك بالنسبة إلى القرآن الكريم، فنحن وإن كنا لا نتكلم اللغة العربية الفصيحة، ولكن إذا بلغنا أن الفصحاء والبلغاء، وأهل الشعر عجزوا أمام النبي ﷺ، والنبي ﷺ لم يكن تاريخه تاريخاً أدبياً سوف نقطع حينئذ أنه مؤيد من قبل الله تبارك وتعالى.

إشارات لا تصمد أمام الرد العلمي:

النقطة الثالثة: وهي في دفع بعض الشبهات التي أثرت حول القرآن الكريم.

وبحث الشبهات المثارة حول القرآن الكريم بحث واسع جداً، ونحن نذكر بعض الأمثلة، وينبغي الالتفات إلى المنهجية التي نناقش بها؛ لأن هذه المنهجية منهجية نافعة سعية واسعة مشتركة، يمكن أن تدفع بها كل الشبهات المثارة حول القرآن الكريم.

وتنقسم الشبهات إلى قسمين:

القسم الأول: الشبهات العلمية:

فالبعض يدعي أن في القرآن الكريم أخطاء علمية، مثلاً في القرآن الكريم ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾^(١)، والبعض يقول: إن النجم موجود كبير جداً، فالشمس نجم متوسط قطره أكبر من قطر الأرض ١٠٩ مرات تقريباً، وبعض النجوم تملأ ما بين الأرض والشمس، وبعض النجوم تملأ المجموعة الشمسية، فكيف يمكن أن يهوي هذا النجم الكبير في الأرض؟!

وسابقاً كان يُتصور أن النجم صغير كما يرى في السماء، فيمكن أن تقبل نظرية أن النجم يهوي على الأرض، ولكن الآن بعد انكشاف العلم اتضح لنا

(١) سورة النجم: آية ١.

أن النجم شيء لا يمكن أن يهوي في الأرض.

وهذه الشبهة ونظائرها توجد في جوابها قاعدة بينها الإمام العسكري عليه السلام^(١)، ففي زمان الإمام العسكري عليه السلام كان يوجد فيلسوف اسمه أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي، ويسمى بفيلسوف العرب، وهذا الفيلسوف اعتقد أن في القرآن تناقضاً، فاشتغل بتأليف كتاب في تناقضات القرآن الكريم، وفي يوم من الأيام دخل أحد تلامذة هذا الفيلسوف على الإمام العسكري عليه السلام، فقال له الإمام عليه السلام: (أما فيكم رجل رشيد يمنع الكندي عما أخذ به من تشاغله بكتاب الله)، قال التلميذ: نحن تلاميذ، والتلميذ لا يمكن أن يقف في وجه أستاذه، فقال له الإمام عليه السلام (أتؤدي إليه ما ألقيه عليك) هل أعطيك جملة تذهب بها إليه، قال: نعم، فقال الإمام عليه السلام: (اذهب إليه وتلطف في مؤانسته ثم قل له: إذا جاءك هذا المتكلم بهذا القرآن هل يمكن أن يكون مراده من كلامه الذي تكلم به غير المعاني الذي ظنتها وذهب إليها)، ألا تحتمل أن يقول لك المتكلم بالقرآن: أقصد من هذه الآية غير المعنى الذي أنت توهمته، واعتقدت أنه متناقض، هل تحتمل ذلك أم لا؟

قال الإمام: سيقول لك: (هذا جائز لأنه رجل إذا سمع يفهم) فهو رجل عنده علم ومعرفة، وسوف يُقر لك بجواز ذلك، وبالفعل ذهب التلميذ إلى الكندي، وأسمعه كلمة الإمام عليه السلام، فقال: أعد، فأعاد، فقال: له أقسم عليك

(١) بحار الأنوار: ج ١٠ ص ٣٩٢.

من أين لك هذا؟ قال: شيء عرض عليّ، قال: ما مثلك يهتدي إلى مثل هذا، قال أمرني أبو محمد العسكري عليه السلام قال: الآن جئت مثل هذا لا يخرج إلا من هذا البيت، وأخذ كتابه وحرقه.

فهنا الإمام العسكري عليه السلام قال للكندي: إذا كان المعنى صريحاً لا يحتمل أي معنى آخر في الآية، فبإمكانك أن تسجل على الآية إشكال التناقض، وأما إذا كان في الآية أكثر من احتمال، فترجيحك لاحتمال، ثم إثارة إشكال على ذلك الاحتمال، ثم دعوى أن في القرآن تناقض ليس طريقة صحيحة في البحث العلمي؛ لأن التناقض قد يكون في ذهنك، وفي فهمك للآية، وليس في الآية المباركة نفسها.

وهذا الكلام ينطبق على جميع الآيات التي قيل فيها بوجود خطأ علمي، كما في ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، فإننا أولاً نسأل: ماذا يقصد القرآن من النجم؟ فإن المشكل حمل (النجم) على المعنى الحادث، والمعنى الاصطلاحي المعاصر، وأخذ يشرق ويغرب، بينهما المقصود هنا بـ: (النجم) هو المعنى اللغوي، وهو كل جرم يلمع في السماء سواء كان نجماً بالمعنى الاصطلاحي، أو لم يكن، وهناك أجرام صغيرة في السماء نتعلل أنها تهوي في الأرض، وذكر وجود نجوم نيوترونية لا يتجاوز قطر بعضها ٢٠ كيلومتراً.

ثم القرآن لم يقول: هوى في الأرض^(١)، من أين جاء المشكل بعبارة (في

(١) وفرق كبير بين هذه الآية وبين عبارة كتاب المسيحيين: «النجوم سقطت من السماء إلى الأرض،

الأرض)؟ ولم يحدد القرآن معنى الهوي، هل الهوي بمعنى السقوط؟ أو الهوي بمعنى الاندثار؟، ولنفرض أن الاندثار معنى مجازي لكلمة الهوي، لكن المجاز استعمال صحيح في اللغة، ويحتمل إرادته من اللفظ.

إذن، المشكل لم يورد إشكالاً على الآية المباركة، وإنما أورد إشكالاً على فهمه للآية المباركة، ونحن نقول: لأن القرآن الكريم صادر من معصوم لا يوجد فيه خطأ علمي. نعم، إذا كان ظاهره يتنافى مع حقيقة علمية جزماً، وليس احتمالاً أو لاحتمال علمي تكون الحقيقة العلمية قرينة على أن الله تبارك وتعالى لا يريد الظاهر، ولا نقول: القرآن اشتمل على خطأ، فهكذا ينبغي أن يفكر الإنسان في عملية تفسير القرآن، وهذا هو المنهج العلمي الصحيح.

القسم الثاني من الشبهات: هي الشبهات اللغوية.

فإنه من الشبهات الواهية جداً: دعوى أن في القرآن أخطاء لغوية، ونذكر مثلاً:

من القواعد النحوية أن (إن) إذا دخلت على المبتدأ والخبر تنصب المبتدأ وترفع الخبر، مثل جملة: (زيدٌ عالم)، فإنها إذا أدخلت عليها (إن) نقول: (إن زيداً عالم)، وأيضاً من القواعد النحوية أن المعطوف حكمه حكم المعطوف

كأنها طرح شجرة تين هزتها ريح عظيمة»، كما سوف نذكر؛ لأن الآية تتحدث عن نجم واحد ولا تذكر هويه إلى الأرض، بخلاف هذه العبارة التي فيها جمع محلي، وتتحدث عن سقوط الكل إلى الأرض.

عليه، فإذا قلت: (أن زيداً) ثم عطفت غيره عليه، فسيكون المعطوف على اسم إن منصوباً، وبعض المستشرقين زعم أن القرآن وقع في خطأ؛ لأنه خالف هذه القاعدة النحوية في الآية (٦٩) من سورة المائدة ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فالصابئون معطوف على الذين آمنوا، والذين آمنوا منصوبة بـ: (إن) فحقها أن يُقال: (والصابئين)، ولكن خطأ القرآن، فقال: (والصابئون).

و في مقام التعليق على هذه الشبهة أذكر تعليقين، وبهذين التعليقين يتضح الجواب على جميع الموارد التي ادعي أن القرآن أخطأ فيها مثل: ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ﴾^(١)، أو ﴿لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٢).

التعليق الأول: إن القواعد النحوية لم تكن موجودة عند العرب، فالعرب ما كانوا يعرفون هذه القواعد، فقد كانوا يتكلمون اللغة العربية بسجيّتهم، وهذه القواعد جعلها النحاة فيما بعد، والنحاة في جعلهم لهذا القواعد استندوا إلى كلام العرب الفصيح، فهم ينظرون كيف يتكلم العربي الفصيح، ثم

(١) سورة طه: آية ٦٣.

(٢) سورة النساء: آية ١٦٢.

يضعون القواعد النحوية، وأوثق نص عربي اعتني به من المتواترات طراً القرآن الكريم، فالقرآن الكريم حجة في القواعد النحوية، فهو الذي يُحْكَم على القواعد النحوية لا القواعد النحوية تحكم عليه، كي يقال: إن فيه خطأ استناداً إلى القواعد النحوية، فسيبويه إذا أراد أن يضع قاعدة يقرأ القرآن، فيلاحظ كيف تكلم القرآن، ثم يضع القاعدة، فكيف نُحاكم القرآن بقواعد سيبويه!

وكون القرآن هو الأصل في اللغة العربية أمر واضح لا يقبل الشك، كما أن تأثير القرآن فيها لا يقبل الشك، يقول بروكلمان: «بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعاً مؤمنون بأن اللغة العربية هي وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلواتهم، وبهذا اكتسبت اللغة العربية منذ زمان طويل رفاعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى التي تنطلق بها شعوب إسلامية»، ويقول جورج سارنوت: «ولغة القرآن على اعتبار أنها لغة العرب كانت بهذا التجديد كاملة، وقد وهبها الرسول مرونة جعلتها قادرة على أن تدون الوحي الإلهي أحسن تدوين بجميع دقائق معانيه ولغاته، وأن يعبر عنه بعبارات عليها طلاوة وفيها متانة، وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد»^(١).

(١) اللغة العربية بين مُقاتها وخصومها، أنور الجندي (ط. مطبعة الرسالة، بيروت).

ويقول المستشرق بلاشير (بالفرنسية: *Régis Blachère*): «لا جرم في أنه إذا كان ثمة شيء تعجز الترجمة عن أدائه فإنما هو الإعجاز البياني واللفظي والجرس الإيقاعي في الآيات المنزلة في ذلك العهد.. إن خصوم محمد [عليه الصلاة والسلام] قد أخطأوا عندما لم يشاءوا أن يروا في هذا إلا أغاني سحرية وتعويذية، وبالرغم من أننا على علم - استقراءياً فقط - بتنبؤات الكهان، فمن الجائز لنا الاعتقاد مع ذلك بخطر هذا الحكم وتهافته، فإن للآيات التي أعاد الرسول ﷺ ذكرها في هذه السور اندفاعاً وألقاً وجلالة تخلف وراءها بعيداً أقوال فصحاء البشر كما يمكن استحضارها من خلال النصوص الموضوعية التي وصلتنا... إن القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعليمه فقط، إنه أيضاً ويمكنه أن يكون قبل أي شيء آخر تحفة أدبية رائعة تسمو على جميع ما أقرته الإنسانية وبجلته من التحف...»^(١).

ويقول حنا فاخوري: «كان للقرآن الكريم أثر كبير في العالم الأدبي والعلمي، وقد وحد اللغة العربية وحفظها ووسع نطاقها، وعمل على تليينها وتهذيبها، ثم إنه كان أساس العلوم اللغوية والبيانية عند العرب، وهو أبداً المثال الأعلى في البلاغة والفصاحة»^(٢).

فالقرآن هو الحافظ للغة العربية ولولا القرآن لضاعت باعتراف غير

(١) تاريخ الأدب العربي: ج ٢ ص ٣١.

(٢) الجامع في تاريخ الأدب: ص ٣٣٣.

المسلمين، فكيف يُحاسب القرآن بهذه القواعد المستفادة منه؟

التعليق الثاني: صاحب هذه الشبهة يجهل القواعد النحوية، ويريد بجهله أن يحاكم القرآن الكريم، فهو يتصور أن الواو في اللغة العربية فقط تأتي عاطفة لهذا قال: إن (الصائبون) كلمة معطوفة على الذين آمنوا، وحقها أن تكون منصوبة، مع أن الواو في اللغة قد يكون للعطف، وقد يكون للاستئناف، فهذا ضابئ بن الحارث يقول:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيارٌ بها الغريبُ

فلم ينصب (قيار)، وإنما رفعه؛ لأن الواو هنا ليست عاطفة، وإنما استئنافية، فإن العربي قد يأتي بواو الاستئناف، ويُغير الإعراب حتى يُلفت نظر المخاطب ويدفع الشك فيما إذا وجد، فكأنه هناك شك في أن قياراً غريب، فقال الشاعر: (فإني وقيارٌ كذلك لغريبُ)

الأمر كذلك في الآية المباركة، فإن الآية تقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ﴾، والمقصود كذلك، فكأنه هنالك شك هل الصائبون أهل كتاب، ومن أتباع الديانة السماوية، فإذا آمنوا وعملوا صالحاً يترتب عليهم الثواب؟

والقرآن أراد أن يقطع هذا الشك فقال: (والصائبون كذلك)، أي حكمهم حكم الذين آمنوا، وحكمهم حكم الذين هادوا، فهذا من بلاغة القرآن، إلا أن الجاهل يظن أنه خطأ.

تساؤلات حول المعجزة:

وتوجد جملة من التساؤلات المثارة حول طريق المعجزة، وسوف نُجيب على بعضها:

من هو الفاعل المباشر؟

التساؤل الأول: هل المعجزة فعل مباشرة لله تبارك وتعالى، أم هي فعل مباشر للنبي بإقدار من الله تبارك وتعالى؟
وبعبارة أخرى: إذا ألقى نبيٌ عصاً وتحولت إلى ثعبان، فهل التحويل فعل مباشر لله، فعله بعد دعوى النبي أو بعد دعوته ودعائه، ووظيفة النبي أن يدعو، والباري تبارك وتعالى يستجيب، فيحول العصا إلى ثعبان؟ أم أن الله تبارك وتعالى أقدر النبي بأن جعل نفسه نفساً خاصة مصطفاة وأعطاه قدرة خاصة، وبإمكانها بها أن تأتي بالأفعال الخارقة للعادة، فتكون المعجزة فعلاً للنبي مباشرة، ولكن بإقدار الله تبارك وتعالى؟

في مقام الجواب على هذا السؤال، ذكرت نظريتان:

النظرية الأولى: المعاجز أفعال مباشرة لله تبارك وتعالى مباشرة، وليس للنبي دخل في تحقيقها، فالنبي فقط يدعو الله تبارك وتعالى، والله تعالى يستجيب، وأصحاب هذه النظرية استدلوا بجملة من الآيات، منها: ﴿قُلْنَا يَا

نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١﴾، فهنا البارئ تبارك وتعالى هو الذي أمر النار، ومنها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴿٢﴾﴾، ومنها: ﴿قَالَ الْقَهَا يَا مُوسَىٰ، فَالْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٣﴾﴾، فالعمل الذي قام به نبي الله موسى ﷺ هو أنه ألقى العصا، وانتهى دوره، والبارئ تبارك وتعالى هو الذي حوّلها، ومنها: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٤﴾﴾، فالذي يرسل الآيات هو الله، وهو الذي أتى بالناقة بالآية، فالمعجز أفعال خارقة للعادة يفعلها الله مباشرة.

النظرية الثانية: ترى أن النبي هو الذي يفعل المعجزة مباشرة بإقدار الله تبارك وتعالى، فالله يُعطيهِ قدرة أو ما يسمى بـ: (الولاية التكوينية)، ثم هو يفعل الفعل الخارق للعادة، وأصحاب هذه النظرية - أيضاً - استدلوا بآيات من القرآن الكريم، منها: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿٥﴾﴾، فالرسول هو الذي يأتي بالآية في هذه الآية، ومنها: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ

(١) سورة الأنبياء: آية ٦٩.

(٢) سورة الإسراء: آية ١٠١.

(٣) سورة طه: آية ١٩-٢٠.

(٤) سورة الإسراء: آية ٥٩.

(٥) سورة الرعد: آية ٣٨.

فَيَكُونُ طَيْرًا يَأْذَنُ اللَّهُ وَأُتْرَى الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾، فإن هذه الآية تثبت أن نبي الله عيسى عليه السلام هو الذي يخلق من الطين، وهو الذي يُبرئ الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى، وهو الذي يُخبر بالمغيبات، ولكن بإذن الله أي بإقدار من الله تبارك وتعالى.

الصحيح: لا يمكن أن يُعرف من الفاعل مباشرة إلا بإخبار الله تبارك وتعالى أو إخبار المعصومين عليهم السلام، ولا يوجد في النصوص الدينية المعتبرة في مثل هذه المسألة المعرفية دليل مطلق أو عام يدل على أن كل المعاجز فعل مباشر لله، أو للأنبياء. نعم، يوجد نصوص تُثبت على نحو الموجبة الجزئية، فهناك نصوص تُثبت أن بعض المعاجز من الله مباشرة، ونصوص تُثبت أن بعض المعاجز من الأنبياء مباشرة، وغاية ما تدل عليه هذه النصوص هو إجابة التساؤل المطروح في موارد خاصة، وأما الكلية فهي بالنسبة إلينا مجهولة، بل نعلم بعدم صحتها؛ لأن النصوص منقسمة إلى قسمين، فبعض النصوص تثبت أن بعض المعاجز من الله مباشرة، وبعض النصوص تُثبت أن بعض المعاجز من الأنبياء مباشرة، فلا يمكن أن نقول: الكل من الله مباشرة، كما لا يمكن أن نقول: الكل من الأنبياء، ففي مورد النص إذا أفادت علماً أو اطمئناناً ثبت، وأما ما عداه، فنقول: لا نعلم.

والنتيجة: بعض المعاجز فعل للأنبياء مباشرة، والبعض فعل من الله تبارك وتعالى مباشرة، كما في القرآن الكريم فإنه أفضل معجزات النبي الأكرم ﷺ، وهو فعل الله عز وجل، ولا دخل للنبي في صناعة القرآن، يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(١)، ويقول عز وجل: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾^(٢)، فالنبي تابع في تلاوته لله تبارك وتعالى.

هل المعجزة باطلة لمخالفة للقانون الحتمي؟

التساؤل الثاني: وهو الذي طرحه الفيلسوف الهولندي الباروخ اسبنوزا (بالهولندية: *Baruch Spinoza*) في كتابه: (في اللاهوت والسياسة)^(٣)، فاسبنوزا يدعي: أن عالم الطبيعة الذي نعيش فيه قائم على سنن حتمية لا يمكن أن تتخلف؛ لأنها تطبيقات لقانون العلية وقانون السببية، وهذا القانون حتمي لا يمكن أن يتخلف، فإذا وجدت نار، وألقينا فيها ورقة، ولا يوجد مانع من احتراق الورقة فلا بد وفقاً لقانون السببية من احتراق الورقة، ويستحيل التفكيك بين النار وبين الاحتراق، أو بين النار وبين أثرها، وأي عملية عبث في قانون السببية يلزم منه انهيار جميع المعارف البشرية، فلا يمكن أن نضع حجراً على حجر في بناء المعرفة الإنسانية، ويلزم أن يكون الكون

(١) سورة القدر: آية ١.

(٢) سورة القيامة: آية ١٧-١٨.

(٣) ص ١٢١-١٢٢.

معيباً، وأن تكون سلطة الله ضعيفة، فإذا كانت السنن الحاكمة سنن حتمية، لا يمكن أن نقبل أن شخصاً يلقي في النار ولا يحترق، فإن هذا من التفكيك بين السبب وبين المسبب.

وبعض الباحثين الإسلاميين تأثر بهذا الكلام، فالشاهد مطهري رحمته الله نقل عن أحمد خان الهندي^(١) أنه ذهب إلى أن الكون يسير وفق سنن إلهية حتمية ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^(٢)، فإذا كانت القوانين والسنن حتمية لا تتبدل ولا تتحول، فلا يمكن أن نؤمن بخرق السنن الجارية، أي لا يمكن أن نؤمن بتحقيق المعاجز بطريقة خارقة، وعليه لا بد من التأويل، فنأتي عند كل آية أو رواية تنسب الفعل الخارق للعادة إلى أحد من الأنبياء فنؤولها، ونحاول أن نُفسرها بتفسير طبيعي يتلاءم مع قانون عالم المادة.

والمسلمون في مقام الجواب على هذا التساؤل ذكروا ثلاث إجابات:

الإجابة الأولى: - التي ذكرها الأشاعرة - فالأشاعرة قالوا: لا يوجد في عالم الطبيعة أسباب ولا مسببات، وأنكروا قانون السببية، فالنار ليست سبباً للإحراق، وشرب الماء ليس سبباً للارتواء، وتناول الدواء ليس سبباً للشفاء.

وإذا سألت: ما الذي يجري في عالم الطبيعة؟

(١) النبوة: ص ١٧٨.

(٢) سورة فاطر: آية ٤٣.

أجابوا: إن الله تبارك وتعالى يفعل كل هذه الأمور مباشرة، إما على نحو التقارن أو على نحو التعاقب، فإذا ألقينا ورقة في النار، واحترقت، ففي الحقيقة الباري تبارك وتعالى خلق النار مباشرة، وكذلك خلق إلقاء الورقة والاحتراق، فلا يوجد ترابط بين وجود النار وإلقاء الورقة وبين الاحتراق؛ وبهذا أراحوا أنفسهم من مشكلة خرق القوانين الطبيعية الحتمية، فقالوا: لا وجود لها حتى نسأل عن خرقها.

وهذا الجواب أشكل عليه بإشكالين:

الإشكال الأول: إنه - مع مخالفته للعقل والوجدان - يتنافى مع النصوص الدينية التي يعتقد بحجتها الأشاعرة، فالقرآن الكريم يثبت علاقة السببية بين الموجودات في عالم الطبيعة، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾^(١)، فالرياح سبب أسباب عالم الطبيعة، وتساهم في علمية التلقيح، ويقول تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، فهذه الآية لم تقل أنزل من السماء ماءً، فأخرج من الثمرات رزقاً لكم، وإنما قال ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾، فهي تخبر عن أن الماء سبب لخروج الثمرات من الأرض، فهذه

(١) سورة الحجر: آية ٢٢.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٢.

النظرية تتنافى حتى مع النصوص الدينية التي يؤمن بها الأشاعرة.

الإشكال الثاني: قيل لهم: إن هذا الجواب يعالج المشكلة من جهة، وهي جهة منافية المعجزة والفعل الخارق للعادة لقوانين الطبيعة الحتمية التي لا تبدل ولا تتخلف، إلا أنه أوقعكم في مشكلة من جهة أخرى، وهي أنه إذا كان الفعل المعجز فعلاً مباشراً لله يُحدثه مباشرة من دون أن يخرق نظام الطبيعة ويفكك بين السبب والمسبب، يلزم أن تكون المعجزة فعلاً عادياً، فلا تدل على صدق من جرت على يديه، فالنار لا علاقة لها مع الحرارة، والله يُحدثها ولا تأثير لها، وباختياره تبارك وتعالى يُحدث بعدها الحرارة أو البرودة، فما الفرق ليقال: في إحداث البرودة دلالة على صدق من أجرى الله تبارك وتعالى على يده حدوث البرودة بعد وجود النار، بخلافه في إحداث الحرارة؟ فالمفروض أن النار لا تتنافى مع البرودة ولا تقتضي الحرارة، فالكون بلا نظام وبلا سنن، والباري تبارك وتعالى يفعل مباشرة، فلا فرق بين أن تتحقق البرودة أو تتحقق الحرارة بعد تحقق النار.

ولكن كون المعجزة غير مخالفة للسنن لا يعني أنها فعل عادي، وتبقى تدل على الصدق بأحد البيانات المذكورة، فهذا الإشكال محل تأمل.

الإجابة الثانية: - ما ذهب إليه مشهور علماء الكلام - إن الله تبارك وتعالى خلق عالم الطبيعة، وأوجد فيه قوانين وسنناً، وهناك علاقة سببية بين الأشياء في عالم الطبيعة إلا أن هذه الأسباب إنما جعلها الله تبارك وتعالى أسباباً

بقدرته، وقدرته تبارك وتعالى فوق هذه الأسباب، بإمكانه عز وجل أن يُعطل هذه الأسباب، فهو الذي خلق النار وجعلها حارة محرقة، بإمكانه تبارك وتعالى أن يُغير خاصية النار، ويحول عناصر النار التي تكونها من طبيعة إلى طبيعة أخرى، فتتحول من حارة إلى باردة، أو بإمكانه تبارك وتعالى أن يُحدث مانعاً، فيعطل تأثير النار، أو بإمكانه تبارك وتعالى مباشرة أن يُحدث البرودة مع وجود النار، فيكون هناك سبب للحرارة، وسبب أقوى، وهو القدرة الإلهية، وتكون القدرة الإلهية غالبية، ففي الدعاء يقول الإمام الحسن عليه السلام: (يا مسبب الأسباب من غير سبب يا سبب كل ذي سبب يا سبب من لا سبب له)^(١)، فهو تبارك وتعالى سبب الأسباب، وبإمكانه أن يُعطل الأسباب، كما بإمكانه أن يُوجد المسبب بلا سبب ماديٍّ؛ لأنه تبارك وتعالى أعظم الأسباب، وقدرته تطال كل شيء.

إذن، نحن يمكن أن نلتزم بوجود علاقة السببية، و- أيضاً - نلتزم بأنه لا تبديل ولا تحويل في سنن الله وقوانين الطبيعة، ومع ذلك نقول بإمكان وقوع الفعل الخارق للعادة؛ لأن السنة إذا تحققت شروطها لا تتبدل، وإذا وجدت نار وألقيت فيها ورقة ولا يوجد مانع من تأثير النار في الورقة حينئذ سوف تعمل السنة، أما إذا تدخل الباري تعالى وأوجد مانعاً، ورفع موضوع السنة، فهذا ليس تغييراً في السنة، وإنما عدم وجود للسنة من رأس لرفع موضوعها.

(١) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٤٥.

الإجابة الثالثة: - ما ذكره العلامة الطباطبائي رحمته الله صاحب تفسير الميزان - وهي تلتزم بوجود أسباب ومسببات في عالم الطبيعة، وبأن هذا القانون قانون حتمي، ولا يعطله الله تبارك وتعالى، ويقال أيضاً: إن المعجزة جارية وفق القوانين الطبيعية، وليس فيها خرق للقوانين، فالسبب المباشر مادي، فإن الأسباب الطبيعية تنقسم إلى قسمين: هناك أسباب طبيعية معروفة وهناك أسباب طبيعية - خاضعة لنظام عالم المادة الذي نعيش فيه -، ولكنها غير معروفة، والمعجزة عبارة عن قيام سبب طبيعي مكان سبب طبيعي، ومن يقول: هي خارق للعادة، فهو لا يعرف السبب الطبيعي الذي قام مكان السبب الذي نعرفه، فمثلاً تحول العصا إلى ثعبان يمكن أن يتحقق وفق قانون الطبيعة الذي نعرفه نحن، لكن بعد وقت طويل، فالعصا تتحول إلى تراب، ثم تتحول إلى نبات، ثم يأتي حيوان يأكل من النبات، ثم يأتي ثعبان ويأكل ذلك الحيوان، فيتحول ذلك المأكول في جوف الثعبان إلى نطفة أو بويضة، ثم يتخلق منها ثعبان، ففي هذه العملية تحولت العصا إلى ثعبان وفق نظام الطبيعي الجاري الذي نعرفه، ولكن احتاج الأمر إلى وقت طويل، ويوجد قانون طبيعي آخر يحول العصا إلى ثعبان في لحظة واحدة، ونحن لا نعرفه، والله تبارك وتعالى يعرفه، وبإمكانه أن يُعلم أنبياءه كيفية استشهاده، ومن هنا - يقول العلامة الطباطبائي رحمته الله: إن المعجزة - خلافاً لما يقوله أحمد خان الهندي - لا تتنافى مع قوله تعالى: ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ

تَحْوِيلًا^(١)؛ لأنها وفق السنن، وغاية الأمر هو أن هنالك سنة قامت مقام سنة أخرى.

وللعلامة الطباطبائي رحمته الله كلام نفيس جداً ننقل مقاطعاً منه لما يشتمل من فوائد كثيرة، فقد قال: «إن دعوى القرآن أنها آية معجزة بهذا التحدي الذي أبدتها هذه الآية تنحل بحسب الحقيقة إلى دعويين، وهما دعوى ثبوت أصل الإعجاز وخرق العادة الجارية ودعوى أن القرآن مصداق من مصاديق الإعجاز ومعلوم أن الدعوى الثانية تثبت بشوئها الدعوى الأولى، والقرآن أيضاً يكتفي بهذا النمط من البيان ويتحدى بنفسه فيستنتج به كلتا النتيجةين غير أنه يبقى الكلام على كيفية تحقق الإعجاز... ولا شبهة في دلالة القرآن على ثبوت الآية المعجزة وتحققها بمعنى الأمر الخارق للعادة الدال على تصرف ما وراء الطبيعة في عالم الطبيعة ونشأة المادة لا بمعنى الأمر المبطل لضرورة العقل. وما تمحله بعض المنتسبين إلى العلم من تأويل الآيات الدالة على ذلك توفيقاً بينها وبين ما يترأى من ظواهر الأبحاث الطبيعية (العلمية) اليوم تكلف مردود إليه. والذي يفيد القرآن الشريف في معنى خارق العادة وإعطاء حقيقته.... إن القرآن يثبت للحوادث الطبيعية أسباباً ويصدق قانون العلية العامة كما يثبت ضرورة العقل وتعتمد عليه الأبحاث العلمية والأنظار الاستدلالية، فإن الإنسان مفطور على أن يعتقد لكل حادث مادي علة موجبة

(١) سورة فاطر: آية ٤٣.

من غير تردد وارتياب. وكذلك العلوم الطبيعية وسائر الأبحاث العلمية تعلل الحوادث والأمور المربوطة بما تجده من أمور أخرى صالحة للتعليل، ولا نعني بالعلة إلا أن يكون هناك أمر واحد أو مجموع أمور إذا تحققت في الطبيعة مثلاً تحقق عندها أمر آخر نسميه المعلول بحكم التجارب، كدلالة التجربة على أنه كلما تحقق احتراق لزم أن يتحقق هناك قبله علة موجبة له من نار أو حركة أو اصطكاك أو نحو ذلك، ومن هنا كانت الكلية وعدم التخلف من أحكام العلية والمعلولية ولوازمهما... ثم إن القرآن يقتصر ويخبر عن جملة من الحوادث والوقائع لا يساعد عليه جريان العادة المشهودة في عالم الطبيعة على نظام العلة والمعلول الموجود، وهذه الحوادث الخارقة للعادة هي الآيات المعجزة... إلا أنها ليست أموراً مستحيلة بالذات بحيث يبطلها العقل الضروري كما يبطل قولنا بالإيجاب والسلب يجتمعان معاً ويرتفعان معاً... على أن أصل هذه الأمور - أعني المعجزات - ليس مما تنكره عادة الطبيعة بل هي مما يتعاوره نظام المادة كل حين بتبديل الحي إلى ميت والميت إلى الحي وتحويل صورة إلى صورة وحادثة إلى حادثة ورخاء إلى بلاء وبلاء إلى رخاء، وإنما الفرق بين صنع العادة وبين المعجزة الخارقة هو أن الأسباب المادية المشهودة التي بين أيدينا إنما تؤثر أثرها مع روابط مخصوصة وشرائط زمانية ومكانية خاصة تقضي بالتدرج في التأثير، مثلاً العصا وإن أمكن أن تصير حية تسعى والجسد البالي وإن أمكن أن يصير إنساناً حياً لكن ذلك إنما يتحقق في العادة بعلة خاصة وشرائط زمانية

ومكانية مخصوصة تنتقل بها المادة من حال إلى حال وتكتسي صورة بعد صورة حتى تستقر وتحل بها الصورة الأخيرة المفروضة على ما تصدقه المشاهدة والتجربة لا مع أي شرط اتفق أو من غير علة أو بإرادة مريد، كما هو الظاهر من حال المعجزات والخوارق التي يقصها القرآن... حدوث الحوادث الخارقة للعادة إجمالاً ليس في وسع العلم إنكاره والستر عليه، فكم من أمر عجيب خارق للعادة يأتي به أرباب المجاهدة وأهل الارتياض كل يوم تمتلي به العيون وتنشره النشريات ويضبطه الصحف المسفورات بحيث لا يبقى لذي لب في وقوعها شك ولا في تحقيقها ريب. وهذا هو الذي ألقأ الباحثين في الآثار الروحية من علماء العصر أن يعللوه بجريان أمواج مجهولة الكتريسية مغناطيسية فافترضوا أن الارتياضات الشاقة تعطي للإنسان سلطة على تصريف أمواج مرموزة قوية تملكه أو تصاحبه إرادة وشعور وبذلك يقدر على ما يأتي به من حركات وتحريكات وتصرفات عجيبة في المادة خارقة للعادة بطريق القبض والبسط ونحو ذلك. وهذه الفرضية لو تمت واطردت من غير انتقاض لأدت إلى تحقق فرضية جديدة وسيعة تعلل جميع الحوادث المتفرقة التي كانت تعللها جميعاً أو تعلل بعضها الفرضيات القديمة على محور الحركة والقوة ولساقت جميع الحوادث المادية إلى التعلل والارتباط بعة واحدة طبيعية. فهذا قولهم والحق معهم في الجملة إذ لا معنى لمعلول طبيعي لا علة طبيعية له مع فرض كون الرابطة طبيعية محفوظة، وبعبارة أخرى إنا لا نعني

بالعلة الطبيعية إلا أن تجتمع عدة موجودات طبيعية مع نسب وروابط خاصة فيتكون منها عند ذلك موجود طبيعي جديد حادث متأخر عنها مربوط بها بحيث لو انتقض النظام السابق عليه لم يحدث ولم يتحقق وجوده. وأما القرآن الكريم فإنه وإن لم يشخص هذه العلة الطبيعية الأخيرة التي تعلل جميع الحوادث المادية العادية والخارقة للعادة (على ما نحسبه) بتشخيص اسمه وكيفية تأثيره لخروجه عن غرضه العام إلا أنه مع ذلك يثبت لكل حادث مادي سبباً مادياً بإذن الله... ثم الجملة التالية وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ الطلاق - ٣، يعلل إطلاق الصدر، وهذا المعنى قوله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يوسف - ٢١. وهذه جملة مطلقة غير مقيدة بشيء البتة فله سبحانه سبيل إلى كل حادث تعلقت به مشيته وإرادته وإن كانت السبل العادية والطرق المألوفة مقطوعة منتفية هناك.

وهذا يحتمل وجهين: أحدهما أن يتوسل تعالى إليه من غير سبب مادي وعلة طبيعية بل بمجرد الإرادة وحدها، وثانيهما أن يكون هناك سبب طبيعي مستور عن علمنا يحيط به الله سبحانه ويبلغ ما يريده من طريقه إلا أن الجملة التالية من الآية المعللة لما قبلها أعني قوله تعالى، ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾، تدل على ثاني الوجهين فإنها تدل على أن كل شيء من المسببات أعم مما تقتضيه الأسباب العادية أو لا تقتضيه، فإن له قدراً قدره الله سبحانه عليه، وارتباطات مع غيره من الموجودات، واتصالات وجودية مع ما سواه، لله

سبحانه أن يتوسل منها إليه وإن كانت الأسباب العادية مقطوعة عنه غير مرتبطة به إلا أن هذه الاتصالات والارتباطات ليست مملوكة للأشياء أنفسها حتى تطيع في حال وتعصى في أخرى بل مجعولة بجعله تعالى مطيعة منقادة له. فالآية تدل على أنه تعالى جعل بين الأشياء جميعها ارتباطات واتصالات له أن يبلغ إلى كل ما يريد من أي وجه شاء وليس هذا نفيًا للعلية والسببية بين الأشياء بل إثبات أنها بيد الله سبحانه يحولها كيف شاء وأراد، ففي الوجود عليّة وارتباط حقيقي بين كل موجود وما تقدمه من الموجودات المنتظمة غير أنها ليست على ما نجده بين ظواهر الموجودات بحسب العادة (ولذلك نجد لفرضيات العلمية الموجودة قاصرة عن تعليل جميع الحوادث الوجودية) بل على ما يعلمه الله تعالى وينظمه... والقرآن كما عرفت يصدق قانون العلية العام في ما بين الموجودات المادية ينتج أن نظام الوجود في الموجودات المادية سواء كانت على جري العادة أو خارقة لها على صراط مستقيم غير متخلف ووتيرة واحدة في استناد كل حادث فيه إلى العلة المتقدمة عليه الموجبة له. ومن هنا يستنتج أن الأسباب العادية التي ربما يقع التخلف بينها وبين مسبباتها ليست بأسباب حقيقية بل هناك أسباب حقيقية مطردة غير متخلفة الأحكام والخواص... الأسباب الوجودية غير مستقلة في التأثير والمؤثر الحقيقي بتمام معنى الكلمة ليس إلا الله عز سلطانه.... فالأسباب تملك السببية بتمليكه تعالى، وهي غير مستقلة في عين أنها مالكة. وهذا المعنى هو الذي يعبر سبحانه

عنه بالشفاعة والإذن... القرآن يثبت تأثيراً في نفوس الأنبياء في الخوارق ثم إنه تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ المؤمن - ٧٨. فأفاد إناطة إتيان أية آية من أي رسول بإذن الله سبحانه، فبين أن إتيان الآيات المعجزة من الأنبياء وصدورها عنهم إنما هو لمبدأ مؤثر موجود في نفوسهم الشريفة^(١) متوقف في تأثيره على الإذن كما مر في الفصل السابق... ومن هنا يمكن أن يستنتج أن هذا المبدأ الموجود المنصور أمر وراء الطبيعة وفوق المادة. فإن الأمور المادية مقدرة محدودة مغلوبة لما هو فوقها قدرأ واحداً عند التزاحم والمغالبة... القرآن كما يسند الخوارق إلى تأثير النفوس يسندھا إلى أمر الله تعالى... قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ الآية، تدل على أن تأثير هذا المقتضي يتوقف على أمر من الله تعالى يصاحب الإذن الذي كان يتوقف عليه أيضاً، فتأثير هذا المقتضي يتوقف على مصادفته الأمر أو اتحاده معه... فالأمر جميعاً سواء كانت عادية أو خارقة للعادة وسواء كان خارق العادة في جانب الخير والسعادة كالمعجزة والكرامة، أو في جانب الشر كالسحر والكهانة مستندة في تحققها إلى أسباب طبيعية، وهي مع ذلك متوقفة على إرادة الله، لا توجد إلا بأمر الله سبحانه أي بأن يصادف السبب أو يتحد مع أمر الله سبحانه. وجميع الأشياء وإن كانت من حيث استناد وجودها إلى الأمر الإلهي على حد سواء بحيث إذا تحقق الإذن

(١) تقدم تحقيق الكلام في هذا وأن الصحيح عدم ثبوت الكلية الموجبة.

والأمر تحققت عن أسبابها، وإذا لم يتحقق الإذن والأمر لم يتحقق، أي لم تتم السببية إلا أن قسماً منها وهو المعجزة من الأنبياء أو ما سأله عبد ربه بالدعاء لا يخلو عن إرادة موجبة منه تعالى وأمر عزيمة كما يدل عليه قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي...﴾ المجادلة - ٢١، وقوله تعالى: ﴿أُجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ...﴾ البقرة - ١٨٦، وغير ذلك من الآيات المذكورة في الفصل السابق... القرآن يسند المعجزة إلى سبب غير مغلوب فقد تبين... أن المعجزة كسائر الأمور الخارقة للعادة لا تفارق الأسباب العادية في الاحتياج إلى سبب طبيعي وإن مع الجميع أسباباً باطنية وأن الفرق بينها أن الأمور العادية ملازمة لأسباب ظاهرية تصاحبها الأسباب الحقيقية الطبيعية غالباً أو مع الأغلب ومع تلك الأسباب الحقيقية إرادة الله وأمره، والأمور الخارقة للعادة من الشرور كالسحر والكهانة مستندة إلى أسباب طبيعية مفارقة للعادة مقارنة للسبب الحقيقي بالإذن والإرادة كاستجابة الدعاء ونحو ذلك من غير تحدٍ يبتني عليه ظهور حق الدعوة وأن المعجزة مستندة إلى سبب طبيعي حقيقي بإذن الله وأمره إذا كان هناك تحدٍ يبتني عليه صحة النبوة والرسالة والدعوة إلى الله تعالى وأن القسمين الآخرين يفارقان سائر الأقسام في أن سببها لا يصير مغلوباً مقهوراً قط بخلاف سائر المسببات»^(١).

(١) تفسير الميزان: ج ١ ص ٦١، ٨٤.

لو كانت المعجزة خارقة للعادة فكيف يعلم أنها من الله؟

التساؤل الثالث: بعض المعاصرين أثار شبهة في دلالة المعجزة على صدق مدعي المنصب الإلهي، فذكر أنه يسلم بأن المعجزة فعل خارق للعادة، لكن من أين يحصل العلم بأن المعجزة تأييد من الله تبارك وتعالى.

فإذا ألقى نبي الله موسى (على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام) العصا، وتحولت إلى ثعبان، فجاء بفعل خارق للعادة لا تنتهي عملية البرهنة على صدقه، بل لا بد من تحصيل جواب سؤال مهم، وهو: هل الله تبارك وتعالى هو الذي حول العصا إلى ثعبان أم كائنات غير بشرية من كوكب آخر أو من عالم آخر لها قدرة فائقة فوق قدرة الإنسان، وبإمكانها أن تتدخل في عالمنا وتحدث الأفعال الخارقة للعادة التي لا نستطيع أن نقوم بها؟

ووجه هذا السؤال هو: أن ما يعجز عنه الإنسان قد يقدر عليه غير الإنسان، فالفعل الخارق للعادة لن يدل على صدق مدعي المنصب الإلهي؛ لأنه لم يثبت أنه من الله تبارك وتعالى.

في مقام الجواب على هذا التساؤل: نستعين بما ذكره سيد الطائفة وزعيم الحوزة العلمية السيد الخوئي رحمته الله في تفسير البيان، فالسيد الخوئي تميز ببيان لطيف أنيق في كيفية دلالة المعجزة على صدق من جرت المعجزة على يده، نذكر البيان الذي تفضل به رحمته الله مع إضافة بسيطة:

لو فرضنا وجود سلطنة، وجاء شخص من رعية السلطان وسكان

السلطنة، وادعى كذباً أنه ممثل السلطان، وأنه ناطقة الرسمي، وأخذ يُخبر الناس بتعاليم وأحكام ويصدر قوانين باسم السلطان، وقال للناس: إن دليل صدقي أنه في يوم غدٍ سوف يمر موكب السلطان، وإذا وصل الموكب قريباً مني سوف ينزل السلطان، ويُسلم عليّ مصافحة دون سواي، وعلم السلطان بذلك، ومع ذلك قام السلطان في اليوم الثاني بالمرور، ولما وصل الموكب قريباً من الكذاب نزل السلطان وسلم على الكذاب مصافحاً، وخصه بذلك، ففعل ما أخبر به هذا الكذاب مع أنه بإمكانه أن لا يفعل ذلك، فهنا نحن - كعقلاء - ندرك بالوجدان أن هذا السلطان فعل أمراً قبيحاً، لأنه أيد الكاذب، فالوجدان بقطع النظر عن الشبهات والإثارات التي تصدر من هنا ومن هناك يحكم بأن هذا الفعل قبيح.

ولو علم السلطان بأن هذا المدعي يوجد له أتباع يؤيدونه، وهم سيقومون بتزوير موكب يشبه موكبه، وسوف يأتون بشخص شبيه بالسلطان، وسوف يمرون قريب الكذاب، وينزل الشبيه لكي يفعل ما أخبر به الكذاب، وكان بإمكان السلطان أن يتدخل ليقف هذا الكاذب ومن معه، ومع ذلك السلطان لم يعتنِ، وفسح المجال للكذاب ومن معه لكي يخدعوا الناس باسمه، فإن العقل يحكم بأن السلطان ارتكب قبيحاً، فهو يعلم أن هؤلاء يتقمصون دوره والهدف من ذلك أن يُدعى منصباً منسوباً إليه، وهو قادر على أن يتدخل، ومع ذلك أهمل ولم يتدخل، هذا يوجب أن يكون مُلاماً عند العقلاء.

والأمر كذلك فيما إذا جاء شخص وادعى أنه رسول أو نبي، وأنه يمثل الله تبارك وتعالى والناطق الرسمي عنه، فإنه يقبح أن يؤيده الله تبارك وتعالى مباشرة، وكذلك يقبح أن لا يتدخل الله تبارك وتعالى لردعه وردع المخلوقات الموجودات في الكوكب الآخر أو العالم الآخر، والتي تريد أن تتقمص شخصيته، وتضل الناس باسمه، فإن الله تبارك وتعالى يعلم بكل شيء، ولن يخفى عليه حال هذا الكاذب وحال من معه من المخلوقات الأخرى، وهو تبارك وتعالى قادر على كل شيء، وبإمكانه أن يتدخل ويمنع، وإذا لم يتدخل سوف يحكم العقل بالقبح، فحاله حال ذلك السلطان الذي أهمل.

إذن، العقل يدرك قبح أن لا يتدخل الباري تبارك وتعالى لردع الكاذب ومن معه ولو كان من كوكب آخر، طبعاً، احتمال وجود مخلوقات بهذا النحو موهوم لا قيمة له، لكن بعض الناس يستهويه أن يطرح مثل هذه الاحتمالات الضعيفة التي لا قيمة لها، ولكن لو أن شخصاً طرح هذا الاحتمال فهذا جوابه.

قال السيد الخوئي رحمته الله: «وإنما يكون الإعجاز دليلاً على صدق المدعي؛ لأن المعجز فيه خرق للنواميس الطبيعية، فلا يمكن أن يقع من أحد إلا بعناية من الله تعالى، وإقدار منه، فلو كان مدعي النبوة كاذباً في دعواه، كان إقداره على المعجز من قبل الله تعالى إغراء بالجهل وإشادة بالباطل، وذلك محال على الحكيم تعالى. فإذا ظهرت المعجزة على يده كانت دالة على صدقه، وكاشفة عن رضا الحق سبحانه بنبوته. وما ذكرناه قاعدة مطردة يجري عليها العقلاء

من الناس فيما يشبه هذه الأمور، ولا يشكون فيها أبداً، فإذا ادعى أحد من الناس سفارة عن ملك من الملوك في أمور تختص برعيته، كان من الواجب عليه أولاً أن يقيم على دعواه دليلاً يعضدها، حين تشك الرعية في صدقه، ولا بد من أن يكون ذلك الدليل في غاية الوضوح، فإذا قال لهم ذلك السفير: الشاهد على صدقي أن الملك غداً سيحييني بتحيته الخاصة التي يحيي بها سفراءه الآخرين. فإذا علم الملك ما جرى بين السفير وبين الرعية، ثم حياه في الوقت المعين بتلك التحية، كان فعل الملك هذا تصديقاً للمدعي في السفارة ولا يرتاب العقلاء في ذلك؛ لأن الملك القادر المحافظ على مصالح رعيته يقبح عليه أن يصدق هذا المدعي إذا كان كاذباً؛ لأنه يريد إفساد الرعية. وإذا كان هذا الفعل قبيحاً من سائر العقلاء كان محالاً على الحكيم المطلق، وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى بقوله في كتابه الكريم: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (٦٩: ٤٤ - ٤٦). والمراد من الآية الكريمة أن محمداً الذي أثبتنا نبوته، وأظهرنا المعجزة لتصديقه، لا يمكن أن يتقول علينا بعض الأقاويل، ولو صنع ذلك لأخذنا منه باليمين، ولقطعنا منه الوتين، فإن سكوتنا عن هذه الأقاويل إمضاء منا لها، وإدخال للباطل في شريعة الهدى، فيجب علينا حفظ الشريعة في مرحلة البقاء، كما وجب علينا في مرحلة الحدوث^(١).

(١) تفسير البيان: ص ٣٧، ٣٨.

منافاة المعجزة لإخبار القرآن:

التساؤل الرابع: ذهب بعض الباحثين إلى أن المعاجز لا يمكن أن تكون خارقة للعادة ونواميس عالم الطبيعة، لأن القرآن الكريم أخبرنا أن النبي ليس قادراً على خرق الطبيعة، ومخالفة القوانين والسنن، فالمشركون طلبوا من النبي الخاتم ﷺ جملة من الأفعال الخارقة للعادة، والنبي ﷺ لم يجب إلى ما طلبوا، بل قال: أنا بشر رسول، وعاجز لا أتمكن من فعل ما تطلبون، يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسَفًا أَوْ تَأْتِي بِلَهُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾^(١)، فمفاد هذه الآيات هو أن المشركين طلبوا منه ﷺ جملة من الأفعال الخارقة للعادة، فقال: سبحان ربي لست إلا بشراً ضعيفاً لا أستطيع أن آتي بهذه الأفعال التي تطلبون، فالقرآن يثبت عجز الأنبياء عن الإتيان بالمعاجز والأفعال الخارقة للعادة، وعليه لا بد أن نؤول جميع الآيات والروايات التي ظاهرها صدور ما هو خارق للعادة.

وبالباحثون الإسلاميون في مقام الجواب على هذا التساؤل ذكروا جملة من الأجوبة:

(١) سورة الإسراء: آية ٩٠-٩٣.

الجواب الأول: ذكره الميرزا أبو الفضل الهمداني القمي^(١)، فقد أفاد بأن أصحاب هذا التساؤل لم يفهموا المراد من قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾، فليس المراد إثبات أن النبي ﷺ بشر؛ ولأنه كذلك فهو عاجز لا يستطيع أن يأتي بالأفعال الخارقة للعادة، وإنما المقصود الرد على قولهم ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾، وهنا ينبغي أن نتأمل ونتدبر جيداً، فالتعبير الوارد تعبير قرآني دقيق، والقرآن بعبارة مختزنة بين الأفكار الموجودة في أذهان المشركين الذين طلبوا حول النبي ﷺ، فهم كانوا ينظرون إليه - أو لا أفلاً يتظاهرون بالنظر إليه - على أنه شخص يطلب السلطة والجاه، ويريد المكسب المادي، فهدفه مصلحة الشخصية، ولهذا قالوا له: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي لمصلحتك، وفرق بين الإيمان به وبين الإيمان له، وهذا نظير تعبير فرعون لما آمن السحرة بنبي الله موسى (على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام)، فقد نقل القرآن كلامه بالنحو التالي: ﴿أَمَتُّمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾^(٢)، ولم يقل (أمتتم به) ففي ذهنه أن هناك مخططاً، وتوجد جماعة عندها أهداف سياسية واقتصادية، ويريدون الحصول على عرشه والملك والجاه، فيكون إظهار الإيمان لمصلحة زعيمهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، وقال لقومه قبل ذلك: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ

(١) نقله الشهيد مطهري رحمه الله عنه في كتاب النبوة: ص ١٩٦.

(٢) سورة الشعراء: آية ٤٩.

الصَّادِقِينَ، فَالْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ، قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ، قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ، فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ، وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ، لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿١﴾.

ونظير ذلك وصف إيمان النبي ﷺ في نفع المؤمنين، فقد قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢)، فإن النبي ﷺ كان يسمع المؤمنين، ولا يظهر التكذيب، وفي هذا نفع لهم، فهو إيمان لهم لا بما يقولون؛ لأنه قد لا يكون مطابقاً للواقع، ولكن لحكمة كان النبي ﷺ لا يكذب ما يسمع.

والمشركون كانوا ينظرون إلى النبي ﷺ على أنه طالب نفع شخصي، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي لن نحقق شيئاً لمصلحتك حتى تحقق أموراً، والنبي ﷺ في مقام الجواب قال لهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾، وهذا بيان لكونه جاء برسالة لا لهدف شخصي حتى يكون إيمانهم مصلحة له، وإنما هو عبد انتجبه الله وأرسله، وهو يدعو إلى الله، وإيمانهم به

(١) سورة الشعراء: الآيات ٣١-٤٠.

(٢) سورة التوبة: آية ٦١.

ينفعهم، فهذه العبارة لبيان هذا المعنى، وليس لبيان أنه عاجز لا تجري على يده المعاجز والكرامات.

الجواب الثاني: هو أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ عذاب الاستئصال، بأن ينزل الله تعالى عليهم الهلاك، فقالوا: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾، فقال لهم النبي ﷺ: لست إلا عبداً مرسلًا لا أملك هذا الأمر، فهذا الأمر بيد الله تبارك وتعالى، وهو الذي يُقرر متى يُنزل عليكم العذاب، فهذه العبارة من المحتمل جداً أنها ناظرة إلى هذه الفقرة، وتريد أن ترد عليهم بيان أن مسألة العذاب النهائي ليست بيد الرسول، وإنما هي بيد الله تبارك وتعالى، والرسول ليس إلا بشراً مُبلغاً.

الجواب الثالث: إذا تأملنا في القائمة التي طلبها المشركون نجد فيها بعض الأمور المستحيلة عقلاً، فهي ليست خارقة للعادة وممكنة، بل هي مستحيلة لا يمكن أن تقع، فهم طلبوا من النبي ﷺ أن يأتي بالله تبارك وتعالى في عالم المادة، فقالوا: ﴿أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾، وهذا مستحيل، فالباري تبارك وتعالى هو الذي خلق الزمان والمكان، وهو الذي أُنْشِئَ الأين، وهو الذي جعل المتى، فلا يجب عليه ما هو أجراه، فلما طلبوا أمراً مستحيلاً قال لهم ﷺ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾، وهذا بيان لكونه بشراً، وأنه بالرسالة لا يخرج من الإمكان والفقر إلى الغنى، أو إلى مرتبة فوق الغنى، بنحو تكون له سلطة على الوجود الإلهي، أو سلطة على تحقيق الأمر المستحيل، والذي يتأمل

في هذه الآيات يُدرك أن هؤلاء كانوا متعصبين لا يريدون أن يؤمنوا، وإلا ما معنى ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ﴾؟

إن هذه مقولة من لا يريد الحق، ولا يريد أن يتبع الصراط المستقيم، والنبي ﷺ أقام لهم الحجة البالغة الدامغة، و﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾^(١).

حساب الاحتمالات والمنهج العلمي في إثبات النبوة:

الطريق الأساسي الثاني لإثبات صدق ادعاء النبوة، هو طريق جمع القرائن وحساب الاحتمال أو الطريق العلمي، وقد اهتم جملة من الباحثين بهذا الطريق، منهم صاحب كتاب: (ميزان الموازين) وصاحب كتاب: (الوحي المحمدي) وصاحب كتاب: (الإلهيات)^(٢)، وأبرز عالم اشتغل في هذا الطريق وبلوره وصاغه بصياغة محكمة متقنة هو الشهيد محمد باقر الصدر رحمته الله في: (موجز أصول الدين)^(٣).

وهذا الطريق طريق مهم؛ لأنه الطريق الذي يتبعه العلماء في العلوم الكونية والعلوم الإنسانية، كعلم الطب وعلم الاجتماع، وقد ذكر الشهيد

(١) سورة ق: آية ٣٧.

(٢) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل: ج ٢ ص ١١٤.

(٣) موجز أصول الدين: ص ١٨٩.

الصدر رحمه الله أن أغلب معارف الناس ترجع إلى هذا الطريق^(١)؛ ولهذا هو مهم جداً في إثبات دعوى صدق النبي وصدق دعوى كل من يدعي المنصب الإلهي، ونتحدث في هذا الطريق في مقامين:

المقام الأول: تبين فيه هذا الطريق بنحو مختصر.

وفي البداية أذكر هذا الطريق بنحو موجز، ثم أذكر مثالين ذكرهما الشهيد الصدر رحمه الله - إن شاء الله - ومن خلال هذين المثالين يتضح هذا الطريق، ويكون جلياً وبيّناً.

خلاصة الطريق: يمر هذا الطريق بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: نواجه فيها جملة من الظواهر.

المرحلة الثانية: نظفر بتفسير جامع يمكن أن نُخرج لنا جميع الظواهر التي ظفرنا بها في المرحلة الأولى.

المرحلة الثالثة: نستبعد أي احتمال آخر غير الاحتمال الجامع الذي ينفع أن يكون تخريباً وتفسيراً لجميع الظواهر، فإذا استبعدنا أي احتمال آخر سوف يقوى الاحتمال الجامع إلى أن نصل إلى مرحلة القطع واليقين.

المثال الأول: لو أتتك رسالة ومكتوب عليها (من أخيك فلان)، فإذا قرأت المكتوب على غلاف الرسالة سوف يحصل عندك احتمال أن الرسالة فعلاً من أخيك، و- أيضاً - احتمال أنها من شخص آخر.

(١) بحوث في علم الأصول: ج ٤ ص ١٣١.

فإذا فتحت الرسالة ووجدت أنها مكتوبة بخط يطابق خط أخيك ١٠٠٪، ثم وجدت في الرسالة الأفكار التي يعتقد بها أخوك، و- أيضاً - الوصايا التي عادة ما يوصي بها، وشممت منها رائحة العطر الذي يستخدمه دائماً، وطلب منك إيصال السلام إلى إخوانك، فقال: سلّم على أخيك أحمد، وعلي، وحسن، وهي تطابق أسماء إخوتك، فهنا سوف تقف على جملة من الظواهر في هذه الرسالة: (الخط، رائحة العطر، الأفكار، الوصايا، وتطابق أسماء الإخوان)، وبهذا انتهت المرحلة الأولى.

وفي المرحلة الثانية: هناك تفسير جامع يمكن أن يفسر جميع هذه الظواهر، وهو أن يكون أخوك من كتب تلك الرسالة فعلاً. فإذا كان هو الذي كتبها سوف نستطيع أن نفهم تطابق الخط، ورائحة العطر، والأفكار، والوصايا، والأسماء، وجميع الظواهر التي وجهناها في المرحلة الأولى.

وفي المرحلة الثالثة: سوف يواجه العقل في بداية الأمر تفسيراً آخر، وهو أن يكون الكاتب شخصاً آخر ليس أخاك، لكن العقل سوف يقرر أن التفسير الآخر بعيد جداً؛ لأنه من البعيد أن تتفق آلاف الصدف فيوجد شخص آخر تجتمع فيه هذه الظواهر.

فهنا الطبيعة البشرية وفق قانون رياضي يسمى بقانون حساب الاحتمال، تُبعد أن يكون الكاتب شخصاً آخر، وكلما ازدادت الظواهر والقرائن التي تؤيد أن الكاتب هو الأخ يضعف احتمال أن يكون الكاتب شخصاً آخر، إلى

أن يصل الذهن إلى القطع بأن الكاتب ليس شخصاً آخر، وإذا قطع أن الكاتب ليس شخصاً آخر، فهو في الحقيقة يقطع بأن الكاتب هو الآخر. فوفق قانون رياضي دقيق تنتقل الطبيعة البشرية وتدرج إلى أن تصل إلى مرحلة القطع، ولا نريد أن نخوض في بيان هذا القانون، وكيفية تراكم القيم الاحتمالية من الناحية الرياضية، فيكفي أننا بالوجدان ندرك في مثل هذه الحالة نتيجة ذلك.

فمثلاً: إذا جرب الأطباء الأسيرين ألف مرة فوجدوا في كل تجربة يرتفع الصداع عند استخدام الأسبرين، يقطعون بأن الأسبرين سبب ارتفاع الصداع؛ لأن كل تجربة تعطي قيمة احتمالية تنضم إليها القيمة الاحتمالية للتجربة الأخرى، وهكذا تتراكم القيم الاحتمالية على التفسير الواحد الذي ينفع ليكون تحريجاً لكل عمليات ارتفاع الصداع عند أخذ الأسبرين، وهو أن الأسبرين هو السبب.

وأما الاحتمال الآخر، وهو أنه اتفق صدفة في كل هذه التجارب تقارن العلة الحقيقية مع الأسبرين، فيضعف ويضمحل إلى أن يصل الأطباء إلى مرحلة يقطعون بأن العلة لذهاب الصداع ليس شيئاً آخر غير الأسبرين، ويترتب على ذلك أن نجد الأسبرين منتجاً في الأسواق.

المثال الثاني: لو فرضنا أن طفلاً صغيراً عمره ثماني سنوات - مثلاً - جاء من قرية بدائية متخلفة لا توجد فيها معاهد علمية، وفي يديه كتاب علمي

متقن في مضمونه وفي أسلوبه في علم الفيزياء، وقال الطفل: أنا الذي كتبت الكتاب، فهنا سوف نكون بين احتمالين:

الاحتمال الأول: أن يكون الطفل صادقاً فيما يخبر، وهو الذي كتب الكتاب.

الاحتمال الثاني: أن يكون الطفل كاذباً، والذي كتب الكتاب شخص آخر، عالم متخصص في علم الفيزياء، ودرس في معاهد العلم، كما هو المتعارف، و- أيضاً - عنده قدرة بيانية وتعبيرية، واستطاع أن يصوغ المطالب العلمية بنحو دقيق.

والشواهد والقرائن والظواهر العلمية والبيانية الموجودة في هذا الكتاب تصب في صالح الاحتمال الثاني، فكون الكاتب عالماً متخصصاً درس في المعاهد العلمية ينفع تفسيراً لتخريج الدقة العلمية والدقة البيانية، في الكتاب. وأما كون الكاتب هو الطفل فهذا يقتضي أن تجتمع آلاف الصدف غير المألوفة في حياة الناس، فإنه ليس من المألوف أن يأتي طفل من هذه البيئة المتخلفة بمثل هذا الكتاب، لهذا نحن بطبيعتنا في هذه الحالة لن نصدق الطفل، وسوف نقطع أن من ألف الكتاب شخص آخر.

المقام الثاني: في تطبيق هذا الطريق في نبوة النبي الخاتم ﷺ.

فإن في حياة النبي الخاتم ﷺ مجموعة من الظواهر التي تشكل قرائن يعضد بعضها بعضاً، فيقوّي احتمال بعضها الاحتمال الموجود في الآخر، حتى

تتراكم الاحتمالات، وتصل إلى مرحلة القطع واليقين بأنه نبي مؤيد، وقد جاء بالكتاب الكريم من الله تبارك وتعالى، وقرائن صدق النبي ﷺ كثيرة جداً، ولكن أقصر على ذكر ثلاث قرائن، وهي في الحقيقة ثلاثة عناوين تحت كل عنوان توجد جملة من القرائن:

القرينة الأولى: هي سيرة النبي ﷺ، فالنبي كان في قومه معروفاً بالسيرة الحسنة، فقد كان على درجة عالية من الكمال الروحي والكمال السلوكي، صادقاً أميناً لا يغدر ولا يغش، ولم يعرف عنه ﷺ خلق سيء. وقد نقل الطبري^(١) أن قيصر الروم سأل أبا سفيان - وأبو سفيان كان أشد أعداء النبي ﷺ - هل محمد ﷺ يغدر؟ فقال له أبو سفيان: لا.

فحتى أشد أعدائه يعترف له بسمو الأخلاق، ونقل الطحاوي عن: عبد الله ابن السائب قال: كُنْتُ فِيْمَنْ بَنَى الْبَيْتَ، فَأَخَذْتُ حَجْرًا، فَكُنْتُ أَعْبُدُهُ، فَإِنْ كَانَ لِيَكُونَ فِي الْبَيْتِ الشَّيْءُ، فَأَبْعَثُ بِهِ فَيَصُبُّ عَلَيْهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُؤْتَى بِاللَّبَنِ الطَّيِّبِ فَأَبْعَثُ بِهِ فَيَصُبُّ عَلَيْهِ، وَإِنْ قُرَيْشًا اخْتَلَفُوا وَتَشَاجَرُوا فِي الْحَجَرِ أَيْنَ يَضَعُونَهُ، حَتَّى كَادَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ بِالسُّيُوفِ، فَقَالَ: انْظُرُوا أَوَّلَ رَجُلٍ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: هَذَا أَمِينٌ، وَكَانُوا يُسَمُّونَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَمِينًا، فَقَالُوا: هَذَا مُحَمَّدٌ، فَجَاءَ وَأَخَذَ ثَوْبًا وَبَسَطَهُ، وَوَضَعَ الْحَجَرَ فِيهِ، فَقَالَ هَذَا الْبَطْنُ، وَهَذَا الْبَطْنُ، وَهَذَا الْبَطْنُ:

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٢٩٠، ٢٩١.

«لِيَأْخُذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِنَاحِيَةِ الثَّوبِ»، فَفَعَلُوا، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَضَعَهُ فِي مَكَانِهِ^(١).

وذكره أحمد في مُسْنَدِهِ فقال: فَقَالُوا: اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ حَكَمًا، قَالُوا: أَوَّلَ رَجُلٍ يَطْلُعُ مِنَ الْفَجِّ، فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: أَتَاكُمْ الْأَمِينُ...^(٢).

وذكره الحاكم في المستدرك: فَقَالُوا: هَذَا الْأَمِينُ، وَكَانُوا يُسَمُّونَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ: الْأَمِينُ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، قَدْ رَضِينَا بِكَ^(٣).

وكونه صادقاً لم يُعهد منه الكذب والخيانة والغش قرينة على أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما ادَّعى النبوة لم يكن كاذباً، وإنما هو صادق فيما يدَّعي.

القرينة الثانية: هي تفاني النبي ﷺ في بيان ونشر وتطبيق ما يعتقد به، ودعوة الناس إلى ما يراه حقاً، فقد عانى الآلام والمحن، وقاطعه أصدقاؤه، وعمل أعداؤه من أجل منعه، فتعرض للضرب ولمحاولات الاغتيال، كما أن المشركين عرضوا عليه المغريات للتنازل، ولكن قال كلمته: (والله إن وضعت الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته)^(٤).

(١) شرح مُشْكِل الطحاوي: ج ١ ص ٢٤٠ ط مؤسسة الرسالة - بيروت، ت: شعيب الأرنؤوط.

(٢) مُسْنَد ابن حنبل: ج ٢٤ ص ٢٦٢ ط مؤسسة الرسالة - بيروت، ت: شعيب الأرنؤوط وآخرون.

(٣) المستدرك على الصحيحين: ج ١ ص ٦٢٨ ط دار الحرمين - مصر، ت: مقبل بن هادي الوادعي.

(٤) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٦٧.

وينقل الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه دفاعاً عن محمد ﷺ عن المستشرق فرانتس بول في كتابه: (حياة محمد) أنه يرى أن من يقرأ سيرة النبي ﷺ بإنصاف وتجرد يجزم بأنه كان مؤمناً تمام الإيمان بحقانية ما يقول، ولم يكن يدعي كذباً - حاشاه ﷺ - لأجل أن يتزعم أو يُحصّل أتباعاً، ومقاصد اقتصادية ومصالح مادية.

يقول الدكتور بدوي: وينهي «بول» كلامه قائلاً: «إننا لا بد أن نصل إلى فهم كامل لشخصية محمد عندما ندقق فيما كانت عليه حالته في الفترة الأولى من ظهوره في مكة، وقد كان على خلق عظيم وشخصية مستقيمة ونموذجية بشكل يسترعي الانتباه. ولكن شخصية محمد في مكة بعد ذلك سرعان ما طرأ عليها تغير حسب ظروف حياته هناك، والتي كانت تتطلب كثيراً من الاعتبار الواقعية والتحفظات التي يملئها الموقف، ولكنه وكما يقول: «بول» يجب أن نكون حذرين في توجيه مثل هذا الاتهام إلى محمد وهو رجل ظل حتى آخر رمق من حياته مقتنعاً تماماً بحقيقة المصدر الإلهي لرسالته، وحتى ساعة موته لم يشك لحظة في هذا الأمر»^(١).

وهذا ما يؤيده حال النبي ﷺ في المدينة حيث صار النبي ﷺ حاكماً، وأسس دولة، وكان عنده أتباع لو أمر بعضهم أن يقتل نفسه لفعل، فكان بإمكانه أن يأمر أتباعه بأن يبنوا له القصور وأن يجمعوا له الأموال، وبإمكانه

(١) دفاعاً عن محمد ﷺ ضد المنتقصين من قدره: ص ١١٩.

يتخير فيأكل أفضل المأكول ويلبس أفضل الملابس، لكنه ﷺ عاش في أعلى مراتب الزهد والتقشف والتعالي عن حطام هذه الدنيا، فقد سكن في بيت متواضع جداً، وما كان يشبع من رغيف شعير ثلاثة أيام متصلة، وفي الرواية دخل عقبة بن علقمة على أمير المؤمنين عليه السلام فرأى أمير المؤمنين يأكل كسرة من الخبز يستعين بركبته في كسرها، فالتفت إلى فضة، وقال: ألا تتقون الله في هذا الشيخ الكبير، فالتفت إليه أمير المؤمنين عليه السلام وقال له: (لقد أدركت رسول الله ﷺ يأكل أيس من هذا ويلبس أخشن من هذا)^(١).

إن هذه السيرة العطرة من قرائن صدقه ﷺ، وأنه كان يعتقد تمام الاعتقاد بالدعوة التي ضحى من أجلها.

القرينة الثالثة: هي أن النبي ﷺ كان يعيش في مكة في جزيرة العرب، والمجتمع العربي كان منحطاً في كثير من جهاته، فالعربي كان يجعل العرق والقبيلة المعيار، فيقاتل من أجل الحمية الجاهلية، بل كان يقاتل من أجل البعير والناقة، ومن أجل الجواد والفرس، فيدخل معركة قد تستمر أربعين سنة يُقتل فيها الصغير والكبير، والذكر والأنثى لأجل ناقة أو فرس، كما أن كثيراً من العرب كانوا ينظرون إلى المرأة على أنها طبقة ثانية وضيعة، ولا يعطونها الحق في الحياة ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي

(١) بحار الأنوار: ج ٤٠ ص ٢٣١.

التُّرَابِ إِلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١﴾.

و بعض العرب كان يدفن ابنته، وهي تزيل التراب عن لحيته، ويصنع له من التمر إلهاءً، ثم إذا جاع يأكله، يقول أمير المؤمنين عليه السلام وهو يصف الوضع العربي: (إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله وسلم نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ - وَأَمِينًا عَلَى التَّنْزِيلِ - وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ - مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَاتٍ صُمٍّ - تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ - وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ - الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنُصُوبَةٌ وَالْآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ) (٢).

و تقول الصديقة الزهراء عليها السلام: (وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام تشربون الطرق وتقتاتون القد أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد أن مني بهم الرجال وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب) (٣).

و يا له من تعبير دقيق يصف الحالة (موضع الأقدام)، أي في المنطقة السافلة من الحضارات والأمم الأخرى، فهي أمة تحت أقدام كسرى وقيصر، وشعبها شعب جاهلي مستضعف.

(١) سورة النحل: آية ٥٩.

(٢) نهج البلاغة: ص ٦٨.

(٣) الاحتجاج: ج ١ ص ١٣٦.

كما أنه كان من الناحية العلمية تحت الصفر، فلا توجد فيه معاهد علمية ولا توجد فيه كتب، فالذين يحسنون القراءة والكتابة لا يتجاوزون عدد أصابع اليد، والنبي ﷺ لم يُعهد عنه أنه كان يتنقل من معهد علمي إلى آخر، أو عنده كتاب يقرأ فيه، بل المعروف عنه ﷺ أنه لا يقرأ ولا يكتب في ذلك الزمان، والقرآن يقول: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ إِذَا لَا زِتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾^(١)، فلو كان عنده نشاط علمي وفكري، بأن كان يدرس ويقرأ في كتب السابقين؛ لارتاب الناس في صدق دعوته، وقالوا: ما تأتي به نتيجة تجارب علمية سابقة، ونقل بالتواتر تكذيب الآية الكريمة.

ولقد حاول المستشرق (gabriel reynolds) أن يثبت في كتابه (the quran bible) أن النبي ﷺ كان يقتبس من كتب السابقين، ولكنه قدم - وهو لا يشعر - قرينة مهمة على صدقه، فقد حاول أن يأتي بنصوص قرآنية مقتبسة من عدة كتب مكتوبة بغير العربية، وبعضها لم يترجم أصلاً إلا بعد ارتحال النبي، فلو كان النبي ﷺ اقتبس فعلاً، فهذا يتطلب أن يكون خبيراً بعدة لغات، ومحيطاً بكتب السابقين جميعاً، وهو بعيد جداً لا ينسجم مع حياته ﷺ، إلا أن يكون معلماً ومسدداً من الله تعالى.

والنبي ﷺ كان معترلاً للشأن الأدبي، ولم يدخل في مسابقات شعرية ولا مباريات أدبية، بل كان مشغولاً بالرعي، أو التجارة كما في فترة من حياته،

(١) سورة العنكبوت: آية ٤٨.

يقول تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾^(١). وفي ظل هذه البيئة - ومع كونه ﷺ لم يُعهد عنه نشاط فكري علمي - جاء بأمرين لا يتناسبان مع كونه من مكة:

الأمر الأول: العلوم والمعارف. فقد جاء النبي ﷺ بنظام فلسفي، ورؤية كونية، وبنظام تشريعي، ونظام حقوقي، وقانون أخلاقي، وقانون جزائي، و- أيضاً - أخبر ﷺ عن قصص ومعتقدات الأمم السابقة، وكان خبيراً فيها وناقداً ومصححاً، فالقرآن قسم الوجود إلى غني وفقير ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٢)، وجعل الغني محور الوجود؛ ولأنه محور الوجود فهو محور الحقوق، وكل حق يرجع إلى حقه تبارك وتعالى؛ ولأنه محور الحقوق فهو محور التشريع، لا يكتسب غير الله حقاً إلا في ظل تشريع الله تبارك وتعالى، ثم جعل قانوناً جزائياً رادعاً، وغير عقلية العربي الجاهلي، فالعربي كان يجعل القبيلة المحور والمعيار، فقال له النبي ﷺ: (لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى)، وجعل المقياس الكمال الروحي ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٣)، كما أنه جعل المرأة

(١) سورة يس: آية ٦٩.

(٢) سورة فاطر: آية ١٥.

(٣) سورة الحجرات: آية ١٣.

كالرجل مساوية له، فالنساء شقائق الرجال ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾^(١)، فليس للرجل تفوق على المرأة وتقدم إلا بالميزان الروحي والمعنوي ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٢). نعم، فرق المشرع الإسلامي في بعض الأحكام مراعاة للخصوصية التكوينية، فهناك فرق بين تكوين الرجل وتكوين المرأة، فجعل لذلك تشريعات تختلف، ومن الخطأ أن يساوي المشرع بين الرجل والمرأة في الوظائف والقوانين؛ لأن هناك فرقاً تكوينياً لا بد أن يُراعى، ولكن من حيث القرب إلى الله ومن حيث القيمة ومن حيث الجوهر لا فرق إلا بالتقوى، وبمقدار القرب من الله عز وجل.

كما أنه حول العربي من شخص يقاتل من أجل الناقة والبعير، أو القبيلة والحمية الجاهلية إلى شخص يقاتل من أجل المبادئ، فقد نقل أحمد (٣/ ٣٨٥): حدثنا سُرَيْجُ بْنُ النُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ - يَعْنِي: ابْنَ زَيْدٍ - ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، حَدَّثَنِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟ دَعُوا الْكُسْعَةَ؛ فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ».

وعند مسلم (٦٢ / ٢٥٨٤) من رواية أبي الزبير عن جابر قال: اقتتل

(١) سورة البقرة: آية ٢٢٨.

(٢) سورة الحجرات: آية ١٣.

غلامان: غلام من المهاجرين، وغلام من الأنصار، فنادى المهاجر أو المهاجرون: يا للمهاجرين، ونادى الأنصاري: يا للأنصار، فخرج رسول الله ﷺ، فقال: «مَا هَذَا؟ دَعَوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؟»، قالوا: لا يا رسول الله، إلا أن غلامين اقتتلا، فكسع أحدهما الآخر، قال: «فَلَا بَأْسَ، وَلْيَنْصُرِ الرَّجُلُ أَخَاهُ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا: إِنْ كَانَ ظَالِمًا فَلْيَنْهَهُ، فَإِنَّهُ لَهُ نَصْرٌ، وَإِنْ كَانَ مَظْلُومًا فَلْيَنْصُرْهُ».

إننا في هذا الزمان لا ندرك مقدار التميز، وعظمة الفارق بين ما عليه المجتمع الجاهلي، وما أرشد النبي ﷺ إليه من تعاليم إنسانية عالية، خصوصاً في تلك المنطقة النائية، والتي تحكمها أعراف البدو وعاداتهم الجاهلية، لقد استطاع هذا النبي العظيم أن يحول العربي من شخصية متعجرفة فوضوية تقاتل من أجل أي شيء، إلى شخصية هادفة منظمة في عاداتها وطقوسها، تحكمها روح جماعية واحدة، وتقاتل من أجل المبادئ العالية، وليس من أجل الأهداف الوضيعة.

كما أنه ﷺ كان خبيراً ناقداً للكتب السابقة حتى أن المستشرق مراكشي (توفي سنة: ١٧٠٠ للميلاد) قام بترجمة القرآن الكريم ثم ذكر في مقدمة هذه الترجمة أن القرآن يمتاز عن الإنجيل بأنه جمع كل ما هو حق، وتنزه عن كل ما هو باطل في الإنجيل، ولا يليق بالله تبارك وتعالى، ثم قال: لو خير وثني بين أن يؤمن بإله الإنجيل ويؤمن بإله القرآن لاختار أن يؤمن بإله القرآن.

فقد قال: «إن الإسلام قد احتفظ بكل ما هو أكثر عقلانية واحتمالاً في

المسيحية، وبكل ما يبدو في نظرنا موافقاً لقانون وسنة الطبيعة، وقد استبعد من عقيدته جميع ألوان الغموض الموجودة في الإنجيل والتي تبدو لنا غير معقولة وغير مفهومة، كما أنه استبعد من الأخلاق كل المبادئ المتزمتة والتي يصعب على الناس تطبيقها، مما يجعل الوثنيين اليوم يشعرون أنهم أكثر ميلاً إلى التكر لوثنيتهم واعتناق الإسلام بصدر رحب، واعتناق الشريعة المحمدية أكثر من الشريعة الإنجيلية. لقد اعتقدت دائماً أن القرآن والإنجيل حين يعرضان على غير المؤمنين فإنهم يفضلون القرآن على الإنجيل، ويجب أن لا نشك في أن كتاب محمد لا يقدم للعقل أفكاراً يصعب على العقل فهمها.. فمثلاً لا يوجد إلا إله واحد حكيم قدير، خالق الأشياء كلها ومدبرها، ومخالف للحوادث، ويجب أن يصلي له بخشوع. وأن يكون الإنسان متسامحاً مع الفقراء، ويؤدي مناسك الحج، ويطهر بدنه بالصيام، ويحافظ على العدل والوسطية وطيبة القلب والشفقة، وكذلك كل الفضائل السهلة الأخرى، فلا يجوز أن يؤذى إنسان، بل يجب أن يُحمى من السرقة والقتل والزنا وأي جريمة أخرى أيا كانت، ويجب أن يحتقر كل ما في الدنيا باعتباره عابراً وغير ثابت، ويستمسك فقط بالأعمال الصالحة التي لا يضيع أجرها، وسيكون لنا في النهاية يوم نعود فيه إلى الله لنُجزى على ما فعلنا. فالطيوبون سيجدون في السماء نعيماً مقيماً وما يشتهون، وسيذوق الأشرار في جهنم عذاباً لا نهاية له. كل هذه المبادئ، وكثير غيرها، تنتشر في القرآن بطريقة مفهومة وواضحة أكثر من

المبادئ الإنجيلية. ومن ناحية أخرى، إذا سمع أحد الوثنيين كلام أحد المبشرين أن الإله الحق الواحد الذي يتكلم عنه هو واحد وثلاثة، وأن الإله حل في رجل، وأنه فقير، وأنه عانى وصلب ومات ودفن، وكان هو نفسه معجزة، وفي سر القربان المقدس أن سر التوبة ضروري مطلقاً، وأن الزواج الأحادي لا بد منه، وأن الرباط المقدس لا ينفصم، وأن الحياة يجب أن تكون صليباً متصللاً، وأنه يجب أن يحسن الإنسان حتى إلى أعدائه، وأن السعادة الحقة تكمن في أشياء لا تراها العين، ولم تسمعها الأذن، ولم تخطر على قلب الإنسان، وحكم أخرى مشابهة لا تكون في متناول السمع الإنساني أو تكون صعبة جداً، إن لم تكن مستحيلة بالنسبة لحياتنا وحمقتنا هذه الأشياء ويقارنها بمذهب القرآن، انظر إلى أي جهة سيتجه؟.. إنه سيتوجه حتماً ناحية الإسلام.. إن غير المؤمنين يفضلون محمداً ويعتقدون دينه من كل قلوبهم»^(١).

والنبي ﷺ نقد الكتب السابقة نقد من عنده إحاطة بعدة لغات، كالسريانية والعبرية والمصرية القديمة واليونانية، وأنى للنبي ﷺ أن يطلع على هذه الكتب التي كتبت بهذه اللغات، ويصحح ما فيها بحسب الوضع الطبيعي لبيئة مكة، وهذا ما أوقع المستشرقين في حيص وبيص، فقد نقل المستشرق داكونا نظرة بعض المستشرقين إلى النبي الأكرم ﷺ، فذكر أن بعضهم يعتقد أنه ليس من مكة ولم يكن عربياً، وإنما جاء من بولونيا أو أنطاكيا أو القسطنطينية، وأنه كان

(١) دفاعاً عن محمد ﷺ مقدمة الدكتور محمد عمارة: ص ٣٤، ٣٥.

كردينال أو بطريك أو راهباً مسيحياً، وعنده اطلاع على الكتب السابقة، ووقع خلاف بينه وبين زعيم المسيحيين، فأراد أن يهرطق في الديانة المسيحية، فانتقل إلى جزيرة العرب، وزعموا أن اسمه (نوقولا) أو (أوكين) أو (بلاجيوس)^(١)، وكل هذا التخطئ سببه أن هؤلاء لا يتصورون أن هذه العلوم والمعارف صدرت من شخص يعيش في الجزيرة العربية، فلا بد أن يكون شخصاً عاش في الحواضر العلميّة، وعنده تجربة علميّة، وهو لذلك محيط بالكتب السابقة، وبما ذكره الأولون، فاضطروا إلى أن ينتحروا عقلياً، فيقولون: بأن النبي ﷺ ليس عربياً، وليس من مكة، فيرتطمون مع الحقائق التاريخية.

الأمر الثاني: هو بلاغة القرآن الكريم.

فالنبي ﷺ - كما ذكرنا - لم تكن له تجربة أدبية ظاهرة وواضحة، فما كان ﷺ يحضر في سوق عكاظ ويسابق الأدباء والشعراء، ولم يُعرف عنه أنه يحفظ الأشعار ويُلقِيها على الناس، وفي لحظة روع سكان الجزيرة العربية بالقرآن الكريم، الكتاب البليغ العجيب في بلاغته إلى درجة أن الوليد ابن المغيرة قال: (لقد سمعت من محمد ﷺ أنفاً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وإنه يعلو ولا يعلو عليه)^(٢)، والنبي ﷺ تحدى العرب أن يأتوا بمثل القرآن ﴿قُلْ لِّئِنْ

(١) نفس المصدر ص ٣٧.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٦٨.

اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿١﴾، ثم خفف عليهم وخفض التحدي، وطالب بعشر سور ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢﴾، فما استطاعوا، فخفف عليهم واكتفى بسورة ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣﴾، فما استطاعوا، والأمر بسيط، وهو أن يحاولوا مجارة سورة الناس - مثلاً -، فما استطاعوا بل واجهوا النبي ﷺ بالسيوف والرماح والنبال، والنتيجة كسر النبي ﷺ سيوفهم ورماحهم ورد نباهم إلى حناجرهم.

لقد كان بإمكانهم أن يوظفوا الطاقات الأدبية ويأتوا بمثل القرآن، وبهذا تسقط دعوة النبي إن كانوا صادقين؛ لأن الناس في ذلك الزمان فصحاء، ويعرفون اللغة، وعندهم قدرة على الموازنة، ولو جاءوا بكلام كالقرآن لاقتنع كل الناس أن النبي ﷺ ليس متميزاً، والقرآن ليس من عند الله، ولكن لم يسلكوا هذا الطريق السهل - إن كان ممكناً -، وإنما سلكوا صعود الحجارة والجبال فتدحرجت عليهم الحجارة حتى قضت عليهم.

(١) سورة الإسراء: آية ٨٨.

(٢) سورة هود: آية ١٣.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٣.

إذن، هذه قرائن تدل على أن النبي ﷺ كان مؤيداً من الله وجاء بالقرآن من الله تبارك وتعالى، وهذا نظير القرائن التي ذكرها هرقل الروم، فعن عبد الله بن عباسٍ ينقل أن أبا سفيان بن حربٍ، أخبر: (أَنَّ هِرْقَلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ - وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّامِ - فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سَفِيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عِظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ، وَدَعَا لِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سَفِيَانَ: فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا. فَقَالَ أَذْنُوهُ مِنِّي، وَقَرَّبُوا أَصْحَابَهُ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ. ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. فَوَاللَّهِ لَوْ لَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْتِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ... كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ. قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ قُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ. قَالَ: أَيْزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخِطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَذْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا. قَالَ: وَلَمْ تُمَكِّنِي كَلِمَةً أَدْخُلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ. قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ. قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،

وَأَتْرَكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ وَالصَّلَاةِ، فَقَالَ (هرقل) لِلرَّجُلَيْنِ: قُلْ لَهُ: سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ: لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَأْتِيهِ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ: لَا، قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ: لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَسَأَلْتُكَ: أَشَرَفُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ، أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ: أَنَّ ضَعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ: أَيْرِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ: أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ: أَيْرَتَدُّ أَحَدٌ سَخَطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ: لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ: لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ: بِمَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ: أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاجُكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ. فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلَصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّعْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَعَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ^(١).

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي: رقم ٧.

المحطة الخامسة

النبوة فوق الشبهات



سوف نتناول - إن شاء الله - في هذه المحطة جملة من الشبهات، ونحاول أن نُجيب عليها:

هل كان القرآن من الله الذي يريد هداية الكل؟

الشبهة الأولى: - هي الشبهة التي طرحها بعض المعاصرين - إن القرآن الكريم ذكر خمسة وعشرين نبياً بالاسم ولم يزد عليهم، وكلهم من الشرق الأوسط، وهم معروفون في البيئة الثقافية التي كان يعيش فيها النبي ﷺ، فلم يذكر القرآن أنبياءً من أفريقيا أو أوربا أو من شرق آسيا، وهذا يدل على أحد أمرين:

الأمر الأول: القرآن من صناعة النبي ﷺ، وليس من عند الله؛ لأن النبي ابن بيئته ويأخذ من ثقافة مجتمعه، وحيث إن مجتمعه لا يعرفون إلا الأنبياء المتداولين في الشرق الأوسط، لم يعرف النبي ﷺ غيرهم، فلم يذكر في القرآن الكريم سواهم، ولو كان القرآن من عند الله عز وجل الذي يعلم بجميع الأنبياء إن وجدوا، بما في ذلك الأنبياء الذين بعثوا في الأماكن الأخرى - لوجدنا أنبياءً غير الأنبياء الذين يعرفهم العرب في زمان النبي ﷺ.

الأمر الثاني: أن يكون القرآن من الله، وهو صنعته مباشرة، إلا أنه تبارك وتعالى لا يريد هداية كل الناس - كما يعتقد المسلمون -، فإنه لو كان يريد هداية كل الناس، لبعث الأنبياء في جميع القارات، ولو بعث الأنبياء في جميع القارات، لذكر في القرآن جميع الأنبياء.

أليس ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١) فلماذا لا يذكر الله تبارك وتعالى قصصهم في القرآن؟!

فعدم ذكر أنبياء غير الأنبياء الموجودين في الشرق الأوسط يدل على أن الله تبارك وتعالى لم يبعث أنبياء في غير الشرق الأوسط، وهذا يعني أنه لا يريد هداية جميع الناس، وأن وظيفة النبوة تنحصر في الشرق الأوسط فقط، وهي المنطقة التي تواجد فيها الأنبياء الذين ذكرهم القرآن بناء على أنه من عند الله تبارك وتعالى.

في مقام الجواب على هذه الشبهة أذكر ثلاثة أجوبة:

الجواب الأول: هو أن القرآن الكريم يبين أن عدد الأنبياء كثر جداً، وهو يغطي جميع الأمم، وأكثر بكثير من عدد الأنبياء الذين ذكرت أسماؤهم في القرآن الكريم، وهذا ما تدل عليه عدة آيات منها:

١- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٢).

(١) سورة يوسف: آية ١١١.

(٢) سورة النحل: آية ٣٦.

٢- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(١).

٣- ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾^(٢)، فإن هذه الآية تدل على أن الله تبارك وتعالى عدد الشرائع، وبسبب تعدد الشرائع تعددت الأمم، فقلوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً﴾ بيان لتقسيم الله تعالى الناس إلى أمم متعددة بعدد الشرائع التي يأتي بها الأنبياء؛ ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، أي لأنزل شريعة واحدة، فكنتم أمة واحدة، فوحدة الشريعة تؤدي إلى وحدة الأمة، وتعدد الشريعة يؤدي إلى تعدد الأمة، والحكمة الإلهية اقتضت أن تتعدد الشرائع ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

إذن، عدد الأنبياء كثير جداً بعدد الأمم، وهذا ما تؤيده جملة من الروايات، مثلاً في الرواية المشهورة: (عن أبي ذر سأل النبي ﷺ، فقال مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبي)^(٣)

وفي الاختصاص: روي عن ابن عباس أنه قال: أول المرسلين آدم،

(١) سورة يونس: آية ٤٧.

(٢) سورة المائدة: آية ٤٨.

(٣) بحار الأنوار: ج ١١ ص ٤٣.

وآخرهم محمد ﷺ وكانت الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبي، الرسل منهم ثلاث مائة، وخمسة منهم أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ، وخمسة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل، ومحمد ﷺ. وخمسة سريانيون: آدم، وشيث وإدريس، ونوح، وإبراهيم ﷺ وأول أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى. والكتب التي أنزلت على الأنبياء ﷺ مائة كتاب وأربعة كتب، منها على آدم خمسون صحيفة، وعلى إدريس ثلاثون، وعلى إبراهيم عشرون، وعلى موسى التوراة، وعلى داود الزبور، وعلى عيسى الإنجيل، وعلى محمد الفرقان ﷺ^(١).

وفي رواية عن صفوان بن مهران الجهم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لي يا صفوان هل تدري كم بعث الله من نبي؟ قال: قلت: ما أدري قال: بعث الله مائة ألف نبي وأربعة وأربعين ألف نبي ومثلهم أوصياء بصدق الحديث وأداء الأمانة والزهد في الدنيا وما بعث الله نبياً «خيراً» من محمد ﷺ ولا وصياً «خيراً» من وصيه^(٢).

وفي رواية مرسلة: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أبو ذر: يا رسول الله كم بعث الله من نبي؟ فقال: ثلاث مائة ألف نبي وعشرين ألف نبي، قال: يا رسول الله فكم المرسلون؟ فقال: ثلاث مائة وبضعة عشر، قال: يا رسول الله

(١) الاختصاص: ص ٢٦٤.

(٢) الاختصاص: ص ٢٦٣.

فكم أنزل الله تعالى من كتاب؟ فقال: مائة وأربعة وعشرون كتاباً «أنزل على إدريس خمسين صحيفة وهو أخنوخ وهو أول من خط بالقلم وأنزل على نوح [عشر صحائف] وأنزل على إبراهيم عشرًا» وأنزل التوراة على موسى والزبور على داود والإنجيل على عيسى والقرآن على محمد ﷺ^(١).

إذن، بمقتضى آيات القرآن الكريم ليس عدد الأنبياء منحصرًا في خمسة وعشرين نبياً، وإنما عددهم أكثر من ذلك بكثير، وتؤيد ذلك هذا الروايات المختلفة في العدد والمتفقة في أصل الكثرة، ومن المحتمل جداً أن بعض الأسماء البارزة واللامعة في سماء العلم والحكمة والفضيلة كانوا من الأنبياء، ولكن بسبب عاملين لم تنقل صفة النبوة عنهم:

١- الفاصل الزمني الطويل بينا وبينهم.

٢- اختلاف اللغات، وتعددت الأسماء باختلافها، فصار لهم أسماء مورثة باللغة اليونانية - مثلاً - بينما في اللغة العبرية، واللغة العربية صارت لهم أسماء أخرى.

ففي رواية ذهب عمرو بن العاص إلى الإسكندرية ثم رجع إلى المدينة، فقال له النبي ﷺ: ما رأيت هناك، فقال: رأيت قوماً يتطلسون ويجمعون حلقاتاً يذكرون رجلاً يُقال له: أرسطو طاليس لعنه الله، قال له النبي ﷺ: مه -

(١) الاختصاص: ص ٢٦٤.

نهاه عن اللعن - ثم قال: إن أرسطو طاليس كان نبياً فجهله قومه^(١).

و قال السيد رضي الدين ابن طاووس رحمته الله: «ووجدت في كتاب «ريحان المجالس» وتحفة الموانس تأليف أحمد بن الحسين بن علي الرخجي وسمعت من يذكر أنه من مصنفي الإمامية وعندنا الآن تصنيف له آخر اسمه «أنس الكريم» وقد كان يروي عن المرتضى ما هذا لفظه: حدثني أبو الحسن الهيثم أن الحكماء العلماء الذين أجمع الخاصة والعامة على معرفتهم وحسن أفهامهم ولو يتطرق الطعن عليهم في علومهم مثل هرمس المثلث بالحكمة وهو إدريس النبي عليه السلام، ومعنى المثلث، أن الله أعطاه علم النجوم والطب والكيمياء ومثل: (أبرخسي وبطليموس) ويقال: إنهما كانا من بعض الأنبياء وأكثر الحكماء كذلك، وإنما التبس على الناس أمرهم؛ لعله أسماهم باليونانية ومثل نظرائهم ممن صدر عنهم العلم والحكمة المفضلين»^(٢).

وقال صدر الدين الشيرازي رحمته الله عن بعض حكماء اليونان: «كانوا مقتبسين نور الحكمة من مشكاة النبوة ولاخلاف لأحد منهم في أصول المعارف، وكلام هؤلاء في الفلسفة يدور على وحدانية الباري وإحاطة علمه بالأشياء كيف هو وكيفية صدور الموجودات وتكوين العالم عنه وأن المبادي الأول ما

(١) محبوب القلوب، المقالة الأولى: في أحوال الحكماء وأقوالهم من آدم إلى بداية الإسلام: ص ٢٨١، ص ١١٧.

(٢) فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم: ص ١٥١، دار الذخائر - قم.

هي وكم هي وأن المعاد ما هو وكيف هو وبقاء النفس يوم القيمة»^(١).
ونحن لا نجزم بنبوة من ذكر، ولكن نقول هذا من المحتمل، فشان بعضهم بحسب المنقول عنه يناسب شأن الأنبياء.

الجواب الثاني: إن القرآن الكريم فرّق بين عنوان نبي ورسول، وبين عنوان نذير، يقول عز من قائل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(٢)، وتعبر (نذير) أعم من (النبي) أو (الرسول)، فالنذير قد يكون نبياً وقد يكون وصياً، وقد يكون حجة من الله تبارك وتعالى، وهذا ما تؤيده جملة من الروايات، ففي كتاب ابن المغازلي الشافعي، بإسناده عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ، أنه قال: لكل نبي وصي، ووارث، وإن وصيي ووارثي علي ابن أبي طالب»^(٣).

فإذا كان عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرين ألف نبي، فلكل واحد منهم وصي ووارث.

وفي الكافي الشريف عن أبي عبد الله عليه السلام قال: مَا زَالَتِ الْأَرْضُ إِلَّا وَلِلَّهِ فِيهَا الْحُجَّةُ يُعَرِّفُ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ^(٤)، فيوجد أنبياء ورسول، ويوجد أوصياء، ويوجد حجج، وهؤلاء منتشرون على وجه الأرض

(١) صدر الدين الشيرازي - الأسفار الأربعة: ج ٥ ص ٢٠٧.

(٢) سورة فاطر: آية ٢٤.

(٣) نهج الحق وكشف الصدق: ص ٢١٤.

(٤) الكافي: ج ١ ص ١٧٨.

يبلغون أحكام الله تبارك وتعالى، ويعرفون الحلال والحرام ويدعون إلى سبيل الله تبارك وتعالى، ثم بعد هؤلاء يوجد العلماء الربانيون، وقد تعلموا في مدرسة الأنبياء والأوصياء والحجج، ويقومون من بعد الأنبياء والأوصياء والحجج بالإنذار، وتبليغ معالم الدين، وفي ذلك إنذار للناس كافة.

وقد دلت جملة من آيات القرآن الكريم على عموم نبوة النبي الخاتم، يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(١)، ويقول: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٢)، ويقول: ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾^(٣)، ويقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤)، ويقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٥)، فكيف يقال بعد هذا باختصاص هداية الله بالشرق الأوسط؟!

إذن، الباري تبارك وتعالى لم يكتفِ بأن أرسل في كل أمة رسولا، بل جعل

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

(٢) سورة الفرقان: الآية ١.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٩.

(٤) سورة سبأ: آية ٢٨.

(٥) سورة الأنبياء: آية ١٠٧.

في كل أمة وصياً وحججاً، وهؤلاء علموا الأمم، فوجد العلماء الربانيون الذين يُبينون معالم الدين، ويروجون أحكام الله تبارك وتعالى، وكل هذا يصب في دائرة التبشير والإنذار.

عالم الدنيا له نظام ذاتي قد يمنع وصول معالم الدين:

نعم، ينبغي أن نلتفت إلى أمر مهم، وهو: أن الأنبياء والأوصياء والعلماء يقومون بوظيفة الإنذار في هذه النشأة، وهي عالم الدنيا وعالم المادة، وعالم الدنيا تحكمه قوانين هي ذاتية له، ومن صميم حقيقته، ولا يمكن أن تنفك عنه، فعالم الدنيا هو عالم المقتضيات المتعارضة، والتي قد تصطدم فيما بينها، ويزاحم بعضها بعضاً فلا يترتب الأثر، وهذه طبيعة عالم الدنيا الذي خلقنا منه ونعيش فيه، وإذا أراد الله تبارك وتعالى أن يُغير قوانين عالم الدنيا لا بد أن يُغير عالم الدنيا، وأما مع وجود عالم الدنيا، فقوانينه لازمة له حاكمة، وهذا نظير (الزوجية) و(الفردية) بالنسبة للأعداد، فلا يمكن أن يوجد العدد أربعة، ولكن مع تجريده من كونه زوجاً، أو العدد ثلاثة مع تجريده من كونه فرداً، فهذه خواص ذاتية للأعداد، ويستحيل سلبها مع الحفاظ على حقيقة العدد، والأمر كذلك بالنسبة إلى عالم الدنيا، فقوانينه خاضعة لطبيعته وخواصه الذاتية، وقوانينه متعددة، وقد تتعارض في الأثر، فعلى سبيل المثال توجد بذرة شجرة التفاح، وهي يمكن أن تتحول إلى نبتة، ثم إلى شجرة، فهي تملك اقتضاء أن تتكامل، وهنالك قانون خاص لذلك، ولكن في المقابل قد

يأتي حيوان ويأكل هذه البذرة، أو يأكل النبتة فيما إذا تحولت البذرة إلى نبتة، فلا توجد الشجرة؛ لأن البذرة لم تسلك طريقها نحو غايتها المنشودة، بسبب وجود مانع، فطبيعة عالم الدنيا أنه عالم تتزاحم فيه المقتضيات.

و الأنبياء والأوصياء والعلماء مقتضيات لهداية الإنسان، ولكن قد يزاحم هذه المقتضيات مقتضيات الضلال، أو أسباب تمنع من وصول هداية الأنبياء والأوصياء والعلماء إلى الناس، وهذا ما يؤدي إلى انقسام الناس إلى مهتدي وضال، وإلى عالم وجاهل، فالأنبياء يقومون بدور الإنذار وفق قوانين عالم الدنيا، وهذه القوانين قد تؤدي إلى عدم وصول هداية الأنبياء إلى بعض الناس، إلا أنه في عدل الله تبارك وتعالى من لم تصل إليه الهداية، وكان جاهلاً قاصراً يقبح على الله عز وجل عقابه، يقول عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١)، ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٢).

الجواب الثالث: إن صاحب هذه الشبهة ذهب إلى أن القرآن ذكر خمسة وعشرين نبياً، وهم من الشرق الأوسط، ومعروفون في البيئة الثقافية التي كان يعيش فيها النبي ﷺ، وعليه نكون بين أمرين إما أن نقول بأن القرآن من صنع النبي ﷺ، أو نقول: هو من صنع الله إلا أن الله تبارك وتعالى أراد هداية الذين

(١) سورة الإسراء: آية ١٥.

(٢) سورة يونس: آية ٤٧.

يعيشون في الشرق الأوسط فقط، وهذا الكلام نظير ما ذكره الدكتور عبد الكريم سروش في كتابه بسط التجربة النبوية، فالدكتور سروش يعتقد أن النبي ﷺ هو من أَلَف القرآن الكريم، فلم ينزل القرآن بألفاظه على النبي ﷺ، وإنما النبي هو الذي قام بصياغة القرآن الكريم، ويذكر على ذلك شواهد^(١) منها: أسماء الحيوانات التي ذكرت في القرآن الكريم، فهي بأجمعها من الحيوانات المتواجدة في الجزيرة العربية أو في أماكن قريبة من الجزيرة العربية، وهذا يدل على أن النبي ﷺ ابن بيئته، ومُنْفَعِل بثقافة مجتمعه، ولهذا لم يعرف إلا ما يعرفون من الحيوانات، فذكر الحيوانات المألوفة عندهم، أما لو كان الذي صاغ القرآن هو الله تبارك وتعالى خالق كل شيء، والذي يعلم بجميع الحيوانات لوجدنا في القرآن حيوان - مثلاً - الباندا أو الكنغر أو تنين الكومودو، فهذه الحيوانات لا نجدها في القرآن، لأن من صاغ القرآن لا يعلم بوجودها، وكذلك إذا لاحظنا الفواكه الموجودة في القرآن نجد أنها بأجمعها فواكه كانت موجودة في الجزيرة العربية، ويعرفها العرب الذين عاش النبي ﷺ بينهم، فلا نجد مثلاً المانجو، والسرساك (sirsak)، أو دوريان (Durio)؛ لأن هذه الفواكه لم تكن معهودة في الثقافة العربية، والنبي مجرد منفعل بالثقافة العربية، وانعكس انفعاله على صياغته للقرآن الكريم.

وعندنا على هذا الكلام تعليقان:

(١) راجع ص ١٧ وما بعدها.

التعليق الأول: هو أنه ليس من المعلوم أن القرآن لم يذكر اسم نبي من غير الشرق الأوسط، فهذه الشبهة مبنية على أن جميع الأنبياء المذكورين في القرآن هم من الشرق الأوسط، ونحن نقول: هذا المعنى لم يثبت، ونحتمل أن بعض الأنبياء المذكورين في القرآن ليس من الشرق الأوسط، فالقرآن ذكر ذا الكفل، فمن هو ذا الكفل؟ وأين كان يعيش؟ هل هو من الشرق الأوسط أم لا؟

هذا ما لم يُبينه القرآن الكريم، ويوجد اليوم دراسات في تحديد من هو ذو الكفل، وبعض الباحثين يقول: هو نبي الله حزقيال المذكور عند اليهود، والبعض يقول: هو زرادشت، فإن الباحث داود السلطان في بحث بعنوان: (هل زرادشت نبي؟) نقل عن بعض الباحثين الذهاب إلى أنه ذو الكفل، وبعض الباحثين يعتقدون أنه بوذا، فالدكتور عامر الحافي نقل عن باحث هندي اسمه: (دي محمد) أنه يرى أن ذا الكفل هو بوذا، ويقول: كلمة (كفل) هذه مُعربة من كلمة (كافيلواستو)، وهي القرية التي ولد فيها بوذا في النيبال.

إذا صح هذا الكلام سيكون ذو الكفل من غير الشرق الأوسط؛ لأن النيبال ليست من الشرق الأوسط، وطبعاً لسنا بحاجة إلى إثبات صحة ذلك، فنحن يكفيننا احتمال أن ذا الكفل ليس من الشرق الأوسط حتى تنهار هذه الشبهة، فهذه الشبهة مبنية على أن القرآن لم يذكر أنبياء من خارج الشرق الأوسط، وبالتالي سيكون النبي ﷺ، هو الذي كتب القرآن؛ لأنه مُنفعل بثقافته العربية التي ما كانت تعرف الأنبياء الخارجين عن الشرق الأوسط.

في مقام الرد نقول: نحتمل أن ذا الكفل ليس من الشرق الأوسط، فلكي تكون هذه الشبهة صحيحة على صاحبها أن يُثبت أنه من الشرق الأوسط، وإلا ستكون شبهته مجرد دعوى لا دليل عليها.

التعليق الثاني: ذكر القرآن الكريم أن الله تبارك وتعالى نقل قصص بعض الأنبياء، ولم ينقل قصص البعض الآخر، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾^(١)، والسؤال الذي نواجهه: لماذا ذكر القرآن أحداثاً ترتبط ببعض الأنبياء، ولم يذكر أحداثاً ترتبط بكل الأنبياء؟

وأجاب صاحب الشبهة بأن الوجه في ذلك أن النبي ﷺ هو الذي كتب القرآن، وحيث إنه لا يعرف الأنبياء الخارجين عن منطقته لم يذكر أسماءهم، وإذا قلنا: الله تبارك وتعالى هو الذي صنع القرآن، فهذا يدل على أنه لم يبعث رسلاً خارج منطقة الشرق الأوسط، وإلا لذكرهم.

ونقول تعليقاً على كلامه: نحتمل - أيضاً - وجهاً آخر يرجع إلى أمرين: الأمر الأول: ليس القرآن كتاب تاريخ لكي يذكر قصص جميع الأنبياء أو الأحداث الواقعة قبل النبي ﷺ بآجمعها، وإنما هو كتاب هداية، فقد أنزل لكي يُبين للناس معالم الدين، ويرسم لهم الصراط المستقيم، فإذا تعرض القرآن لبعض القصص، فهو يذكرها باعتبار أنها تساهم في تحقيق الغاية، وهي

الهداية، فإذا كانت الغاية تتحقق ببعض القصص، فلماذا يسرف القرآن الكريم في سرد جميع القصص، وقد تحققت الغاية من بعضها.

الأمر الثاني: إن حكمة الله تبارك وتعالى اقتضت أن يأخذ القرآن كفايته من القصص في هداية الناس من قصص الأنبياء المألوفين والمعروفين في الثقافة العربية، التي هي الحاضنة الأولى لدعوة النبي الأكرم ﷺ، فإن النبي بعث في مجتمعاتهم، ولا بد من نجاح دعوته فيهم أولاً، ثم منه تنطلق إلى العالم. ولو أن القرآن الكريم استشهد بقصص أنبياء مجهولين في الحضارة العربية، فسوف يؤيد ذلك إلى أن تثار جملة من الأسئلة الجانبية التي تشغل الناس عن الهدف والغاية، وفهم الدستور والقانون والموعظة الربانية.

تصور لو أن القرآن استشهد في مقام ذكر الحيوانات بالكنغر، والعرب لا يعرفون هذا الحيوان، فإنه سوف تثار في أذهانهم أسئلة كثيرة بسبب طبيعة الفضول، وينشغلون بمعرفة ماهية هذا الحيوان، ونسج التصورات عنه - حول شكله وطوله وعرضه ولونه وطبيعة حياته -، ويدخلون في أبحاث جانبية وينشغلون عن تعاليم القرآن.

وكذلك الأمر لو ذكر فاكهة لا يعرفونها أو ذكر نبياً لا يعرفونه، فإنهم سوف ينشغلون أيما انشغال بمعرفة هذه الفاكهة الجديدة أو النبي الجديد، فالحكمة الإلهية تقتضي مراعاة الحاضنة الأولى لدعوة النبي ﷺ بأن يستشهد القرآن بشواهد قريبة من أذهانهم، لها تجذر في فكرهم وفي ثقافتهم، وهذا ما

فعله القرآن الكريم.

لماذا لا يحاطبنا الله مباشرة؟

الشبهة الثانية: - وهي التي ذكرها الفيلسوف جان جاك روسو^(١) حيث ذكر ما مضمونه: أنا أفضل أن الله تبارك وتعالى يقوم بخطابي مباشرة، بدون جعل وسائط بيني وبينه، فإذا كان عنده تشريعٌ وقوانين، فلماذا لا يخاطبني مباشرة، وينزل عليّ الوحي، كما أنزل الوحي على الأنبياء الذين يدعى أن الله تبارك وتعالى خاطبهم.

لماذا الباري تبارك وتعالى يعتمد على وسائط في نقل الوحي بالطريقة المتعارفة، والتي قد تراحم فلا تصل الهداية إلى كل إنسان، أليس من الأفضل أن يقوم الباري تبارك وتعالى بخطاب كل إنسان مباشرة، فالخطاب المباشرة أحفظ وأكثر تحقيقاً للهدف والغاية، وهو نزول ووصول التعاليم إلى كل فرد من أفراد المجتمع؟

الجواب: كما أن الخطاب المباشر أبلغ في إلقاء الحجة، فإذا أرسل رسولاً احتاج إلى الدخول في بحث متعب ومضن، وهو بحث إثبات صدق ذلك النبي، وأما إذا خاطبني مباشرة فسوف تحصل عندي القناعة، ويحصل عندي اليقين التام؛ لأن الله تبارك وتعالى إذا ألقى الوحي يوقفنا على حقائق وجدانية نقف عليها بالعلم الحضورى، كما نقف على أنفسنا، وعلى حالة الخوف التي

(١) دين الفطرة: ص ٩٤.

نشعر بها أو حالة الاطمئنان أو الحب أو البغض، فإن المرء لا يشك في واقعية هذه الحالات النفسية، وكذلك الأمر عند إلقاء الوحي؛ ولهذا ذهب الفيلسوف روسو إلى الاعتقاد بأن الدين الذي أراده الله تبارك وتعالى منا هو دين العقل والفطرة؛ ولهذا عنون كتابه بعنوان: (دين الفطرة)، وأما الدين الذي فيه تعاليم تنزل من السماء وراء العقل والفطرة ويتوسط فيه أنبياء فليس ديناً حقاً في نظره.

في مقام الجواب على هذه الشبهة أذكر جوابين:

الجواب الأول: تقدم - سابقاً في المحطة الثانية - أن حاجة المجتمع إلى الأنبياء لا تنحصر في أخذ التعاليم الإلهية حتى يقال لماذا لا يلغي الباري تبارك وتعالى النبوة، ويلقي الوحي على كل إنسان مباشرة، أو بعبارة أخرى: يجعل كل إنسان نبياً، فالإنسان علاوة على حاجته إلى العلم والمعرفة يحتاج إلى أن يهذب نفسه ويحدث التوازن الروحي، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بوجود قدوة وأسوة معصومة في مقام السلوك والتطبيق والعمل، وتكون لها قيادة مركزية في المجتمع.

الجواب الثاني: ما ذكره القرآن الكريم في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ أَغَلَمَ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(١)، ففي هذه الآية جواب علمي دقيق على شبهة المشركين في

زمن النبي ﷺ، و- أيضاً - على شبهة جان جاك روسو، وأيّن هذا الجواب العلمي الدقيق ضمن مقدمتين:

المقدمة الأولى: ذكرنا - سابقاً - أن قانون عالم الدينا ذاتي بالنسبة لعالم الدنيا، فلا يمكن التفكيك بين الدنيا وبين قوانينها، فقوانين عالم المادة سببها نفس خاصية المادة، فهي قوانين ذاتية لازمة لعالم المادة، وقوانين عالم المادة الحاكمة سبب اختلاف قابليات البشر، فلماذا يولد مولود عبقرى ومتوسط الذكاء وغبي؟

الجواب: وجود عوامل وأسباب معقدة ترجع إلى طبيعة هذا العالم، فنحن تخلقنا في عالم تعترينا فيه الأسباب والمقتضيات المتعددة، فتؤثر هذه العوامل فينا، وفي بعض الأحيان تؤثر تأثيراً تاماً، فتوجد قابلية تامة وتتحصل القابلية على شروط خروجها من القوة إلى الفعل بنسبة ١٠٠٪، وفي بعض الأحيان تتراحم بنسبة ٥٠٪، فتوجد فعلية الكمال بنسبة خمسين بالمائة، وبعض الأحيان تُتراحم بنسبة ١٠٠٪، فيتحقق الحرمان التام؛ ولهذا نجد المجانين، وتتحول بعض البذور إلى غذاء للحيوانات، وهذا هو السر وراء وجود أشخاص مع عاهات وأشخاص بدون عاهات، فهذا الكون يعمل وفق نظام دقيق تتموج فيه الأسباب، وتتأثر ببعضها البعض، وكل موجودٍ في نقطة من خريطة عالم المادة هو مرهون بنقطته لا يمكن أن ينفك عنها، فبعض الناس ببساطة يقول: لو كنت في زمن النبي ﷺ، أو كان النبي ﷺ في زماننا، أو يقول: لو كنت

سلمان المحمدي (رضوان الله تعالى عليه) أو كنت حبيب بن مظاهر (رضوان الله تعالى عليه).

إن هذا الكلام فيه تسامح، ومقبول من الناحية العرفية، ولكنه من الناحية العقلية الدقيقة ليس مقبولا، إذا كان مبنياً على الإمكان الوقوعي، فكل شخص متولد من مادة نشأت من بدن والديه، ووالداه تكونا من مادة خاصة، وهما إنما تكونا وفق أسباب خاصة، وهذه الأسباب مرهنة بزمان خاص ومكان خاص، فالأسباب مقومات الهوية، ولو نقل الشخص من موقعه، وانتزع من زمانه ومكانه، وغرس في موقع آخر، فلن يكون هو، بل سيكون هوية أخرى.

فالله كما خلق عوالم أخرى خلق عالم المادة وموجوداته، وهذا العالم هو هو، وقوانينه من طبيعته التي هي هو، فهي لازمة، ولها أثرها، ومن ذلك أن حقيقة كل موجود لا يمكن أن تكون غيره، ومن حقيقته مقدار قابليته المتفرعة على العوامل المؤثرة في وجوده، ولهذا أقول لك أيها القارئ الكريم: أنت حقيقتك أنك في هذا الموقع الذي تشغله، لا يمكن أن تكون في موقع آخر، فترتيب عالم المادة كترتيب الأعداد، فهل يمكن أن ينتقل (٢) من موقعه بين (١) و(٣)، ويكون بين (١٠) و(١٣)؟

الجواب: لا يمكن؛ لأنه لن يقبل أن يوضع إلا إذا كان (١٢).

إذن، الموجودات تتفاوت في القابلية، وتفاوت القابلية راجع إلى قانون

تكوينني دقيق يحكم عالم الدنيا، وهو ذاتي للعالم.

المقدمة الثانية: من القابليات التي تتفاوت بسبب اختلاف العوامل والقوانين الحتمية في عالم الدنيا قابلية تلقي الوحي مباشرة عن الله تبارك وتعالى، فليس كل إنسان بمقدوره أن يتلقى الوحي مباشرة عن الله، والباري تبارك وتعالى مع هذه القدرة اختار أن يجعل وسائط، لكي يقول جان جاك روسو: أنا أفضل أن الله تبارك وتعالى يقوم بخطابي المباشر؛ لأن هذا أبلغ في إلقاء الحجة وأوثق في إيصال التعاليم، فبعض الناس فقط عندهم هذه القابلية، ويوجد عندهم المتلقي الخاص الذي يستقبل الوحي الإلهي، وبعض الناس لا توجد عندهم هذه القابلية، لهذا بعد أن نقل القرآن الكريم قول المشركين: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾^(١)، ومفاده: (نريد أن ينزل الله علينا الوحي، كما نزل على النبي الأكرم ﷺ، ولن نؤمن إلا إذا أنزل علينا الوحي مباشرة) رد عليهم بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، ومعنى ذلك أن نزول الوحي ليس أمراً اعتباطياً، ويمكن أن يتحقق لأي إنسان، والباري تبارك وتعالى بلا مرجح يُنزل الوحي لبعض الناس ويجعلهم يبلغون بالطرق المتعارفة، فيصل تارة، ولا يصل أخرى، إن الباري تبارك وتعالى حكيم جواد فيّاض، وإن وجدت قابلية تامة لتلقي الوحي يُنزل الوحي على صاحبها مباشرة، إذا كان في ذلك مصلحة، وأما

(١) سورة الأنعام: آية ١٢٤.

الذي لا توجد عنده قابلية، فلا طريق لوصول الوحي، إلا توسط من عنده القابلية، وهذا معنى ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، فإن للوحي محلاً خاصاً، وهو صفوة في قابليته وتكوينه الروحي، يقول تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(١)، فليس كل ملك عنده قدرة على أن ينقل الوحي، وليس كل بشر عنده قدرة على أن يتلقى الوحي، فالوحي يحتاج إلى اصطفاء من الله تبارك وتعالى، ومن عنده القابلية والمتلقي التكويني سيستقبل مباشرة، ومن يفتقر إلى وجود المتلقي، فليس من حقه أن يقول: لماذا لا ينزل عليّ الوحي، فإن إمكانية نزول الوحي ليست موجودة، وإذا بعث الله أنبياءً وجاءوا بحجة دامغة، وبآيات بيّنة ينبغي علينا أن نؤمن، ونأخذ بشاهد صدق الأنبياء لا أن نتمسك بمثل هذه الشبهات التي لا قيمة لها، وتفتقر إلى البصيرة والعلم والمعرفة، فالذي أراد الله تبارك وتعالى له البصيرة؛ لأنه هو يريد الهداية سوف يأخذ بأدلة الأنبياء، أما من ختم الله على قلبه بسبب سوء علمه، فلن ينفع معه ألف دليل.

موانع تصديق المعجزة عند هيوم:

الشبهة الثالثة: وهي الشبهة التي ذكرها الفيلسوف ديفيد هيوم (David Hume) في كتابه: (تساؤلات حول الفهم البشري)^(٢)، فهيوم يرى أن الطريق

(١) سورة الحج: آية ٧٥.

(٢) ص ١٣٠.

الذي يمكن به إثبات صدق دعوى النبوة هو المعجزة، والمعجزة أمر خارق للعادة، والإنسان العاقل لا يصدق بتحقق الأمر الخارق للعادة، وذلك لأسباب ثلاثة:

السبب الأول: هو عدم وجود طريق تاريخي معتبر يفيد اليقين بتحقق المعاجز، فإن معاجز الأنبياء نقلت بواسطة كتب اليهود والنصارى، وهي: أولاً: ليست متواترة، فنقلها ليس نقلاً علمياً يمكن التعويل عليه.

وثانياً: هي تشتمل على جملة من الأخطاء، فلا يمكن التعويل على ما فيها من النقل، فمثلاً: في العهد القديم وبالتحديد في سفر الرؤية يوجد تعرض لعلامات يوم القيامة، وتوجد هذه الفقرة: «النجوم سقطت من السماء إلى الأرض، كأنها طرح شجرة تين هزتها ريح عظيمة»، وفيها أمر توصل العلم إلى بطلانه، فما حجم الأرض مقارنة بالنجوم حتى تسقط بأجمعها في الأرض؟!!

إن هذه العبارة مبنية على النظر الساذج الذي عليه الناس في تلك الأزمان المظلمة، فإن الناس كانوا يتصورون أن حجم النجوم هو الحجم الذي يظهر للعين، والنجوم ليست إلا موجودات صغيرة، وبالتالي يتعقل أن تسقط في الأرض، واليوم بعد تطور علم الفلك توصل العلماء إلى أن النجوم أجرام كبيرة جداً، والأرض لا تكاد تبين أمام حجمها.

فكتب اليهود والنصارى فيها أخطاء علمية وتاريخية وأخطاء جغرافية،

ففي التكوين ١٤ / ١٤ ذكر مدينة دان، وأن إبراهيم عليه السلام ذهب إليها، وهي وجدت بعده، وفيه ٤٠ / ١٥ إطلاق أرض العبرانيين على أرض الكنعانيين في زمن نبي الله يوسف عليه السلام وهذا تحقق بعد ذلك، وفي إنجيل مرقس - والذي من المفروض أنه إنجيل يفرغ عن لسان نبي الله عيسى (على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام) وبه ارتباط - أخطاء جغرافية، وكأن كاتبه ليس من فلسطين، والمسيح كان في فلسطين، وأخطاء الأناجيل في اقتباسها من كتب اليهود كثير جداً، ولسنا في صدد بحث ذلك.

السبب الثاني: التجربة البشرية قائمة من آلاف السنين على أن قوانين عالم المادة لا يقع فيها خرق، وهي لم تتخلف ولم تتغير، وهذا يثبت استحالة أن تتغير هذه القوانين، فإذا كانت المعجزة خرقاً لهذه القوانين، فهي أمر مستحيل، ولا يمكن أن يصدق العقل نقل المعاجز، فهل يمكن أن يصدق العقل بتحقيق المستحيل؟

السبب الثالث: كون الإخبار عن المعاجز إخباراً عن أمر غير مألوف، فإن هذا يمنع من حصول القطع واليقين بصدق الخبر، فإنه إذا كان الخبر ينقل أمراً مألوفاً ومأنوساً يقع عادة يمكن أن يتحقق اليقين بصدقه، أما إذا كان الخبر ينقل أمراً غير مألوف لا يقع عادة، ولا يراه الناس، بل هو أمر استثنائي، فإنه لا يحصل اليقين بصدقه، فلو جاء خمسة أشخاص، وأخبروا بأن السماء تمطر ماء نصدقهم، لكن لو جاء عشرة، وقالوا: السماء تمطر صفادع، لا نصدق،

باعتبار أن إمطار السماء للصفادع ليس أمراً مألوفاً يراه الناس عادة، وإنما هو أمر غريب استثنائي لا يتحقق في العادة، وهذه الأسباب يقول الفيلسوف ديفيد هيوم: لا يمكن أن أصدق بتحقق المعاجز.

في مقام التعليق على كلامه أذكر تعليقين:

التعليق الأول: نحن نؤيد ديفيد هيوم في أن كتب اليهود والنصارى لا قيمة لها ولا يمكن التعويل عليها في إثبات معاجز الأنبياء، فهي تفتقر إلى القيمة التاريخية العلمية، ولهذا نحن - المسلمين - لا نعتمد على التوراة ولا على الإنجيل في إثبات معاجز الأنبياء السابقين على النبي الأكرم ﷺ.

ولكن نقول لهيوم: يوجد عندنا طريق قطعي منقول بالتواتر لا شك في حقايقه ومنه أخذنا صدق صدور المعاجز من الأنبياء، وذلك الطريق هو القرآن الكريم، فالقرآن الكريم كتاب متواتر ولا شك في أنه الكتاب الذي كان في زمن النبي ﷺ، وحتى دراسات الآثار المعاصرة (الأركيولوجية *Archaeology*) أكدت هذه الحقيقة، فالنسخة الموجودة عندنا تطابقت مع النسخ التي ترجع إلى القسم الأول من القرن الأول للبعثة النبوية، وهي نسخ الجامع الكبير في صنعاء^(١)، فهذه النسخة التي عندنا هي تلك النسخة التي

(١) قيل عنها: مخطوطات صنعاء هي مجموعة من المخطوطات والرقائق القرآنية تبلغ حوالي ٤٥٠٠ مخطوطة، كتبت بالخط الكوفي والحجazi وغيرها من الخطوط غير المنقوطة، تعد بعضها من أقدم النصوص القرآنية الموجودة اكتُشِفَتْ مع عدد من المخطوطات التاريخية في الجامع الكبير بصنعاء القديمة عام: ١٩٧٢م على طرس وتعود للعصور الأولى للإسلام ويُعتقد أن بعضها

كانت في زمن أمير المؤمنين عليه السلام من دون نقيصة وزيادة، فالقرآن من حيث الشبوت يختلف عن التوراة والإنجيل، فهو كتاب متواتر، وكتب اليهود والنصارى لا يعرف من كتبها بحسب الدقة^(١).

و- أيضاً - هو كتاب إعجاز، فنحن بأيدينا معجزة ثابتة بالتواتر، فالقرآن

كتب بخط علي بن أبي طالب، نُشرت نسخة من النص السفلي في ٢٠١٢م. تحليل الكربون الإشعاعي أرجع تاريخ رق أخذ من المخطوطة وبيع في مزاد، ومن ثم تاريخ النص السفلي المكتوب عليها إلى ما بين عامي: ٥٧٨ و ٦٦٩ بدقة ٩٥٪.

وقد قيل: النص الظاهر من المخطوطة يتطابق مع النص القياسي للقرآن (مصحف عثمان)، بينما النص السفلي (الخلفي غير الظاهر) يحوي العديد من الاختلافات عن النص القياسي، وقد فرح بذلك أعداء الإسلام غير أن من الواضح أن أسلوب تكثير الكتب في ذلك الزمان بالكتابة اليدوية وخط العلم، وكثير ما يقع الكتاب في الخطأ فيمصحون ويصححون.

(١) ويقول القس فهميم عزيز في كتابه مدخل إلى العهد الجديد ص ٢١٧ و ٢١٨: «يعتقد كثير من الناس ما دام الاسم قد كتب في مقدمة الإنجيل فقد انتهى كل أمر ولم يعد هناك مجال حتى للسؤال عن شخصية الكاتب، ولكن ليس هذا هو واقع الأمر، فقد بدأ بعض الناس يتساءلون عندما قرأوا العنوان (الإنجيل بحسب مرقس) من يكون هذا الشخص؟». وفي موسوعة آباء الكنيسة الجزء ١ صفحة ١٠٨ يقول الكاتب: «على الرغم من أن زمن كتابة هذا الإنجيل غير معروف بالتحديد، إلا أن الاحتمال الغالب هو أنه لم يكتب متأخراً عن سنة: ٦٣ م»

وقال: «لا يعرف على وجه اليقين مكان كتابة الإنجيل». وفي ص ١٠٢ من موسوعة آباء الكنيسة الجزء ١ بيان مجهولية تاريخ بشاره، والنسخة العبرانية مفقودة، وفي كتاب المدخل إلى الكتاب المقدس ص ٢٢٢ يقول الكاتب: «أما متى فلا ينعقد الإجماع على أنه مؤلف البشارة التي تحمل اسمه - ذلك لأن واضع هذه البشارة كان يهودياً غير معروف، ربما من مدينة أنطاكية، كتب سيرة يسوع في اللغة اليونانية، وأدمج فيها أجزاء كثيرة من بشارة مرقس ومن المصادر الأخرى التي أشرنا إليها من قبل. على أن العنوان: (إنجيل متى) لا يمكن أن يكون قد أعطى لهذا الكتاب دون أن يكون للرسول متى علاقة به».

معجز في أسلوبه البياني، ومعجز في المعارف والحقائق التي بينها، وإن كل من اطلع على القرآن وكان منصفاً، ودرس سيرة النبي ﷺ، ورأى أنه جاء من مكة البلدة المعروفة والمشهورة، والمعبر عنها قديماً (ماكورابا)^(١)، والتي توجد في الجزيرة العربية، وكانت وثنيةً يقطع بأنه من الله تبارك وتعالى، وليس من صنع البشر.

ومن المضحكات أنه توجد مدرسة استشرافية معاصرة تسمى بمدرسة: (المراجعين)، ومنها بتريشيا كرون (*Patricia Crone*)، ودان جبسون (*Dan Gibson*)، وتوم هولاند (*Tom Holland*)، تتلاعب بالحقائق التاريخية، فقد وجد هؤلاء أن من الصعب الجمع بين كون النبي ﷺ من مكة الموجودة في الموقع الحالي، وبين أن لا يكون القرآن من الله تبارك وتعالى،

(١) ذكرها المؤرخون، ومنهم:

- ١- المؤرخ اليوناني *Diodorus Siculus* في موسوعة (*Bibliotheca historica*) وتوفي سنة: ٣٠ قبل الميلاد، قال في موسوعته في ج ٣ ص ٢١٧ في وصف جزيرة العرب: «سكان تلك المنطقة (يقصد صحراء الحجاز) حول الخليج، والمعروفون باسم «بنو زومين» (*Banizomenes*) يحصلون على طعامهم بصيد الحيوانات البرية وأكل لحومها، ويوجد هناك أيضاً «معبد» وهو مقدس ومبجل للغاية من قبل العرب جميعهم»، وبنو زومين أبناء إبراهيم عليه السلام، وهذا ما ذكره بعض المؤرخين كويليام هازلتي (*William Hazlitt*) في كتابه: «*Classical Gazetteer*» وبروفيسور جان ريسو (*Jan Retsoo*) أستاذ التاريخ العربي القديم في جامعه جوتنبيرغ في كتابه: «*The Arabs in Antiquity*» ص ٢٩٨، والمؤرخ ادوارد جيون (*Edward Gibbon*) في كتابه: «*Decline And Fall Of The Roman Empire*» ٢٢٣٢ - ٢٢٤٠.
- ٢- المؤرخ اليوناني *Claudius Ptolemy*، فقد ذكر مكة في «الجغرافيا» (*the geography*)، ولكن بلفظ «ماكورابا».

فتخطوا حتى ذهب بعضهم إلى أن النبي ﷺ كان يعيش في البتراء في الأردن قريباً من الحواضر العلمية، أو أن مكة كانت قريبة من البتراء القريبة من فلسطين، ثم عبد الملك بن مروان نقل مكة إلى الموضع الحالي، والمسلمون زوروا التاريخ، وكتبوا سيرة للنبي ﷺ في مكة الموجودة الآن، ويوجد تسجيل في اليوتوب لتوم هولاند - وهو من أكبر المعادين للإسلام، ويرى أن مكة كانت قريبة من الأردن ومكة الموجودة مكة مستنسخة - يقول فيه: لو كان محمد ﷺ من جزيرة العرب ومن مكة الموجودة التي كانت وثنية وبعيدة عن فلسطين التي هي حاضرة العلم والثقافة الدينية في ذلك الزمان، فإن القرآن بلا شك كتاب معجز، وهذا نص كلامه:

(the key factor about tradition account is Mohammed received his first revelation in Makkah. and Makkah stand as a fabulous remove from the world of Roman impire. from this culture this melting part of jewish and Christian and Roman tradition. Makkah we told stod in the middle of desert and its inhabitance. and we also told it is pagan. according to Muslim there are no jewish and there are no christion. there is no community that which Mohammed could pick up these storys according to the tradition of

Muslim account. and what we more also told by Muslim tradition despite the fact that actullay contradiction with Quran but we told in muslim tradition that Mohammed is illiterated. there was no prospate from him to pick up a few refrence, storys, verses. and if that the case if Mohmmad come of age in a city that is pagan that is thousands killo meters from palistain, and if he illiterated. how in earth to explain this text which is full of these sophesticated culture refrence except there is a miracle. it would seem if we rely on a muslim account of Quran came in being that the divine must indeed have pentrated the world of ours)

وترجمته: «الحقيقة الأساسية في التراث الإسلامي هي: أن محمداً تلقى أول الوحي في مكة. ومكة تمثل القوة الرائعة التي أزاحت إمبراطورية الروم من الثقافة التي تمثل نقطة انصهار للتراث اليهودي والمسيحي والروماني. ولقد قيل لنا: إن مكة تقع في وسط الصحراء مع سكانها. ولقد قيل لنا: إن مكة وثنية وتبعاً للتراث الإسلامي لا يوجد هناك مسيحية ولا يهودية. ليس هناك مجتمع يمكن لمحمد أن يلتقط بعض القصص عن المسيحية أو اليهودية وفقاً للتراث الإسلامي. وما قد قيل لنا عن طريق التراث الإسلامي خلافاً

للحقيقة، إنها فعلاً تناقض ما هو موجود في القرآن، ولكن قد قيل لنا: إن محمداً أمي ولا يوجد هناك احتمال أنه استطاع أن يلتقط قصصاً أو آيات. لو كانت هذه الحالة وهي أن محمداً أتى في مدينة وثنية، وتبعد الآلاف كم عن فلسطين، وإنه أمي، فكيف لنا أن نفسر النصوص المليئة بتفاصيل معقدة عن تلك الحضارات إلا أن يكون القرآن معجزة، ما يبدو لي أنه لو اعتمدنا على المسلمين فيما يخص ظهور القرآن، فإننا سوف نتوصل إلى أنه من الحق والواقع أن عالم اللاهوت قد اخترق تلك العوالم»^(١).

فنحن يوجد عندنا طريق إعجازي يُثبت معاجز الأنبياء، ولسنا بحاجة إلى كتب اليهود والنصارى.

التعليق الثاني: من الغريب جداً أن يقول ديفيد هيوم: إن التجارب أثبتت استحالة خرق نظام الطبيعة^(٢)، وبالتالي أثبتت استحالة المعاجز؛ لأن ديفيد هيوم عالم حسي تجريبي مُغال في الحسيّة، فهو يذهب إلى أن الطريق الوحيد لمعرفة الواقع هو طريق الحس، فما ندركه بالحس موجود، وما لا ندركه بالحس لا وجود له؛ ولهذا أنكر هيوم قانون العليّة وقانون السببيّة، فقال: لا يوجد في عالم الطبيعية أسباب ومسببات، وموجودات تتأثر، فنحن إذا نظرنا إلى النار

(١) يمكن مشاهدة كلامه في هذا الرابط:

<https://www.youtube.com/watch?v=kDunsJkWums&feature=share>

(٢) وهذا ما وقفت عليه من ترجمة لكلامه.

والحرارة نحس بوجود تقارن بين النار والحرارة، وأما مفهوم العلية أو مفهوم السببية، وأن النار تؤثر في الحرارة، والحرارة تتأثر، فهذه لا ندركها بالحس، وإنما يتوصل إليها العقليون بالعقل، والمدرجات العقلية لا قيمة لها، فهذا هو مبناه في نظرية المعرفة في بحث (مصادر المعرفة)، وهو أول فيلسوف أوربي صرح بإنكار قانون العلية؛ لأن قانون العلية لا يمكن إثباته بالحس والتجربة، فلماذا هنا تنازل عن نظريته، وقال: إن التجربة تثبت وجود قوانين لازمة واستحالة خرق هذه القوانين، وبالتالي تثبت استحالة تحقق المعاجز، فإن الاستحالة - كمفهوم العلية - ليس أمراً حسيّاً، ونحن لا نرى بأعيننا شيئاً يتحرك في الخارج يسمى استحالة، فالمفروض وفق نظرية ديفيد هيوم أن لا يقول: باستحالة تحقق المعاجز.

والذي يدركه العقل السوي هو: أنه بعد وجود دليل يدل على وجود الله تبارك وتعالى، فإن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق هذا الوجود ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(١)، وهو الذي أنزل الأمر والتدابير التي تنظم شؤون الكون، فهذه القوانين والتدابير تحت سلطته، وبإمكانه تبارك وتعالى أن يعطلها.

فإذا جاء شخص يدعي أنه نبي وأجرى الباري تبارك وتعالى على يده

الفعل الخارق للعادة، فلا بد أن نعتقد بصدق هذا المدعي؛ لأن الله تبارك وتعالى لا يؤيد الكاذب بمعجزة، هذا ما تنتهي إليه طريقة التفكير العلمية والصحيحة.

ومن الصحيح ما ذكره ديفيد هيوم من أن غرابة الخبر تمنع من التصديق، ولكن ليس صحيحاً على إطلاقه، فإذا كان الخبر مألوفاً يحتاج إلى عدد أقل من الناقلين، وعدد أقل من القرائن والشواهد، وإذا كان الخبر غير مألوف، ولكن كان ممكناً، فإنه يحتاج إلى عدد أكثر من الناقلين، ومن الشواهد والقرائن، فإذا وجد العدد الأكثر يحصل القطع ويحصل اليقين، وغرابة الخبرة تجعل حصول اليقين أصعب، ولكنها لا تجعل عملية حصول اليقين مستحيلة بعد ثبوت الإمكان وعموم قدرة الله تعالى، ولهذا نشاهد المتدينين الذين يؤمنون بالديانات السماوية يؤمنون بالمعجز، وما أكثرهم، وما ذاك إلا لأن القرائن والشواهد عندهم تضافرت بدرجة أفادتهم اليقين، وليس فقط المتدينون بالديانات السماوية يؤمنون بالمعجز، فاليوم حتى غير المتدين يؤمن بتحقيق أمور خارقة للعادة، وعلى سبيل المثال يوجد تخصص علمي طبي اليوم اسمه (NDE)، وهو اختصار (Near - Death Experiences)، وهو معني بدراسة تجربة قرب الموت، ويوجد في هذا التخصص أطباء وعلماء متخصصون، وقد قدموا عدة دراسات، ومن الأمور التي ذكروها وأثبتوها حسياً وبالمشاهدة، أن الذي يعيش تجربة قرب بالموت، ثم يعود إلى وعيه يخبر

بأمور غيبية، ما كان يمكن أن يتعرف عليها بحسب الطرق المتعارفة، فما ذكر على سبيل المثال: أن شخصاً يموت سريراً ويفقد الوعي تماماً، فيعملون له عملية إنعاش، ثم يعود إلى وعيه، فيخبرهم بعض الأمور الموجودة في غرف المستشفى، ويُخبر بما كان يفعل المسعفون معه حال فقد الوعي، وهذا مما وثقه الأطباء، فالأمور الخارقة للعادة اليوم لم تقتصر على إخبار الديانات السماوية، بل أصبحت تُؤكد بالأسلوب التجريبي والأسلوب العلمي.

هل الديانات حطت من قدر الله تعالى؟

الشبهة الرابعة: هي التي ذكرها الفيلسوف جان جاك روسو في دين الفطرة^(١)، فإنه يقول: لا أستطيع أن أؤمن بالديانات التي تزعم بأن الله تبارك وتعالى بعث أنبياء؛ لأن هذه الديانات التي تزعم بوجود الأنبياء أنزلت الله تبارك وتعالى عن عظيم شأنه، وحطت من قدره في تعاليمها التي بلغتها الأنبياء، فإننا إذا درسنا الديانات السماوية نجد أنها أنزلت قدر الله تبارك وتعالى من ثلاث جهات:

الجهة الأولى: وصفت الله تبارك وتعالى بما لا يليق به.

فمثلاً: اليهود والنصارى يعتقدون أن الله تبارك وتعالى يحزن، وتوجد عندهم هذه العبارة: (حزن الرب لأنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في

(١) ص ٨٩ وما بعدها.

قلبه^(١)، وهذه الصفة لا تليق بعظمة الله تبارك وتعالى التي اكتشفها عقلي.
ويعتقد اليهود والنصارى بأن الله تبارك وتعالى يندم، وعندهم هذه
العبارة: (فندم الرب على الشر الذي قال: إنه يفعله بشعبه)^(٢)، و(نَدِمْتُ عَلَى
أَنِّي قَدْ جَعَلْتُ شَاوُلَ مَلِكًا، لِأَنَّهُ رَجَعَ مِنْ وَرَائِي وَلَمْ يُقِمَّ كَلَامِي)^(٣).
وتوجد متعارضة في نسبة الندم إلى الله تبارك وتعالى، فإنه يوجد في المقابل
العبارة التالية: (إن الله ليس إنساناً فيكذب، ولا ابن إنسان فيندم)^(٤).

و كتب اليهود والنصارى جسمت الله تبارك وتعالى، وجعلته خاضعاً
للزمان والمكان، يتحرك فيذهب ويعود ويصعد وينزل، وعندهم الباري

(١) الاصحاح السادس من سفر التكوين والعدد: ٦.. ويرمز للآية بـ: (تك ٦: ٦).

(٢) خروج ٣٢: ١٤.

(٣) ١ صم ١٥: ١١.

(٤) العدد ٢٣: ١٩. ومن العجيب ما في موقع (الأقباط اليوم) من معالجة للتناقض، وأنقل نص
الكلام المكتوب: «ولكن، يوجد في بعض الأماكن الأخرى أن الله ندم، فهل يوجد في كلمة الله
تناقض؟ لا يا عزيزي. بل هناك اختلاف في المعنى الأصلي لكلمة ندم. في الآيات الأولى تعني أن
الله لا يمكن البتة أن يتراجع عن كلامه. أما المعنى الثاني للكلمة فهو أن الله شعر بالحزن أو
التأسف في قلبه للشر الذي لحق بالإنسان نتيجة لقضاء الله. دعني أعطيك هذا المثل: إذا أخطأ
ابني ونصحته مرة واثنين وثلاث ولم يطع، فماذا أفعل؟ سأقوم بضربه حتى يفهم. ولكن ما هو
شعوري بعد ضربه؟ كأب سوف أشعر بالندم لضربه. لذلك نجد أن كلمة ندم يأتي ذكرها عندما
يلحق شرّاً أو كارثة بالإنسان. فمن حبة الله لنا يؤدبنا كأبناء، وبفسح المحبة يشعر الله بالندم
لتأديبنا لأنه أبونا. اقرأ تكوين ٥: ٦، ٦ ستجد أن الله تأسف في قلبه لأنه خلق الإنسان، وذلك
لازدیاد شر الإنسان. ويمكن لك أن تقرأ عاموس ٣: ٦، ٧ وأيضاً يونا ١٠: ٣. أما في تثنية ٣٦:
٣٢ يقول الكتاب: «لأن الرب يدين شعبه وعلى عبيده يشفق». وهذا هو المعنى المقصود. فعندما
يدين الله أولاده ويعاقبهم، فإنها يفعل ذلك مع وجود شفقتة».

تبارك تعالى يركب على سحابة فتطير به، ففي كتبهم: (فَنَزَلَ الرَّبُّ فِي سَحَابَةٍ وَتَكَلَّمَ مَعَهُ، وَأَخَذَ مِنَ الرُّوحِ الَّذِي عَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَى السَّبْعِينَ رَجُلًا الشُّيُوخَ. فَلَمَّا حَلَّتْ عَلَيْهِمُ الرُّوحُ تَنَبَّأُوا، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَزِيدُوا)^(١)، يرون الله عز وجل لباساً أبيض من الثلج، وله شعر كصوف الأغنام، ولعله من هذه الكتب أخذ بعض المجسمة عقيدته بأن النبي ﷺ رأى الباري تبارك وتعالى على هيئة شاب أمرد قطط الشعر.

و - أيضاً - قال بعضهم لو شاء الله تبارك وتعالى أن يركب على ظهر بعوضة فتطير به لفعل، فهذه مأخوذة من كتب اليهود والنصارى، ولكن بدلوا السحابة بالبعوضة، قال ابن تيمية: «ولو قد شاء لاستقر على ظهر بعوضة فاستقلت به بقدرته ولطف ربوبيته فكيف على عرش عظيم أكبر من السماوات والأرض، فكيف تنكر أيها النفاق إن عرشه يقله».^(٢)

وقال: «ومن المعلوم لمن له عناية بالقرآن أن جمهور اليهود لا تقول: إن عزيزاً ابن الله، وإنما قاله طائفة منهم كما قد نقل أنه قال فنحاص بن عازورا، أو هو وغيره، وبالجملة إن قائل ذلك من اليهود قليل، ولكن الخبر عن الجنس كما قال: الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم، فالله سبحانه بين هذا الكفر الذي قاله بعضهم وعابه به. فلو كان ما في التوراة من الصفات التي

(١) سفر العدد (١١: ٢٥)

(٢) بيان تلبس الجهمية: ج ١ ص ٥٦٨.

تقول النفاة إنها تشبيه وتجسيم فإن فيها من ذلك ما تنكره النفاة وتسميه تشبيهاً وتجسيماً بل فيها إثبات الجهة، وتكلم الله بالصوت، وخلق آدم على صورته وأمثال هذه الأمور، فإن كان هذا مما كذبه اليهود، وبدلته كان إنكار النبي صلى الله عليه وسلم لذلك، وبيان ذلك أولى من ذكر ما هو دون ذلك.

فكيف والمنصوص عنه موافق للمنصوص في التوراة، فإنك تجد عامة ماجاء به الكتاب والأحاديث في الصفات موافقاً مطابقاً لما ذكر في التوراة، وقد قلنا قبل ذلك إن هذا كله مما يمتنع في العادة توافق المخبرين به من غير مواطاة وموسى لم يواطى محمداً، ومحمد لم يتعلم من أهل الكتاب، فدل ذلك على صدق الرسولين العظيمين وصدق الكتاين الكريمين.

وقلنا: إن هذا لو كان مخالفاً لصريح المعقول لم يتفق عليه مثل هذين الرجلين اللذين هما وأمثالهما أكمل العالمين عقلاً، من غير أن يستشكل ذلك وليهما المصدق ولا يعارض بما يناقضه عدوهما المكذب، ويقولان: إن إقرار محمد صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب على ذلك من غير أن يبين كذبهم، فيه دليل على أنه ليس مما كذبوه وافتروه على موسى مع أن هذا معلوم بالعادة فإن هذا في التوراة كثير جداً، وليس لأمة كثيرة عظيمة منتشرة في مشارق الأرض ومغاربها غرض في أن تكذب من تعظمه غاية التعظيم بما يقدح فيه وتبين فساد أقواله، ولكن لهم غرض في أن يكذبوا كذباً يقيمون به رياستهم وبقاء شرعهم والقدح فيما جاء به من ينسخ شيئاً منهم. كما لهم غرض في الطعن على عيسى

بن مريم وعلى محمد ﷺ. فإذا قالوا: ما هو جنس القدح في عيسى ومحمد كان تواطؤهم على الكذب فيه ممكناً، فأما إذا قالوا: ما هو من جنس القدح في موسى فيمتنع تواطؤهم على ذلك في العادة، مع علمهم بأنه يقدح في موسى^(١).

ولا نقول إلا قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(٢).

الجهة الثانية: إن الديانات السماوية نسبت إلى الله تبارك وتعالى شرائع متعددة، وهذا كما في كتابنا المجيد ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾^(٣)، ويعترض روسو على هذا بأنه ليس صحيحاً؛ لأن فطرة الإنسان فطرة واحدة لا تتبدل، نحن - أيضاً - نقرأ في قرآننا ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾^(٤)، وإذا كانت الفطرة واحدة، فينبغي أن تكون الشريعة واحدة، فلماذا تعدد الشرائع مع أن الفطرة واحدة بامتداد عمود الزمان؟!

الجهة الثالثة: إن أصحاب الديانات أنزلوا الله تبارك وتعالى من عظيم شأنه وجليل قدره وجعلوه يشتغل بتشريع أحكام ترتبط بكيفية الأكل، واللباس، والله عز وجل أعلى من أن يُشرع مثل هذه الأحكام الوضيعة التي

(١) درء تعارض العقل والنقل نشر دار الكنوز الأدبية في الرياض سنة: ١٣٩١ تحقيق محمد رشاد

سالم: ج ٣ ص ٣٢٩.

(٢) سورة الأنعام: آية ٩١.

(٣) سورة المائدة: آية ٤٨.

(٤) سورة الروم: آية ٣٠.

لا تتناسب مع علو شأنه.

في مقام التعليق على هذه الشبهة أذكر أموراً ثلاثة:

الأمر الأول: نحن نوافق روسو في أن اليهود والنصارى ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، وقد خطوا من شأنه تبارك وتعالى لما وصفوه بصفات الحوادث، فالباري تبارك وتعالى هو الذي خلق الجسم، وهو الذي خلق المتى هو الذي خلق الأين، وهو الذي خلق الزمان والمكان، ولا يجري عليه ما هو أجراه.

ولكن نقول لروسو: أنت متحسس بسبب تعاليم اليهود والنصارى، فكفرت بالأديان السماوية طراً؛ لأنك وقفت على دينين باطلين، ويبدو أنك لم تعرف الإسلام عن قرب، فتعال إلى الإسلام واقرأ القرآن وتعاليم أهل البيت عليهم السلام لكي تقف على المعرفة الحققة بالله تبارك وتعالى، فكتاب الإسلام يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١)، ويقول: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٢)، ويقول الإمام الباقر عليه السلام: (إن الله نور لا ظلمة فيه، وعلم لا جهل فيه، وحياة لا موت فيه)^(٣).

ولن تجد معرفة حقانية دقيقة في الله تبارك وتعالى كهذه المعرفة، وهذه النصوص تشكل محكمات تُحدد بها الاستعمال المجازي في القرآن الكريم، وفي

(١) سورة الشورى: آية ١١.

(٢) سورة التوحيد: آية ٤.

(٣) توحيد الشيخ الصدوق: ص ١٣٨.

كلمات أهل البيت عليهم السلام، فالقرآن كتاب عربي نزل وفق اللغة العربية، والعربي تارة يتكلم على نحو الحقيقة، وأخرى يتكلم على نحو المجاز، والكلام المجازي من تمام البلاغة؛ ولأن القرآن معجز في بلاغته تكلم بكلام مجازي فقال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^(١)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾^(٢)، فإن قوله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ قرينة تحدد المراد من اليد، وأنه ليس المقصود المعنى الحقيقة وهو الجارحة، وإنما المقصود القدرة، كما في قوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾^(٣)، فالعذاب ليس له يدان، وهذا تعبير مجازي، أريد به بيان سلطة العذاب، وإحاطة العذاب بمن حل به، والأمر كذلك في ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، فإن المقصود أمر لا يتنافى مع التنزيه، كقدرة الله، أو سلطته، وكذلك الأمر في الغضب، فإن الباري تبارك وتعالى منزّه عن الكيفيات النفسانيّة التي يتصف العباد بها، لحكم العقل، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ يرشد إليه، والتعبير هنا تعبير كنائي أطلق الملزوم وأريد به اللازم، فليس المراد أنه تبارك وتعالى يغضب حقيقة، بل يفعل فعل من يغضب، وهذا نظير أن تقول لشخص كريم: (كثير الرماد)، فما المقصود من ذلك؟ هل المقصود الأخبار عن وجود رماد كثير في

(١) سورة الفتح: آية ١٠.

(٢) سورة الممتحنة: آية ١٣.

(٣) سورة سبأ: آية ٤٦.

بيته؟ لعله لا يطبخ بالخطب، وإنما بالكهرباء أو بالغاز، ولا يوجد عنده رماد، أو كرمه في غير إعداد الطعام.

إن التعبير هنا استعمل فيه لفظ اللازم وأريد به الملزوم، فالمقصود هو أنه يعمل عمل الذي يكثر الرماد في بيته، وهو الكريم الذي يطعم الضيف والمحتاج، فالقرآن فيه تعبير حقيقي، وفيه تعبير مجازي، وفيه محكمات تحدد المراد من التعبير المجازي.

هذه هي المعرفة العالية في الإسلام، وهي تختلف عن المعرفة الموجودة في الكتب المحرّفة.

الأمر الثاني: هو أن روسو ذكر أن الديانات السماوية نسبت إلى الله تبارك وتعالى شرائع متعددة وهذا خطأ؛ لأن فطرة الإنسان واحدة، وينبغي أن تكون الشرائع واحدة.

و كلامه هذا هو الخطأ؛ لأن المشرّع الحكيم ينبغي أن يراعي أمرين في عملية التشريع:

١- الفطرة.

٢- الظروف والملابسات التي تحيط بالفطرة.

فالإنسان لا يعيش في ظرف واحد، وفي زمان واحد، وملابسات واحدة، فإن ظروفه تختلف من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، وينبغي أن يختلف التشريع باختلاف الظروف، وأذكر مثلاً نعيشه في هذه الأيام:

فنحن في هذه السنة^(١) نعيش انتشار جائحة كورونا (COVID - ١٩)،
 فهل تعاليم الأطباء وتوصياتهم كما كانت قبل الجائحة؟
 الجواب: كلا، فهي تختلف.

لماذا اختلفت مع أن طبيعة الإنسان واحدة ثابتة لا تتبدل؟
 الجواب: لأن الظروف اختلفت، فالطبيعة في ظرف تحتاج إلى قانون، وفي
 ظرف آخر تحتاج إلى قانون آخر، فتعدد الشرائع مع اختلاف الظروف دليل
 حكمة المشرع، وهو الله تبارك وتعالى.

الأمر الثالث: ذكر روسو أن الديانات السماوية أنزلت الله تبارك وتعالى
 من عظيم شأنه لما جعلته يشغل بتشريع أحكام تنظم أفعال الناس من كيفية
 اللبس وكيفية الشرب وكيفية الأكل، والذي يظهر لي أنه لا يستهدف
 خصوص تشريعات كيفية الأكل وكيفية اللبس، فهو في الواقع عنده اعتراض
 على جميع التشريعات الدينية، ويدعو إلى الاعتماد على العقل والفطرة في وضع
 القوانين، والله تبارك وتعالى أعلى من أن يشغل بالخلق ويجعل لهم قانوناً.

وهذا الكلام غريب جداً من روسو؛ لأنه يؤمن بوجود الله تبارك وتعالى،
 ويؤمن بأن الله تبارك وتعالى خلق الخلق، مع أنه تبارك وتعالى عظيم متعالٍ، فمن
 حقنا أن نسأله: لماذا العظيم خلق الإنسان، والديدان، والبعوض، والذباب؟

فإذا كان روسو يقبل أن تبارك وتعالى خلق الإنسان، فلماذا لا يقبل أن

يُشرع قانوناً لتنظيم حياة الإنسان؟ ما الفرق بين خلق الإنسان وبين تشريع قانون للإنسان؟ كلاهما بالنسبة إليه سيان.

في ظل وجود الله تبارك وتعالى لا قيمة لغيره أصلاً، وإذا أشرق نوره فجميع الشموع تنطفئ، فالموجودات فيما بينها تتفاوت، ولكن في حضرة الله تبارك وتعالى، هي متساوية كأنها عدم محض لا وجود لها، فلا فرق بين خلق الإنسان وخلق البعوضة وخلق وجعل القوانين والسنن، فالكل بالنسبة لقدرته تبارك وتعالى سيان.

إن الباري تبارك وتعالى تلتطف وخلق الإنسان، وتلتطف وقدره، ثم تلتطف وهده **﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾**^(١)، ومن هداية الله تبارك وتعالى أن يجعل له نظاماً تشريعياً يقوده إلى كماله.

هل كان القرآن يقتبس من الكتب السابقة؟

الشبهة الخامسة: وهي شبهة يطرحها المسيحيون في هذه الأيام، فإن المسلمين يعتقدون بأن القرآن تفرد بعلوم ومعارف لا تتناسب مع ثقافة الجزيرة العربية، وهذا يدل على أنه كتاب معجز من الله تبارك وتعالى.

والمسيحيون يقولون: هذا الكلام غير صحيح؛ لأن ما في القرآن موجود في الكتب السابقة، وإذا رجعنا إلى كتب اليهود والنصارى نجد أن ما ذكر في

(١) سورة طه: آية ٥٠.

القرآن مقتبس ومأخوذ من تلك الكتب.

والجواب: إننا إذا لاحظنا ما ذكره القرآن من معارف نجده ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: معارف موجودة في كتب السابقين.

فمثلاً: ذكر القرآن الكريم أن إسحاق كان ولداً لإبراهيم، وأباً ليعقوب، وجداً ليوسف عليه السلام، وهذا موجود في العهد القديم.

القسم الثاني: معارف تفرد القرآن بنقلها، وقد أيدتها الدراسات الحديثة والتجارب المعاصرة، مثلاً: القرآن تفرد بذكر أن فرعون ادعى الألوهية، والعهد القديم لم يذكر هذا المعنى، فقد نسب القرآن إلى فرعون أنه قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(١)، ودراسات علماء الآثار المعاصرين يؤكدون هذا المعنى.

(١) سورة النازعات: آية ٢٤.



صورة يظهر فيها رمسيس الثاني في ثالث الآلهة
بين آمون وموت

وبين القرآن الكريم كيف يُعذب الفراعنة، والدراسات المعاصرة أكدت ذلك، وبيّن كيفية تخزين الحنطة التي أوصى بها نبي الله يوسف (على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام)، في قوله: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾^(١)، وهذا النقل ليس موجوداً في كتب السابقين، وأيدته التجارب المعاصرة، فقد خُزنت حنطة في سنبلها وحنطة فصلت عن سنبلها في مخزن لم تراعى فيه شروط الحفظ من حيث الحرارة والرطوبة لمدة سنتين، وبعد سنتين، كانت النتيجة أن الحنطة التي لم تفصل عن

(١) سورة يوسف: آية ٤٧.

سنبليها لم تتأثر بنسبة ١٠٠٪؛ لأنها لم تكسب رطوبة زائدة تؤدي إلى عُفنتها، وهي أصلح في الزراعة بنسبة ٢٠٪^(١)، فهذا إخبار تفرد به القرآن، وأيدته التجربة، وهو يدل على إعجاز القرآن الكريم.

القسم الثالث: المعارف التي كان القرآن فيها ناظراً إلى كتب السابقين وناقداً ومصححاً، ونحن في مطاوي الأبحاث الماضية ذكرنا شواهد لهذا القسم، ولهذا أكتفي بذكر شاهد واحد:

ذكر اليهود - كما هو في القرآن الكريم - انتقل نبي الله يعقوب عليه السلام مع عائلته إلى مصر، وكان عدد عائلة نبي الله يعقوب سبعين^(٢) أو خمسة وسبعين على اختلاف النقل، وبحسب التوراة السبعينية مكثوا: ٢١٥ سنة، وبحسب التوراة العبرية مكثوا: ٤٣٠ سنة، ثم في زمن نبي الله موسى عليه السلام خرجوا من مصر.

ويزعم كتاب اليهود أن عددهم تحول من سبعين أو خمسة وسبعين في ظرف: ٢١٥ سنة أو: ٤٣٠ سنة إلى أكثر من: ٦٠٠ ألف. ففي سفر الخروج: «ارْتَحَلْ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ رَعْمِيسَ إِلَى سُكُوتَ، نَحْوَ سِتِّ مِئَةِ أَلْفٍ مَاشٍ مِنَ الرِّجَالِ عَدَا الْأَوْلَادِ. وَصَعِدَ مَعَهُمْ لَفِيفٌ كَثِيرٌ أَيْضًا مَعَ غَنَمٍ وَبَقَرٍ، مَوَاشٍ وَافِرَةٌ جَدًّا»^(٣).

(١) براهين النبوة: ص ٥١٦.

(٢) تكوين: ٤٦ / ٢٧.

(٣) سفر الخروج: ٣٧: ١٢ - ٣٨.

بينما في سفر العدد: «كَانَ جَمِيعُ الْمَعْدُودِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَسَبَ بُيُوتِ آبَائِهِمْ مِنْ ابْنِ عَشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا كُلُّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ فِي إِسْرَائِيلَ سِتِّ مِئَةِ أَلْفٍ وَثَلَاثَةِ آلَافٍ وَخَمْسِ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ. وَأَمَّا اللَّائِيُونَ حَسَبَ سِبْطِ آبَائِهِمْ فَلَمْ يُعَدُّوا بَيْنَهُمْ إِذْ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: أَمَّا سِبْطُ لَاوِي فَلَا تَحْسِبْهُ وَلَا تَعُدَّهُ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ»^(١).

وهذا يعني أن تكون كل امرأة إسرائيلية قد أنجبت ما يقرب من ٦٥ مولوداً^(٢)، وهذا أمر غير مقبول، ولكن في المقابل نقل القرآن الكريم في عدد بني إسرائيل في زمن نبي الله موسى ﷺ عن فرعون أنه قال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾^(٣)، وهذه كلمة مختصرة يردُّ فيها القرآن على خرافات السابقين، ويعطي تصحيحاً دقيقاً، لا ندرك الجانب الغيبي والإعجازي فيه إلا بالدراسات المقارنة.

إن هذا القرآن العظيم لا زال يروع العقل البشري بعجاب الآيات، إلا أن ظهورها يحتاج إلى علم وتمعن وتدبر، يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٤)، ويقول الإمام جعفر الصادق ﷺ: «لقد تجلَّى الله لخلقه في كلامه، ولكن لا يبصرون»^(٥).

(١) العدد ٤٥: ١-٤٦.

(٢) دراسات تاريخية في القرآن: ج ٢ ص ١٤٢.

(٣) سورة الشعراء: آية ٥٤.

(٤) سورة النساء: آية ٨٢.

(٥) بحار الأنوار: ج ٨٩ ص ١٠٧.

هل آية سورة الإسراء ٥٩ تنفي سائر معاجز النبي ﷺ؟

الشبهة السادسة: قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾^(١) ما نصه: (يقول تعالى ذكره: وما منعنا يا محمد أن نرسل بالآيات التي سألتها قومك، إلا أن كان من قبلهم من الأمم المكذبة، سألوا ذلك مثل سؤالهم؛ فلما آتاهم ما سألوا منه كذبوا رسلهم، فلم يصدقوا مع مجيء الآيات، فعوجلوا فلم نرسل إلى قومك بالآيات، لأننا لو أرسلنا بها إليها، فكذبوا بها، سلكتنا في تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلها)^(٢)، ومثله ما في القرطبي^(٣)، ومعنى الآية على هذا هو أن النبي ﷺ لم يأت بمعجزة من المعاجز التي طلبها المشركون حذر أن لا يؤمنوا فينزل عليهم العذاب، وبالتالي ما صحة ما ينقل من معاجز متعددة عن النبي ﷺ؟ وقد استفاد من هذا المضمون غير المسلمين للطعن في الإسلام، وأن النبي ﷺ كان عاجزاً عن فعل المعاجز في مقام التحدي، ويتذرع بخوف نزول العذاب.

الجواب: لكي يتضح الجواب على هذه الشبهة نجعل الكلام في أمور:

الأمر الأول: هو إن من المعلوم بالقطع واليقين أن لرسول الله ﷺ معاجز

(١) الإسراء: آية ٥٩.

(٢) تفسير الطبري: ج ١٥ ص ١٣٤.

(٣) تفسير القرطبي: ج ١٠ ص ٢٨٠.

وكرامات متعددة غير القرآن الكريم، وقد عقد العلامة المجلسي رحمته الله في البحار^(١) أبواباً لمعاجزه عليه السلام، وكانت ١٢ باباً، وتحدث في الباب الأول عن إعجاز القرآن، وذكر روايات، وبعضها صحيح سنداً، كحديث أبي عبيدة، وفيه إعجاز القرآن من جهة الإخبار بالغيب، ونقل في الباب الثاني ١٨ رواية في جوامع معاجز النبي صلى الله عليه وآله وبعضها صحيح، وهو أول رواية نقلها، وتشتمل على عدة معاجز، والرواية ما عن قرب الإسناد الحسن بن زريق عن معمر عن الرضا عن أبيه موسى بن جعفر عليه السلام قال: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام ذَاتَ يَوْمٍ وَأَنَا طِفْلٌ حُمَاسِيٌّ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ نَفَرٌ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالُوا أَنْتَ ابْنُ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَالْحُجَّةِ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ قَالَ لَهُمْ نَعَمْ قَالُوا إِنَّا نَجِدُ فِي التَّوْرَةِ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَتَى إِبْرَاهِيمَ وَوُلِدَهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَجَعَلَ لَهُمُ الْمُلْكَ وَالْإِمَامَةَ وَهَكَذَا وَجَدْنَا ذُرِّيَّةَ الْأَنْبِيَاءِ لَا تَتَعَدَّاهُمْ النُّبُوَّةُ وَالْخِلَافَةُ وَالْوَصِيَّةُ فَمَا بِالْكُفِّ قَدْ تَعَدَّائِكُمْ ذَلِكَ وَثَبَّتَ فِي غَيْرِكُمْ وَنَلَقَاكُمْ مُسْتَضَعَفِينَ مَقْهُورِينَ لَا يُرْقَبُ فِيكُمْ ذِمَّةُ نَبِيِّكُمْ فَدَمَعَتْ عَيْنَا أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام ثُمَّ قَالَ نَعَمْ لَمْ تَزَلْ أَنْبِيَاءُ اللَّهُ مُضْطَهَدَةٌ مَقْهُورَةٌ مَقْتُولَةٌ بِغَيْرِ حَقٍّ وَالظُّلْمَةُ غَالِبَةٌ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الشُّكُورُ قَالُوا فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَأَوْلَادَهُمْ عَلِمُوا مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمٍ وَأَوْثُوا الْعِلْمَ تَلْقِينًا وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي لِأَيِّمَتِهِمْ وَخُلَفَائِهِمْ وَأَوْصِيَائِهِمْ فَهَلْ أُوتِيتُمْ ذَلِكَ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام اذْنُهُ يَا مُوسَى فَدَنَوْتُ فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِي ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ آيِدْهُ

بِنَصْرِكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ ثُمَّ قَالَ سَلُوهُ عَمَّا بَدَا لَكُمْ قَالُوا وَكَيْفَ نَسْأَلُ طِفْلاً لَا يَفْقَهُ قُلْتُ سَلُونِي تَفْقَهَا وَدَعُوا الْعَنَتَ قَالُوا أَخْبِرْنَا عَنِ الْآيَاتِ النَّسْعِ الَّتِي أُوتِيَهَا مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ قُلْتُ الْعَصَا وَإِخْرَاجُهُ يَدَهُ مِنْ جَنِيهِ بَيْضَاءَ وَالْجِرَادُ وَالْقُمَّلُ وَالضَّفَادِعُ وَالِدَّمُ وَرَفْعُ الطُّورِ وَالْمَنْ وَالسَّلْوَى آيَةٌ وَاحِدَةٌ وَقُلْتُ الْبَحْرُ قَالُوا صَدَقْتَ فَمَا أُعْطِيَ نَبِيُّكُمْ مِنَ الْآيَاتِ اللَّاتِي نَفَتِ الشُّكَّ عَنْ قُلُوبٍ مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ قُلْتُ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ أَعُدُّهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَاسْمَعُوا وَعُوا وافقوها أَمَّا أَوَّلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَنْتُمْ تُقَرُّونَ أَنَّ الْجِنَّ كَانُوا يَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ قَبْلَ مَبْعَثِهِ فَمُنِعَتْ فِي أَوَانِ رِسَالَتِهِ بِالرُّجُومِ وَانْقِضَاكِ النُّجُومِ وَبُطْلَانِ الْكَهَنَةِ وَالسَّحَرَةِ وَمِنْ ذَلِكَ كَلَامُ الذَّنْبِ يُخْبِرُ بِنُبُوَّتِهِ واجْتِمَاعُ الْعَدُوِّ وَالْوَلِيِّ عَلَى صَدَقِ لُحْجَتِهِ وَصَدَقِ أَمَانَتِهِ وَعَدَمُ جَهْلِهِ آيَاتٌ طُفُولِيَّتُهُ وَحِينَ أَيْفَعَ وَفَتَى وَكَهَلًا لَا يُعْرِفُ لَهُ شَكْلٌ وَلَا يُوَازِيهِ مِثْلٌ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ سَيْفَ بَنِي يَزْنَ حِينَ ظَفَرَ بِالْحَبَشَةِ وَقَدْ عَلَيْهِ قُرَيْشٌ فِيهِمْ عَبْدُ الْمُطَلِّبِ فَسَأَلَهُمْ عَنْهُ وَوَصَفَ لَهُمْ صِفَتَهُ فَأَقْرَأُوا جَمِيعاً بِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ فِي مُحَمَّدٍ فَقَالَ هَذَا أَوَانُ مَبْعَثِهِ وَمُسْتَقَرُّهُ أَرْضُ يَثْرِبَ وَمَوْتُهُ بِهَا وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَبْرَهَةَ بْنَ يَكْسُومَ قَادَ الْفِيلَةَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ لِيَهْدِمَهُ قَبْلَ مَبْعَثِهِ فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَلِّبِ إِنَّ لِهَذَا الْبَيْتِ رَبًّا يَمْنَعُهُ ثُمَّ جَمَعَ أَهْلَ مَكَّةَ فَدَعَا وَهَذَا بَعْدَ مَا أَخْبَرَهُ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزْنَ فَأَرْسَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ وَدَفَعَهُمْ عَنْ مَكَّةَ وَأَهْلُهَا وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ عَمَرُو بْنُ هِشَامٍ الْمُخْزُومِيَّ أَنَّهُ وَهُوَ نَائِمٌ خَلْفَ جِدَارٍ وَمَعَهُ حَجَرٌ يُرِيدُ أَنْ يَرْمِيَهُ بِهِ فَالْتَصَقَ بِكَفِّهِ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَاعَ ذَوْدَالَهُ لِهَذَا أَبِي

جَهْلٍ فَمَطَّلَهُ بِحَقِّهِ فَأَتَى قُرَيْشًا فَقَالَ أَعْدُونِي عَلَى أَبِي الْحَكَمِ فَقَدْ لَوَى بِحَقِّي فَأَشَارُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي فِي الْكَعْبَةِ فَقَالُوا ائْتِ هَذَا الرَّجُلَ فَاسْتَعْدِيهِ [فَاسْتَعَدَّ بِهِ] عَلَيْهِ وَهُمْ يَهْزُؤُونَ بِالْأَعْرَابِيِّ فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَعْدِنِي عَلَى عَمْرِو بْنِ هِشَامٍ فَقَدْ مَنَعَنِي حَقِّي قَالَ نَعَمْ فَانْطَلَقَ مَعَهُ فَدَقَّ عَلَى أَبِي جَهْلٍ بَابَهُ فَخَرَجَ إِلَيْهِ مُتَغَيِّرًا فَقَالَ لَهُ مَا حَاجَتُكَ قَالَ أَعْطِ الْأَعْرَابِيَّ حَقَّهُ قَالَ نَعَمْ وَجَاءَ الْأَعْرَابِيُّ إِلَى قُرَيْشٍ فَقَالَ جَزَاكُمُ اللَّهُ خَيْرًا أَنْطَلَقَ مَعِيَ الرَّجُلُ الَّذِي دَلَلْتُمُونِي عَلَيْهِ فَأَخَذَ حَقِّي وَجَاءَ أَبُو جَهْلٍ فَقَالُوا أَعْطَيْتَ الْأَعْرَابِيَّ حَقَّهُ قَالَ نَعَمْ قَالُوا إِنَّمَا أَرَدْنَا أَنْ نُغْرِيكَ بِمُحَمَّدٍ وَنَهْزَأَ بِالْأَعْرَابِيِّ فَقَالَ مَا هُوَ إِلَّا دَقَّ بَابِي فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ أَعْطِ الْأَعْرَابِيَّ حَقَّهُ وَفَوْقَهُ مِثْلَ الْفَحْلِ فَاتِحًا فَاهُ كَأَنَّهُ يُرِيدُنِي فَقَالَ أَعْطِهِ حَقَّهُ فَلَوْ قُلْتُ لَا لَأَبْتَلَعَ رَأْسِي فَأَعْطَيْتُهُ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا أَرْسَلَتِ النَّضَرَ بْنَ الْحَارِثِ وَعَلَقَمَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ يَشْرَبُ إِلَى الْيَهُودِ وَقَالُوا لَهَا إِذَا قَدِمْتُمَا عَلَيْهِمْ فَسَائِلُوهُمْ عَنْهُ وَهُمَا قَدْ سَأَلُوهُمْ عَنْهُ فَقَالُوا صِفُوا لَنَا صِفَتَهُ فَوَصَفُوهُ وَقَالُوا مَنْ تَبِعَهُ مِنْكُمْ قَالُوا سَفَلْتُنَا فَصَاحَ حِزْبٌ مِنْهُمْ فَقَالَ هَذَا النَّبِيُّ الَّذِي نَحِدُ نَعْتَهُ فِي التَّوْرَةِ وَنَحِدُ قَوْمَهُ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لَهُ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا أَرْسَلَتِ سُرَاقَةَ بْنَ جُعْشَمٍ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي طَلَبِهِ فَلَحِقَ بِهِ فَقَالَ صَاحِبُهُ هَذَا سُرَاقَةُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِ فَسَاحَتْ قَوَائِمُ ظَهْرِهِ فَنَادَاهُ يَا مُحَمَّدُ خَلِّ عَنِّي بِمَوْثِقٍ أُعْطِيكَهُ أَنْ لَا أُنَاصِحَ غَيْرَكَ وَكُلَّ مَنْ عَادَاكَ لَا أُصَالِحُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ صَادِقَ الْمَقَالِ فَأُطْلِقْ فَرَسَهُ فَأُطْلِقَ فَوَفَّى وَمَا انْتَنَى بَعْدُ

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ عَامِرَ بْنَ الطُّفَيْلِ وَأَزِيدَ بْنَ قَيْسٍ أَتَيَا النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ عَامِرٌ لِأَزِيدَ إِذَا أَتَيْنَاهُ فَأَنَا أَشَاغِلُهُ عَنْكَ فَأَعْلُهُ بِالسَّيْفِ فَلَمَّا دَخَلَا عَلَيْهِ قَالَ عَامِرُ يَا مُحَمَّدُ حَالٌ قَالَ لَا حَتَّى تَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى أَزِيدَ وَأَزِيدُ لَا يَجْزِي شَيْئًا فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ نَهَضَ وَخَرَجَ وَقَالَ لِأَزِيدَ مَا كَانَ أَحَدٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَخَوْفَ مِنْكَ عَلَى نَفْسِهِ فَتَكَأُ مِنْكَ وَلَعَمْرِي لَا أَخَافُكَ بَعْدَ الْيَوْمِ قَالَ لَهُ أَزِيدُ لَا تَعْجَلْ فَإِنِّي مَا هَمَمْتُ بِمَا أَمَرْتَنِي بِهِ إِلَّا دَخَلْتُ الرِّجَالَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ حَتَّى مَا أَبْصُرَ غَيْرَكَ فَأَضْرِبُكَ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَزِيدَ بْنَ قَيْسٍ وَالتَّضَرَّ بْنَ الْحَارِثِ اجْتَمَعَا عَلَى أَنْ يَسْأَلَاهُ عَنِ الْغُيُوبِ فَدَخَلَا عَلَيْهِ فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَزِيدَ فَقَالَ يَا أَزِيدُ أَتَذْكُرُ مَا جِئْتَ لَهُ يَوْمَ كَذَا وَمَعَكَ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ وَأَخْبَرَ بِمَا كَانَ مِنْهُمَا فَقَالَ أَزِيدُ وَاللَّهِ مَا حَضَرَنِي وَعَامِرًا أَحَدٌ وَمَا أَخْبَرَكَ بِهَذَا إِلَّا مَلَكُ السَّمَاءِ وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ نَفَرًا مِنَ الْيَهُودِ أَتَوْهُ فَقَالُوا لِأَبِي الْحَسَنِ جَدِّي اسْتَأْذِنَ لَنَا عَلَى ابْنِ عَمِّكَ نَسْأَلُهُ فَدَخَلَ عَلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَعْلَمَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَا يُرِيدُونَ مِنِّي فَإِنِّي عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِ اللَّهِ لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي رَبِّي ثُمَّ قَالَ أَذِنَ لَهُمْ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالَ أَتَسْأَلُونِي عَمَّا جِئْتُمْ لَهُ أَمْ أَنْبِئُكُمْ قَالُوا نَبَّئْنَا قَالَ جِئْتُمْ تَسْأَلُونِي عَنْ ذِي الْقَرَيْنَيْنِ قَالُوا نَعَمْ قَالَ كَانَ غُلَامًا مِنْ أَهْلِ الرُّومِ ثُمَّ مَلَكَ وَآتَى مَطْلَعَ الشَّمْسِ وَمَغْرِبَهَا ثُمَّ بَنَى السِّدَّ فِيهَا قَالُوا نَشْهَدُ أَنَّ هَذَا كَذَا وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ وَابِصَةَ بِنَ مَعْبِدِ الْأَسَدِيِّ أَتَاهُ فَقَالَ لَا أَدْعُ مِنَ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ شَيْئًا إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ فَلَمَّا أَتَاهُ قَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ إِلَيْكَ يَا وَابِصَةُ

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ دَعُهُ اِدْنُهُ يَا وَابِصَةُ فَدَنَوْتُ فَقَالَ أَتَسْأَلُ عَمَّا جِئْتَ لَهُ أَوْ أَخْبِرُكَ قَالَ أَخْبِرْنِي قَالَ جِئْتُ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ قَالَ نَعَمْ فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى صَدْرِهِ ثُمَّ قَالَ يَا وَابِصَةُ الْبِرُّ مَا أَطْمَأْنَنْتَ بِهِ النَّفْسُ وَالْبِرُّ مَا أَطْمَأَنَّ بِهِ الصَّدْرُ وَالْإِثْمُ مَا تَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَجَالَ فِي الْقَلْبِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ أَتَاهُ وَفَدَّ عَبْدُ الْقَيْسِ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَلَمَّا أَدْرَكُوا حَاجَتَهُمْ عِنْدَهُ قَالَ ائْتُونِي بِتَمَرٍ أَهْلِكُمْ مِمَّا مَعَكُمْ فَاتَاهُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ بِنَوْعٍ مِنْهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا يُسَمَّى كَذَا وَهَذَا يُسَمَّى كَذَا فَقَالُوا أَنْتَ أَعْلَمُ بِتَمَرٍ أَرْضِنَا فَوَصَفَ لَهُمْ أَرْضَهُمْ فَقَالُوا أَدَخَلْتَهَا قَالَ لَا وَلَكِنْ فُسِّحَ لِي فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا خَالِي وَبِهِ خَبْلٌ فَأَخَذَ بِرِدَائِهِ ثُمَّ قَالَ اخْرُجْ عَدُوَّ اللَّهِ ثَلَاثًا ثُمَّ أَرْسَلَهُ فَبَرَأَ وَأَتَوْهُ بِشَاةٍ هَرِمَةٍ فَأَخَذَ أَحَدُ أُذُنَيْهَا بَيْنَ أَصَابِعِهِ فَصَارَ لَهَا مِيسَمًا ثُمَّ قَالَ خُذُوهَا فَإِنَّ هَذِهِ السَّمَّةَ فِي آذَانِ مَا تَلِدُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَهِيَ تَوَالِدُ وَتَلِكُ فِي آذَانِهَا مَعْرُوفَةٌ غَيْرُ مَجْهُولَةٍ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ فِي سَفَرٍ فَمَرَّ عَلَى بَعِيرٍ قَدْ أَعْيَا وَقَامَ مُبْرَكًا عَلَى أَصْحَابِهِ فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَمَضَّمَصَ مِنْهُ فِي إِنَاءٍ وَتَوَضَّأَ وَقَالَ افْتَحْ فَاهُ فَصَبَّ فِي فِيهِ فَمَرَّ ذَلِكَ الْمَاءُ عَلَى رَأْسِهِ وَحَارَكِهِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ احْمِلْ خَلَادًا وَعَامِرًا وَرَفِيقَهُمَا وَهُمَا صَاحِبَا الْجَمَلِ فَرَكِبُوهُ وَإِنَّهُ لَيَهْتَرُ بِهِمْ أَمَامَ الْخَيْلِ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ نَاقَةً لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ ضَلَّتْ فِي سَفَرٍ كَانَتْ فِيهِ فَقَالَ صَاحِبُهَا لَوْ كَانَ نَبِيًّا يَعْلَمُ أَمْرَ النَّاقَةِ فَبَلَغَ ذَاكَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ الْغَيْبُ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ انْطَلِقْ يَا فَلَانُ فَإِنَّ نَاقَتَكَ بِمَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا قَدْ تَعَلَّقَ زِمَامُهَا بِشَجَرَةٍ فَوَجَدَهَا كَمَا قَالَ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ مَرَّ

عَلَى بَعِيرٍ سَاقِطٍ فَتَبَصَّصَ لَهُ فَقَالَ إِنَّهُ لَيَشْكُو شَرَّ وَلَايَةِ أَهْلِهِ لَهُ وَسَأَلَهُ أَنْ يُخْرِجَ عَنْهُمْ فَسَأَلَ عَنْ صَاحِبِهِ فَأَتَاهُ فَقَالَ بَعُهُ وَأَخْرَجَهُ عَنْكَ فَأَنَاحَ الْبَعِيرُ يَرْغُو ثُمَّ نَهَضَ وَتَبَعَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَسْأَلُنِي أَنْ أَتَوَلَّى أَمْرَهُ فَبَاعَهُ مِنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمْ يَزَلْ عِنْدَهُ إِلَى أَيَّامٍ صَفَيْنَ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ فِي مَسْجِدِهِ إِذْ أَقْبَلَ جَهْلٌ نَادٌ حَتَّى وَضَعَ رَأْسَهُ فِي حِجْرِهِ ثُمَّ خَرَّخَرَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَزْعُمُ هَذَا أَنَّ صَاحِبَهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْحَرَهُ فِي وَلِيمَةٍ عَلَى ابْنِهِ فَجَاءَ يَسْتَعِثُّ فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا لِفُلَانٍ وَقَدْ أَرَادَ بِهِ ذَلِكَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ وَسَأَلَهُ أَنْ لَا يَنْحَرَهُ فَفَعَلَ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ دَعَا عَلَى مُضَرَ فَقَالَ اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرَ واجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ كِسْفِي يُوسُفَ فَأَصَابَهُمْ سُنُونُ فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ فَوَ اللَّهِ مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى لَا يَخْطِرَ لَنَا فَحُلٌّ وَلَا يَرَدَّدَ مِنَّا رَائِحٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اللَّهُمَّ دَعَوْتُكَ فَأَجَبْتَنِي وَسَأَلْتُكَ فَأَعْطَيْتَنِي اللَّهُمَّ فَاسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا مَرِيئًا سَرِيعًا طَبَقًا سَجَالًا عَاجِلًا غَيْرَ رَائِتٍ نَافِعًا غَيْرَ ضَارٍّ فَمَا قَامَ حَتَّى مَلَأَ كُلُّ شَيْءٍ وَدَامَ عَلَيْهِمْ جُمُعَةٌ فَأَتَوْهُ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ انْقَطَعَتْ سُبُلُنَا وَأَسْوَاقُنَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا فَاَنْجَابَتِ السَّحَابَةُ عَنِ الْمَدِينَةِ وَصَارَ فِيهَا حَوْهَا وَأُمْطِرُوا أَشْهُرًا وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ تَوَجَّهَ إِلَى الشَّامِ قَبْلَ مَبْعَثِهِ مَعَ نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَلَمَّا كَانَ بِحِيَالِ بَحِيرِ الرَّاهِبِ نَزَلُوا بِفَنَاءِ دَيْرِهِ وَكَانَ عَالِمًا بِالْكِتَابِ وَقَدْ كَانَ قَرَأَ فِي التَّوْرَةِ مُرُورَ النَّبِيِّ ﷺ بِهِ وَعَرَفَ أَوَانَ ذَلِكَ فَأَمَرَ فُدْعِي إِلَى طَعَامِهِ فَأَقْبَلَ يَطْلُبُ الصَّفَةَ فِي الْقَوْمِ فَلَمْ يَجِدْهَا فَقَالَ هَلْ بَقِيَ فِي رِحَالِكُمْ أَحَدٌ فَقَالُوا غَلَامٌ يَتِيمٌ فَقَامَ بَحِيرُ الرَّاهِبِ فَأَطْلَعَ فَإِذَا هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَائِمٌ وَقَدْ أَظْلَمَتْهُ

سَحَابَةٌ فَقَالَ لِلْقَوْمِ ادْعُوا هَذَا الْيَتِيمَ فَفَعَلُوا وَبَحِيرٌ مُشْرِفٌ عَلَيْهِ وَهُوَ يَسِيرُ
وَالسَّحَابَةُ قَدْ أَظْلَمَتْهُ فَأَخْبَرَ الْقَوْمَ بِشَأْنِهِ وَأَنَّهُ سَيُبْعَثُ فِيهِمْ رَسُولًا وَمَا يَكُونُ مِنْ
حَالِهِ وَأَمْرِهِ فَكَانَ الْقَوْمُ بَعْدَ ذَلِكَ يَهَابُونَهُ وَيُجِلُّونَهُ فَلَمَّا قَدِمُوا أَخْبَرُوا قُرَيْشًا
بِذَلِكَ وَكَانَ مَعَهُمْ عَبْدٌ حَدِيحَةٌ بِنْتُ حُوَيْلِدٍ فَرَعِبَتْ فِي تَزْوِيجِهِ وَهِيَ سَيِّدَةُ نِسَاءِ
قُرَيْشٍ وَقَدْ خَطَبَهَا كُلُّ صَنْدِيدٍ وَرَيْسٍ قَدْ أَبْتَهَمَ فَرَوْجَتَهُ نَفْسَهَا بِالَّذِي بَلَغَهَا
مِنْ خَيْرِ بَحِيرٍ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ بِمَكَّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ أَيَّامَ الْبَتِّ عَلَيْهِ قَوْمُهُ
وَعَشَائِرُهُ فَأَمَرَ عَلِيًّا أَنْ يَأْمُرَ حَدِيحَةَ أَنْ تَتَّخِذَ لَهُ طَعَامًا فَفَعَلَتْ ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ
لَهُ أَقْرَبَاءَهُ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَدَعَا أَرْبَعِينَ رَجُلًا فَقَالَ أَحْضِرْ لَهُمْ طَعَامًا يَا
عَلِيُّ فَاتَاهُ بِشَرِيدَةٍ وَطَعَامٍ يَأْكُلُهُ الثَّلَاثَةُ وَالْأَرْبَعَةُ فَقَدَّمَهُ إِلَيْهِمْ وَقَالَ كُلُوا وَسَمُّوا
فَسَمَّى وَلَمْ يُسَمِّ الْقَوْمَ فَأَكَلُوا وَصَدَرُوا شَبَعَى فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ جَادَ مَا سَحَرَكُمْ
مُحَمَّدٌ يُطْعِمُ مِنْ طَعَامِ ثَلَاثَةِ رِجَالٍ أَرْبَعِينَ رَجُلًا هَذَا وَاللَّهِ السَّحَرُ الَّذِي لَا بَعْدَهُ
فَقَالَ عَلِيُّ عليه السلام ثُمَّ أَمَرَنِي بَعْدَ أَيَّامٍ فَاتَّخَذْتُ لَهُ مِثْلَهُ وَدَعَوْتُهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ فَطَعِمُوا
وَصَدَرُوا وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام قَالَ دَخَلْتُ السُّوقَ فَابْتِغْتُ لَحْمًا
بِذَرَهُمْ وَذُرَّةً بِذَرَهُمْ وَأَتَيْتُ فَاطِمَةَ عليها السلام حَتَّى إِذَا فَرَعْتُ مِنَ الْحَبْزِ وَالطَّبْخِ قَالَتْ
لَوْ دَعَوْتَ أَبِي فَاتَيْتُهُ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ وَهُوَ يَقُولُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْجُوعِ ضَجِيعًا
فَقُلْتُ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ عِنْدَنَا طَعَامًا فَقَامَ وَاتَّكَأَ عَلَيَّ وَمَضَيْنَا نَحْوَ فَاطِمَةَ عليها السلام
فَلَمَّا دَخَلْنَا قَالَ هَلُمَّ طَعَامَكَ يَا فَاطِمَةُ فَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ الْبُرْمَةَ وَالْقُرْصَ فَعَطَى
الْقُرْصَ وَقَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي طَعَامِنَا ثُمَّ قَالَ اغْرُفِي لِعَائِشَةَ فَغَرَفَتْ ثُمَّ قَالَ

اغْرِفِي لِأُمِّ سَلَمَةَ فَمَا زَالَتْ تَغْرِفُ حَتَّى وَجَّهَتْ إِلَى نِسَائِهِ التَّسْعَ قُرْصَةً قُرْصَةً
وَمَرَقًا ثُمَّ قَالَ اغْرِفِي لِابْنَتِكَ وَبَعْلِكَ ثُمَّ قَالَ اغْرِفِي وَكُلِي وَأَهْدِي لِجَارَاتِكَ
فَفَعَلَتْ وَبَقِيَ عِنْدَهُمْ أَيَّامًا يَأْكُلُونَ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ امْرَأَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْلِمٍ أَتَتْهُ
بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ وَمَعَ النَّبِيِّ ﷺ بَشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ فَتَنَاوَلَ النَّبِيُّ ﷺ الذَّرَاعَ
وَتَنَاوَلَ بَشْرُ الْكُرَاعَ فَأَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فَلَاكَهَا وَلَفْظَهَا وَقَالَ إِنَّمَا لَتُخْبِرُنِي أَنَّمَا
مَسْمُومَةٌ وَأَمَّا بَشْرُ فَلَاكَ الْمُضْغَةَ وَابْتَلَعَهَا فَهَاتَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَأَقْرَتْ فَقَالَ مَا
حَمَلَكِ عَلَى مَا فَعَلْتِ قَالَتْ قَتَلْتَ زَوْجِي وَأَشْرَافَ قَوْمِي فَقُلْتُ إِنْ كَانَ مَلِكًا
قَتَلْتُهُ وَإِنْ كَانَ نَبِيًّا فَسَيُطْلِعُهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى ذَلِكَ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ جَابِرَ بْنَ
عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ قَالَ رَأَيْتُ النَّاسَ يَوْمَ الْحَنْدَقِ يَخْفِرُونَ وَهُمْ خِصَاصٌ وَرَأَيْتُ
النَّبِيَّ ﷺ يَخْفِرُ وَبَطْنُهُ خِمِصٌ فَأَتَيْتُ أَهْلِي فَأَخْبَرْتُهُمْ فَقَالَتْ مَا عِنْدَنَا إِلَّا هَذِهِ
الشَّاةُ وَحُرْزٌ مِنْ دُرَّةٍ قَالَ فَأَخْبِرِي وَدَبَّحَ الشَّاةَ وَطَبَّحُوا شِقَّهَا وَشَوَوْا الْبَاقِيَّ
حَتَّى إِذَا أَدْرَكَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ اتَّخَذْتُ طَعَامًا فَأَتَيْتُكَ أَنْتَ وَمَنْ
أَحْبَبْتَ فَشَبَّكَ أَصَابِعُهُ فِي يَدِهِ ثُمَّ نَادَى أَلَا إِنَّ جَابِرًا يَدْعُوكُمْ إِلَى طَعَامِهِ فَأَتَى
أَهْلُهُ مَذْعُورًا خَجَلًا فَقَالَ لَهَا هِيَ الْفَضِيحَةُ قَدْ جَفَلَ بِهَا [بِهِمْ] أَجْمَعِينَ فَقَالَتْ
أَنْتَ دَعَوْتَهُمْ أَمْ هُوَ قَالَ هُوَ قَالَتْ فَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ فَلَمَّا رَأْنَا أَمْرًا بِالْأَنْطَاعِ فَبَسِطْتَ
عَلَى الشَّوَارِعِ وَأَمْرُهُ أَنْ يَجْمَعَ التَّوَارِي يَعْني قِصَاعًا كَانَتْ مِنْ خَشَبٍ وَالْجِفَانِ
ثُمَّ قَالَ مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الطَّعَامِ فَأَعْلَمْتُهُ فَقَالَ غَطُّوا السَّدَانَةَ وَالْبُرْزَةَ وَالتَّنُورَ
وَاعْرِفُوا وَأَخْرِجُوا الْخُبْزَ وَاللَّحْمَ وَعَطُّوا فَمَا زَالُوا يَغْرِفُونَ وَيَنْقُلُونَ وَلَا يَرَوْنَهُ

يَنْقُصُ شَيْئًا حَتَّى شَبَعَ الْقَوْمُ وَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ ثُمَّ أَكَلَ جَابِرٌ وَأَهْلُهُ وَأَهْدُوا
وَبَقِيَ عِنْدَهُمْ أَيَّامًا وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ سَعْدَ بْنَ عِبَادَةَ الْأَنْصَارِيَّ أَنَاهُ عَشِيَّةً وَهُوَ
صَائِمٌ فَدَعَاهُ إِلَى طَعَامِهِ وَدَعَا مَعَهُ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فَلَمَّا أَكَلُوا قَالَ
النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وآله: نَبِيٌّ وَوَصِيٌّ أَيَا سَعْدُ أَكَلَ طَعَامَكَ الْأَبْرَارُ وَأَفْطَرَ عِنْدَكَ الصَّائِمُونَ
وَصَلَّتْ عَلَيْكُمْ الْمَلَائِكَةُ فَحَمَلَهُ سَعْدٌ عَلَى حِمَارٍ قَطُوفٍ وَالْقَى عَلَيْهِ قَاطِفَةً فَرَجَعَ
الْحِمَارُ وَإِنَّهُ لَهُمَلَاجٌ مَا يُسَايِرُ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ أَقْبَلَ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي الطَّرِيقِ مَاءٌ
يَخْرُجُ مِنْ وَشَلٍ بِقَدْرِ مَا يُرْوِي الرَّاكِبَ وَالرَّاكِبِينَ فَقَالَ مَنْ سَبَقَنَا إِلَى الْمَاءِ فَلَا
يَسْتَقِينَنَّ مِنْهُ فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ دَعَا بِقَدَحٍ فَتَمَضَّمَصَ فِيهِ ثُمَّ صَبَّهُ فِي الْمَاءِ فَفَاضَ الْمَاءُ
فَشَرِبُوا وَمَلَأُوا أَدَاوَاهُمْ وَمِيَاضِيَهُمْ وَتَوَضَّعُوا فَقَالَ النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وآله: لَيْتَنُ بَقِيتُمْ وَبَقِيَ
مِنْكُمْ لَيْسَقِينَ [لَيْسَمَعَنَ] بِهَذَا الْوَادِي يَسْقِي مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ كَثْرَةِ مَائِهِ فَوَجَدُوا
ذَلِكَ كَمَا قَالَ وَمِنْ ذَلِكَ إِخْبَارُهُ عَنِ الْغُيُوبِ وَمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ فَوَجَدُوا ذَلِكَ
مُؤَافِقًا لِمَا يَقُولُ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ أَخْبَرَ صَبِيحَةَ اللَّيْلَةِ الَّتِي أُسْرِيَ بِهِ بِمَا رَأَى فِي
سَفَرِهِ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ بَعْضُ وَصَدَّقَهُ بَعْضُ فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا رَأَى مِنَ الْمَارَّةِ وَالْمُتَارَةِ
وَهَيْئَتِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ وَمَا مَعَهُمْ مِنَ الْأَمْتِعَةِ وَأَنَّهُ رَأَى عِيرًا أَمَامَهَا بَعِيرٌ أَوْرَقٌ وَأَنَّهُ
يَطْلُعُ يَوْمَ كَذَا مِنَ الْعَقَبَةِ مَعَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فَعَدَوْا يَطْلُبُونَ تَكْذِيبَهُ لِلْوَقْتِ
الَّذِي وَقَّتَهُ لَهُمْ فَلَمَّا كَانُوا هُنَاكَ طَلَعَتِ الشَّمْسُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَذَبَ السَّاحِرُ
وَبَصُرَ آخَرُونَ بِالْعِيرِ قَدْ أَقْبَلَتْ يَقْدُمُهَا الْأَوْرَقُ فَقَالُوا صَدَقَ هَذِهِ نَعَمْ قَدْ
أَقْبَلَتْ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ أَقْبَلَ مِنْ تَبُوكَ فَجَهَدُوا عَطَشًا وَبَادَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ يَقُولُونَ

الْمَاءِ الْمَاءِ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ لِأَيِّ هُرَيْرَةٍ: هَلْ مَعَكَ مِنَ الْمَاءِ شَيْءٌ قَالَ كَقَدْرِ قَدَحٍ فِي مِضَاتِي، قَالَ: هَلُمَّ مِضَاتَكَ فَصَبَّ مَا فِيهِ فِي قَدَحٍ وَدَعَا وَأَوْعَاهُ وَقَالَ نَادِ مَنْ أَرَادَ الْمَاءَ فَأَقْبِلُوا يَقُولُونَ الْمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا زَالَ يَسْكُبُ وَأَبُو هُرَيْرَةَ يَسْتَقِي حَتَّى رَوِيَ الْقَوْمُ أَجْمَعُونَ وَمَلَأُوا مَا مَعَهُمْ ثُمَّ قَالَ لِأَيِّ هُرَيْرَةٍ اشْرَبْ فَقَالَ بَلْ أَخْرَكُم شُرْبًا فَشَرِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَشَرِبَ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ أُخْتَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ الْأَنْصَارِيِّ مَرَّتْ بِهِ أَيَّامَ حَفْرِهُمْ الْخَنْدَقَ فَقَالَ: لَهَا أَيْنَ تُرِيدِينَ قَالَتْ: إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بِهَذِهِ التَّمَرَاتِ فَقَالَ هَاتِيهِنَّ فَتَشَرَّتْ فِي كَفِّهِ ثُمَّ دَعَا بِالْأَنْطَاعِ وَفَرَّقَهَا عَلَيْهَا وَغَطَّاهَا بِالْأُزْرِ وَقَامَ وَصَلَّى فَفَاضَ التَّمَرُ عَلَى الْأَنْطَاعِ ثُمَّ نَادَى هَلُمُّوا وَكُلُوا فَأَكَلُوا وَشَبِعُوا وَحَمَلُوا مَعَهُمْ وَدَفَعَ مَا بَقِيَ إِلَيْهَا وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ فِي سَفَرٍ فَأَجْهَدُوا جُوعًا فَقَالَ مَنْ كَانَ مَعَهُ زَادٌ فَلْيَأْتِنَا بِهِ فَأَتَاهُ نَفَرٌ مِنْهُمْ بِمِقْدَارِ صَاعٍ فَدَعَا بِالْأُزْرِ وَالْأَنْطَاعِ، ثُمَّ صَبَّ التَّمَرُ عَلَيْهَا وَدَعَا رَبَّهُ فَأَكْثَرَ اللَّهُ ذَلِكَ التَّمَرُ حَتَّى كَانَ أَرْوَادُهُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ أَقْبَلَ مِنْ بَعْضِ أَسْفَارِهِ فَأَتَاهُ قَوْمٌ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لَنَا بِئْرًا إِذَا كَانَ الْقَيْظُ اجْتَمَعْنَا عَلَيْهَا وَإِذَا كَانَ الشِّتَاءُ تَفَرَّقْنَا عَلَى مِيَاهِ حَوْلِنَا، وَقَدْ صَارَ مَنْ حَوْلَنَا عَدُوًّا لَنَا فَادْعُ اللَّهَ فِي بِئْرِنَا فَتَفَلَّ ﷺ فِي بِئْرِهِمْ فَفَاضَتِ الْمِيَاهُ الْمَغِيَّةُ وَكَانُوا لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى قَعْرِهَا بَعْدَ مِنْ كَثَرَةِ مَائِهَا فَبَلَغَ ذَلِكَ مُسَيْلَمَةَ الْكَذَّابِ فَحَاوَلَ مِثْلَهُ مِنْ قَلِيبٍ قَلِيلٍ مَاؤُهُ فَتَفَلَّ الْأَنْكَدُ فِي الْقَلِيبِ فَغَارَ مَاؤُهُ وَصَارَ كَالْجُبُوبِ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ سُرَاقَةَ بْنَ جُعْشَمٍ حِينَ وَجَّهَهُ قُرَيْشٌ فِي طَلَبِهِ نَاوَلَهُ نَبَلًا مِنْ كِنَانَتِهِ وَقَالَ لَهُ سَتَمُرُّ

بِرُعَاتِي فَإِذَا وَصَلْتَ إِلَيْهِمْ فَهَذَا عَلَامَتِي اطْعَمْ عَنْدهُمْ واشْرَبْ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ أَتَوْهُ بِعَنْزٍ حَائِلٍ فَمَسَحَ ﷺ ضَرْعَهَا فَصَارَتْ حَامِلًا وَدَرَّتْ حَتَّى مَلَكُوا الْإِنَاءَ وَارْتَوَوْا وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ نَزَلَ بِأُمِّ شَرِيكِ فَأَتَتْهُ بِعُكَّةٍ فِيهَا سَمْنٌ يَسِيرٌ فَأَكَلَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ ثُمَّ دَعَا لَهَا بِالْبَرَكَهَةِ فَلَمْ تَزَلِ الْعُكَّةُ تَصُبُّ سَمْنًا أَيَّامَ حَيَاتِهَا وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ أُمَّ جَبِيلٍ امْرَأَةً أَبِي لَهَبٍ أَتَتْهُ حِينَ نَزَلَتْ سُورَةُ تَبَّتْ وَمَعَ النَّبِيِّ ﷺ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ أُمُّ جَبِيلٍ مُحْفَظَةٌ أَيْ مُغْضَبَةٌ تُرِيدُكَ وَمَعَهَا حَجَرٌ تُرِيدُ أَنْ تَرْمِيكَ بِهِ فَقَالَ إِنَّهَا لَا تَرَانِي فَقَالَتْ لِأَبِي بَكْرٍ أَيُّنَ صَاحِبِكَ قَالَ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ قَالَتْ لَقَدْ جِئْتُهُ وَلَوْ أَرَاهُ لَرَمَيْتُهُ فَإِنَّهُ هَجَانِي وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى إِنِّي لَشَاعِرَةٌ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ تَرَكَ قَالَ لَا ضَرْبَ اللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا حَبَابًا وَمِنْ ذَلِكَ كِتَابَتُهُ الْمُهَيِّمُنَ الْبَاهِرُ لِعُقُولِ النَّاطِرِينَ مَعَ مَا أُعْطِيَ مِنَ الْخِلَالِ النَّبِيِّ إِنْ ذَكَرْنَاهَا لَطَالَتْ فَقَالَتِ الْيَهُودُ وَكَيْفَ لَنَا بِأَنْ نَعْلَمَ أَنَّ هَذَا كَمَا وَصَفْتَ فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى ﷺ وَكَيْفَ لَنَا بِأَنْ نَعْلَمَ أَنَّ مَا تَذْكُرُونَ مِنْ آيَاتِ مُوسَى ﷺ عَلَى مَا تَصِفُونَ قَالُوا عَلِمْنَا ذَلِكَ بِنَقْلِ الْبَرَّةِ الصَّادِقِينَ قَالَ لَهُمْ فَاغْلُمُوا صِدْقَ مَا أَتَيْنَاكُمْ بِهِ بِحَبْرِ طِفْلِ لَقْنَهُ اللَّهُ مِنْ غَيْرِ تَلْقِينٍ وَلَا مَعْرِفَةٍ عَنِ النَّاقِلِينَ فَقَالُوا نَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّكُمْ الْأَيُّمَةُ وَالْقَادَةُ وَالْحَجَجُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ فَوُتِبَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ﷺ فَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْي ثُمَّ قَالَ أَنْتَ الْقَائِمُ مِنْ بَعْدِي فَلِهَذَا قَالَتِ الْوَاقِفَةُ إِنَّهُ حَيٌّ وَإِنَّهُ الْقَائِمُ ثُمَّ كَسَاهُمْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ﷺ وَوَهَبَ لَهُمْ وَانْصَرَفُوا مُسْلِمِينَ. بحار الأنوار: ج ١٧ ص ٢٢٤ إلى آخره وفي

ج ١٨.

ولا يخفى أن الرواية تشمل بعض دلائل صدقه ﷺ ولو بغير المعجزة، وتشمل على معاجز وكرامات، ككلام الذئب، والتصاق الحجر في كف أبي جهل، وكذلك رؤية أبي لهب مثل الفحل فوقه فاتحاً فاه، وما حدث لسراقة بن جعشم، وإخباره بالغيب، وإخبار الشاة المطهية بأنها مسمومة، وإطعامه الجمع الغفير بشاة، مع زيادة الطعام.

وذكر في الباب الثالث معاجز النبي ﷺ السماوية والغرائب العلوية وأورد فيه ١٩ حديثاً، ومنها أحاديث شق القمر، وهي كثير جداً في كتب الفريقين، وتفيد الاطمئنان بوقوعها، وكذلك روايات رد الشمس، وهي مشهورة جداً، وموجودة عند الفريقين.

وذكر في الباب الرابع معاجز النبي ﷺ الأرضية، كتكلم النباتات، وذكر فيه ٥٩ رواية، وذكر في الباب الخامس معاجز النبي ﷺ في الحيوانات وذكر ٤٧ رواية، وذكر في الباب السادس معاجز النبي ﷺ في استجابة الدعاء وأحياء الموتى وشفاء المرضى، وذكر ٤٩ رواية، وأنقل رواية معتبرة منها، وهي ما عن الكافي عن عليٍّ عن أبيه عن ابنِ أبي عمير عن هشام بن الحكم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لَمَّا اسْتَسْقَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسُقِيَ النَّاسُ حَتَّى قَالُوا إِنَّهُ الْعَرَقُ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ وَرَدَّهَا اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا قَالَ فَتَفَرَّقَ السَّحَابُ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَسْقَيْتَ لَنَا فَلَمْ نُسَقِ ثُمَّ اسْتَسْقَيْتَ لَنَا فَسُقِينَا

قَالَ إِنِّي دَعَوْتُ وَلَيْسَ لِي فِي ذَلِكَ نِيَّةٌ ثُمَّ دَعَوْتُ وَلِي فِي ذَلِكَ نِيَّةٌ^(١).

وذكر في الباب السابع ما ظهر في أعضائه ﷺ الشريفة، وتكثر الطعام والشراب، وذكر فيه ٣١ رواية، وذكر في الباب الثامن معاجز النبي ﷺ في كفاية شر الأعداء، وذكر فيه ٣٠ رواية، وذكر في الباب التاسع معاجز النبي ﷺ في استيلائه على الجن، وذكر فيه ١٠ روايات، وذكر في الباب العاشر معاجز النبي ﷺ مع الجن - أيضاً - وذكر ٤ روايات، وذكر في الباب الحادي عشر معاجز النبي ﷺ في الإخبار بالمغيبات، وذكر فيه ٤٢ رواية، والرواية التالية فيه، وهي معتبرة، وقد نقلها عن الكافي عن العدة عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ ابْنِ مَحْبُوبٍ عَنْ ابْنِ رِثَابٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ وَهُوَ يُحَدِّثُ النَّاسَ بِمَكَّةَ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْفَجَرَ ثُمَّ جَلَسَ مَعَ أَصْحَابِهِ حَتَّى طَلَعَتِ الشَّمْسُ فَجَعَلَ يَقُومُ الرَّجُلُ بَعْدَ الرَّجُلِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا رَجُلَانِ أَنْصَارِيٌّ وَثَقَفِيٌّ فَقَالَ لُهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ لَكُمَا حَاجَةً تُرِيدَانِ أَنْ تَسْأَلَا عَنْهَا فَإِنْ شِئْتُمَا أَخْبَرْتُكُمَا بِحَاجَتِكُمَا قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَانِي وَإِنْ شِئْتُمَا فَاسْأَلَا عَنْهَا قَالَا بَلْ نُخْبِرُنَا قَبْلَ أَنْ نَسْأَلَكَ عَنْهَا فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْلَى لِلْعَمَى وَأَبْعَدُ مِنَ الْإِرْتِيَابِ وَأَثْبَتُ لِلْإِيمَانِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَّا أَنْتَ يَا أَخَا ثَقِيفٍ فَإِنَّكَ جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنْ وُضُوءِكَ وَصَلَاتِكَ مَا لَكَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخَيْرِ أَمَّا وَضُوءُكَ فَإِنَّكَ إِذَا وَضَعْتَ يَدَكَ فِي إِيَّائِكَ ثُمَّ قُلْتَ بِسْمِ اللَّهِ تَنَازَرْتَ مِنْهَا مَا اكْتَسَبْتَ مِنْ

الدُّنُوبِ فَإِذَا غَسَلْتَ وَجْهَكَ تَنَاثَرَتِ الدُّنُوبُ الَّتِي اكْتَسَبَتْهَا عَيْنَاكَ بِنَظَرِهَا
وَفُوكَ فَإِذَا غَسَلْتَ ذِرَاعَكَ تَنَاثَرَتِ الدُّنُوبُ عَنْ يَمِينِكَ وَشِمَالِكَ فَإِذَا مَسَحْتَ
رَأْسَكَ وَقَدَمَيْكَ تَنَاثَرَتِ الدُّنُوبُ الَّتِي مَشَيْتَ إِلَيْهَا عَلَى قَدَمَيْكَ فَهَذَا لَكَ فِي
وُضُوءِكَ^(١).

وذكر في الباب الثاني عشر معاجز النبي ﷺ في الإخبار بالغيب - أيضاً -
وذكر ٨ روايات.

أقول: ولا شك في أن هذا العدد الكبير من الروايات يفيد القطع بوقوع
معاجز وكرامات لرسول الله ﷺ غير القرآن الكريم، وهذه النتيجة ينبغي أن
تلاحظ وتؤخذ بالحسبان في مقام البحث عن دلائل صدق النبي الأعظم ﷺ
وتفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ
وَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾^(٢).

قال السيد الخوئي رحمه الله: (إن معجزة النبي ﷺ لم تكن منحصرة بالقرآن
الكريم، ولقد شارك جميع الأنبياء في معجزاتهم واختص من بينهم بمعجزة
الكتاب العزيز. والدليل على قولنا هذا أمران:

الأول: أخبار المسلمين المتواترة الدالة على صدور المعجزات منه، وقد
ألف المسلمون - على اختلاف مللهم ونحلهم في هذه المعجزات - مؤلفات

(١) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٢٨.

(٢) سورة الإسراء: آية ٥٩.

كثيرة فليراجعها من يرغب في الاطلاع عليها. وهذه الاخبار جهتان من الامتياز على أخبار أهل الكتاب بمعجزات أنبيائهم:

الجهة الأولى: قرب الزمان، فإن الشيء إذا قرب زمانه كان تحصيلي الجزم بوقوعه أيسر منه إذا بعد زمانه.

الجهة الثانية: كثرة الرواة: فإن أصحاب النبي ﷺ الذين شاهدوا معجزاته أكثر - بألوف المرات - من بني إسرائيل، ومن المؤمنين بعيسى الناقلين لمعجزاتهم. فإن المؤمنين بعيسى ﷺ في عصره كانوا لقلتهم يعدون بالأصابع، وإن نقل معجزاته لا بد وأن ينتهي إلى هؤلاء المؤمنين القليلين في العدد، فإذا صحت دعوى التواتر في معجزات موسى وعيسى صحت دعوى التواتر في معجزات نبي الإسلام بطريق أولى. وقد أوضحنا فيما تقدم أن التواتر في معجزات الأنبياء السابقين غير ثابت في الأزمنة اللاحقة، ودعواه دعوى باطلة.

الثاني: إن نبي الإسلام ﷺ قد أثبت للأنبياء السابقين معجزات كثيرة، ثم ادعى أنه هو أفضل هؤلاء الأنبياء جميعاً، وأنه خاتمهم. وهذا يقتضي صدور تلك المعجزات منه على نحو أتم، فإنه لا يعقل أن يدعي أحد أنه أفضل من غيره، وهو يعترف بنقصانه عن ذلك الغير في بعض صفات الكمال. وهل يعقل أن يدعي أحد أنه أعلم الأطباء جميعاً، وهو يعترف بأن بعض الأطباء الآخرين قادر على معالجة مرض هو غير قادر عليها؟! إن ضرورة العقل تمنع

ذلك. وهذه الجهة نرى أن جملة من المتنبين الكاذبين قد أنكروا الاعجاز، وجحدوا كل معجزة للأنبياء السابقين، وصرفوا اهتمامهم إلى تأويل كل آية دلت على وقوع الاعجاز، حذراً من أن يطالبهم الناس بأمثالها فيستبين عجزهم^(١).

الأمر الثاني: هو إنه ليس من الواجب على الله تعالى أن يقيم الحجة على صدق نبي من الأنبياء بالطريق الذي يقترحه الناس، فإن مجرد اقتراح الناس حجة معينة لا يعين على الله تعالى أن يستجيب لهم، وكونه تعالى في مقام إقامة الحجة يقتضي أن يقيم طريقاً مثبتاً يحقق الغرض، وهو إخراج دعوى النبي عن مجرد كونها دعوى إلى كونها مشفوعة بالبرهان القطعي الذي يمنع اعتذار الكافر، وقد بين تعالى هذا بقوله ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ، قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٢).

فإن الله تعالى قد أقام الحجة البالغة، ولا عذر لجاحد بعد هذا، فكما لا يحق للناس تعيين النبي وزمانه ومكانه كذلك لا يحق لهم تعيين كيفية حجته، واختيار الشاهد على صدقه، وإذا أقام الله شاهداً فيه كفاية لم يكن لهم أن

(١) تفسير البيان: ص ١٠٥.

(٢) سورة الأنعام: آية ١٤٨ - ١٤٩.

يقولوا: لن نؤمن أو يقولون إذا لم يؤمنوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾، فإن الله أراد هدايتهم، وأقام الرسل، ونصب الحجج البالغة.

والنبي الأعظم ﷺ قد جاء بالحجج البالغة من القرآن وغيره، كما بينا في الأمر الأول، وهذا المقدار كاف لإلقاء الحجة، وتحقيق الغرض، وليس على العباد إلا أن يتبعوا، ولا موضع لطلب حجج أخرى، ولهذا كانت سنة الله تعالى على أن يهلك من طلب حجة، وبعد إقامتها لم يؤمن كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾، فإن مفادها هو إن الغرض من الآيات تخويف العباد ليكونوا أقرب إلى الهداية، وليس الإهلاك، ولكن حيث إن طلب الآية بعد إلقاء الحجة يستلزم هلاك من لم يؤمن كان ذلك مانعاً من استجابة طلب المشركين الذين يعلم بتكذيبهم، لأنه سيكون مصيرهم مصير ثمود حيث أخذهم عذاب الاستئصال، وهذا هو الوجه من قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ كما يظهر، ويحتمل أن المراد بالتخويف معنى آخر يأتي في كلام السيد الخوئي رحمه الله.

يقول العلامة الطباطبائي رحمه الله: (فقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ المنع هو قسر الغير عما يريد أن يفعله وكفه عنه، والله سبحانه يحكم ولا معقب لحكمه وهو الغالب القاهر إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، فكون تكذيب

الأولين لآياته مانعاً له من ارسال الآيات المقترحة بعد ذلك كون الفعل بالنظر إلى ما ارتكز فيهم من خلق التكذيب خالياً عن المصلحة بالنسبة إلى أمة أراد الله أن لا يعاجلهم بالعقوبة والهلاك أو خالياً عن المصلحة مطلقاً؛ للعلم بأن عامتهم لا يؤمنون بالآيات المقترحة. وان شئت فقل: إن المنافاة بين ارسال الآيات المقترحة مع تكذيب الأولين وكون الآخرين سالكين سبيلهم المستتبع للاستئصال وبين تعلق المشية بامهال هذه الأمة عبر عنها في الآية بالمنع استعارة، وكأنه للإشعار بذلك عبر عن إيتاء الآيات بالإرسال كأنها تتعاضد وتتداعى للنزول لكن التكذيب وتعرق الفساد في فطر الناس يمنع من ذلك. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ التعبير عن الأمم الهالكة بالأولين المضايق للآخرين فيه إيماء إلى أن هؤلاء آخر أولئك الأولين فهم في الحقيقة أمة واحدة لآخرها من الخلق والغريزة ما لأولها، ولذيلها من الحكم ما لصدرها ولذلك كانوا يقولون: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ المؤمنون: ٢٤ ويكررون ذكر هذه الكلمة. وكيف كان فمعنى الآية: إنا لم نرسل الآيات التي يقترحونها - والمقترحون هم قريش - لأننا لو أرسلناها لم يؤمنوا وكذبوا بها فيستحقوا عذاب الاستئصال كما إنا أرسلناها إلى الأولين بعد اقتراحهم إياها فكذبوا بها فأهلكناهم لكننا قضينا على هذه الأمة أن لا نعذبهم إلا بعد مهلة ونظرة، كما يظهر من مواضع من كلامه تعالى^(١).

(١) تفسير الميزان ج ١٣ ص ١٣٥.

الأمر الثالث: ليس في الآية الكريمة أي دلالة على أن النبي ﷺ كان يمتنع عن الإتيان بخوارق العادة، وإنما تدل على أن النبي ﷺ كان لا يجيب إلى آيات خاصة مقترحة، وقد قرب السيد الخوئي رحمه الله ذلك بثلاثة وجوه^(١):

الوجه الأول: إن الوارد في الآية لفظ (الآيات) وهو جمع معرف بالألف واللام، ويحتمل في المراد به احتمالات:

الأول: أن يراد منه الجنس المنطبق على كل فرد، وذكر في وجه بطلان هذا الاحتمال أنه يلزم أن يكون البعث عبثاً، إذ كيف يلزم باتباع ما لا شاهد على صدقه؟!؛

وهذا المقدار من الجواب لا يكفي، والصحيح أن يقال - غير ما تفضل به ﷺ -: إن هذا الاحتمال باطل أولاً: فلأن القرآن يثبت أنه هو معجز، وتحدى العرب أن يأتوا بمثله، فلو كان الله تعالى لا يأتي بأي معجزة للزوم تهافت القرآن، ولم ينقل عن أحد من العرب الاعتراض على النبي ﷺ بذلك مع وضوح الاعتراض به. وثانياً: إن الآية وصفت الآيات بأنها كانت موجودة سابقاً وكذب بها الأولون، فقالت: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾، ومن الواضح لم تكن كل أفراد الآيات متحققة، وإنما بعضها.

الثاني: أن يراد المجموع لا كل آية آية، فالمقصود هو أن الله تعالى لا يحقق المجموع، ويحقق بعض المجموع، وهذا الاحتمال باطل لوجهين:

(١) تفسير البيان: ص ١٠٧.

١- إنه لا حاجة إلى تحقيق المجموع لثبت صدق النبي ﷺ، بل تكفي بعض الآيات.

ولعل مراده أنه يكفي أن يجيب الله تعالى بأن ما تطلبونه عبث، ولا حاجة إلى أن يقول ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾، فإن الله تعالى لم يحقق العبث سابقاً، ووقع فيه التكذيب.

أقول: ولو كان هذا مراد المشركين، وقد رفض الله الاستجابة لهم لم تكن الآية منافية لوجود معاجز آخر للنبي ﷺ، وهي بعض المعاجز لا المجموع، وما ندعيه ثبوت بعض المعاجز غير القرآن.

الثالث: أن يكون المقصود خصوص الآيات الإلهية المعهودة، وهذا المعنى لا ينافي وجود معاجز أخرى غيرها.

الوجه الثاني: لو كان المقصود الامتناع عن كل معجزة لتكذيب المكذبين للزم الامتناع عن إنزال القرآن، مع أنه معجزة باليقين.

الوجه الثالث: هو إن الله علل عدم ارسال الآيات بوجود مانع، وهو التكذيب، فلا بد أن يكون مقضي الإرسال موجوداً، لقاعدة وهي: قبح التعليل بالمانع مع عدم المقتضي، فلو سأل شخص عن سبب عدم احتراق الورقة، فأجاب: لأنها رطبة، كان جوابه كاشفاً عن وجود النار، ولهذا لم يعلل بعدم المقتضي وهو النار، وإلا لو كانت النار غير موجودة لكان عليه أن يعلل بعدم وجودها، وعليه، فالتعليل بالتكذيب يكشف عن وجود مقتض في

ارسال الآيات المقترحة، وحيث إنه لا يمكن أن يكون موافقة ذلك للحكمة وإلا لأرسل الله؛ لأنه حكيم، فلا بد أن يكون طلب القوم حججاً زيادةً على الحجج التي أقامها الله تعالى، فلا تنفي الآية الحجج الموافقة للحكمة والتي يحقق الله بها غرض الحكمة، فكأن السيد عليه السلام يعتمد على حكمة الله لبيان أن المنظور في الآية خصوص الآيات التي لا تقتضي الحكمة لزومها، فهي التي لم يستجب الله فيها، فلا تنفي وقوع الآيات التي تقتضي الحكمة لزوم وقوعها، والتكذيب يكون مانعاً بعد الحجة للزوم العذاب بعده، والعذاب خلاف حكمة الله في أمة الخاتم صلوات الله عليه وآله.

قال السيد الخوئي رحمته الله: (وأما إذا كانت مقترحة كانت كاشفة عن حاجة المقترح، وشدة عناده، إذ لو كان طالباً للحق لصدق بالآية الأولى؛ لأنها كافية في إثباته، ولأن معنى اقتراحه هذا أنه قد التزم على نفسه بتصديق النبي إذا أجابه إلى هذا الاقتراح، فإذا كذب الآية المقترحة بعد صدورها كان مستهزئاً بالنبي وبالحق الذي دعا إليه، وبالآية التي طلبها منه، ولذلك سمى الله تعالى هذا النوع من الآيات «آيات التخويف» كما في آخر هذه الآية الكريمة، وإلا فلا معنى لحصر مطلق الآيات بالتخويف، فإن منها ما يكون للرحمة بالعباد وهدايتهم وإنارة سبيلهم. ومما يدلنا على أن المراد من الآيات الممنوعة هي آيات التعذيب والتخويف: ملاحظة مورد هذه الآية الكريمة وسياقها. فإن الآية التي قبلها هي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِّنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ

الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿١٧: ٥٨﴾
«وقد ذكرت فيها آية ثمود التي أعقبتها نزول العذاب عليهم. وقصتهم
مذكورة في سورة الشعراء، وختمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ
بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾. وكل هذه القرائن دالة على أن المراد بالآيات الممنوعة
هي الآيات المقترحة التي تستلزم نزول العذاب. ونحن إذا سبرنا الآيات
القرآنية يظهر لنا ظهوراً تاماً لا يقبل التشكيك أن المشركين كانوا يقترحون
إنزال العذاب عليهم، أو يقترحون آيات أخرى نزل العذاب على الأمم
السابقة بسبب تكذيبها. فمن القسم الأول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ
كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٨: ٣٢﴾. وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ
يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَغْفِلُ مِنْهُ
الْمُجْرِمُونَ ﴿١٠: ٥٠﴾. وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا
يَحْبِسُهُ ﴿١١: ٨﴾. وَيَسْتَغْفِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ
الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٩: ٥٣﴾»

ومن القسم الثاني وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى
نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ
أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿٦: ١٢٤﴾. فَلَيَأْتِنَا
بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٢١: ٥﴾. فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ

مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا
وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٢٨: ٤٨﴾.

ويدلنا على أن نظير هذه الآيات المقترحة قد كذبها الأولون فاستحقوا به نزول العذاب قوله تعالى: ﴿قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ ﴿١٦: ٢٦﴾. ﴿كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ ﴿٣٩: ٢٥﴾ وما أكثر الشواهد على ذلك من الكتاب العزيز. وقد ورد في تفسير الآية عن طريق الشيعة وأهل السنة ما يؤكد هذا الذي استفدناه من ظاهرها، فعن الباقر عليه السلام: «أن محمدا صلوات الله عليه سأله قومه أن يأتي بآية فتزل جبريل وقال: إن الله يقول: وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون. وكنا إذا أرسلنا إلى قريش آية فلم يؤمنوا بها أهلكناهم، فلذلك أخرجنا عن قومك الآيات»، وعن ابن عباس قال: «سأل أهل مكة النبي أن يجعل لهم الصفا ذهابا، وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعوا. ف قيل له: إن شئت أن نستأني بهم لعلنا نجتبي، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم. قال: بل تستأني بهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾»^(١).

وقال العلامة الطباطبائي رحمته الله: (وذكروا في معنى الآية الكريمة وجهين

(١) تفسير البيان ص ١٠٩.

آخرين:

أحدهما: أنا لا نرسل الآيات لعلمنا بأنهم لا يؤمنون عندها فيكون إنزالها عبثاً لا فائدة فيه كما أن من قبلهم لم يؤمنوا عند إنزال الآيات وهذا إنما يتم في الآيات المقترحة، وأما الآيات التي يتوقف عليها ثبوت النبوة فإن الله يؤتيها رسوله لا محالة وكذا الآيات التي في نزولها لطف منه سبحانه فإن الله يظهرها أيضاً لطفاً منه، وأما غير هذين النوعين فلا فائدة في إنزالها.

وثانيهما: أن المعنى أنا لا نرسل الآيات لأن آباءكم وأسلافكم سألوا مثلها ولم يؤمنوا به عند ما نزل وأنتم على آثار أسلافكم مقتدون فكما لم يؤمنوا هم لا تؤمنون أنتم.

والمعنى الثاني منقول عن أبي مسلم وتمييزه من المعنيين السابقين من غير أن ينطبق على أحدهما لا يخلو من صعوبة^(١).

والمتحصل مما تقدم: هو إن الآية الكريمة لا تدل على أكثر من أن الله تعالى لم يلب للكفار طلب آيات خاصة، وقعت سابقاً وتم تكذيبها، لأن القوم سوف يكذبون بها ويتعقب تكذيبهم العذاب، وهذا هو المعنى الأول من المعاني التي ذكرها صاحب الميزان (شكر الله سعيه)، ويحتمل أن يكون المعنى هو إن الله تعالى لم يلب بتحقيق بعض المعاجز التي تحققت سابقاً وإن لم يستلزم تكذيبها العذاب؛ لتامة الحجة وتحقيق غرض الإعجاز وعدم ترتب أثر زائد

(١) تفسير الميزان: ج ١٣ ص ١٣٥-١٣٦.

للعلم بتكذيبهم أو عدم الانقطاع بطلب غير ذلك، فالأمر إلى الله تعالى في تحديد كيفية احتجاجه، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَإُئِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْقَوْمِ يُؤْمِنُونَ﴾^(١)، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢)، ولو كانت ظاهرة بمقتضى عموم (الآيات) فلا بد من رفع اليد عن العموم؛ لأنه دليل ظني دلالة، ونحن نعلم بالقطع واليقين بصدور معاجز غير القرآن عن رسول الله ﷺ، وهو قرينة على أن العموم غير مقصود.

والحمد لله رب العالمين

(١) سورة الأعراف: آية ٢٠٣.

(٢) سورة الأنعام: آية ١٠٩.

المحتويات

٧	مقدمة المركز.....
٩	المقدمة
١١	بين يدي الكتاب

المحطة الأولى

وهي في ذكر بعض الأمور التمهيدية

٣٣	الأمر الأول: الذي يوجهنا في هذه المحطة هو ما هي حقيقة النبوة؟
٣٣	تعريف مقام النبوة:
٣٣	النبوة والاصطفاء:
٣٥	تفاوت القدرة البدنية ودخله في تحصيل العلم:
٣٦	الإعجاز التاريخي في لفظ (فرعون):
٤٠	متى استطاع العلماء فك رموز اللغة القبطية؟
٤٢	وحي النبوة مقوم لها:

- ٤٤..... النبوة الطريق الوحيد للتبليغ المباشر:
- ٤٤..... تقسيمات الأنبياء:
- ٤٤..... النقطة الثانية: في تقسيم الأنبياء
- ٤٥..... تقسيم الأنبياء باختلاف درجات كشف الوحي:
- ٤٦..... حالات النبي الأكرم ﷺ مع الوحي:
- ٤٨..... تقسيم الأنبياء إلى أولي العزم وغير أولي العزم:
- ٤٩..... سبب تقسيم الأنبياء بهذا التقسيم:
- ٥١..... تقسيم الأنبياء إلى رسل وغير رسل:
- ٥٣..... نظرية المعتزلة في الفرق بين الرسالة والنبوة:
- ٥٧..... نظرية غالب المسلمين:
- ٥٧..... رأي المشهور في الفرق بين النبوة والرسالة:
- ٦١..... رأي العلامة الطباطبائي رحمه الله:
- ٦٢..... دفع شبهة حول القانون الجزائي في الدين:
- ٦٦..... الاختلاف في درجة تلقي الوحي:
- ٦٨..... الوحي النبوي:
- ٦٨..... معنى الوحي في اللغة:
- ٦٨..... المحور الأول: في معنى الوحي في اللغة
- ٦٩..... موارد استعمال الوحي في الكتاب العزيز:

٧٤.....	معنى وحي النبوة:
٧٤.....	المحور الثاني: في بيان معنى وحي النبوة
٧٤.....	عدم إمكان معرفة حقيقة الوحي بالدقة:
٧٦.....	أحكام الوحي في النصوص:
٧٧.....	الوحي تعليم بلا وساطة بشر:
٧٨.....	الوحي طريق قلبي:
٧٨.....	اليقين التام حال التلقي:
٨٣.....	منهج القيمة المعرفية للوحي النبوي:
٨٣.....	نقد المنهج المادي في تقييم الوحي:
٩٠.....	نقد بعض النظريات الحديثة في تفسير حقيقة الوحي:
٩٠.....	نظرية المرض العقلي والنفسي:
٩٥.....	مناقشة نظرية المرض العقلي والنفسي:
١٠٤.....	مناقشة نظرية النبوغ والإيحاء والشخصية الباطنية:
١٠٤.....	النظرية الثانية: هي نظرية النبوغ والعبقرية.
١٠٤.....	النظرية الثالثة: نظرية الإيحاء النفس.
١٠٥.....	النظرية الرابعة: نظرية الشخصية الباطنية.
١٠٧.....	التنافي مع أخبار الأنبياء ﷺ:
١٠٨.....	تعاليم الأنبياء فوق ما تنتجه هذه النظريات:

المحطة النبوية الثانية

في فائدة الدين وبعثة الأنبياء وإرسال الرسل

- المحطة النبوية الثانية في الإجابة على السؤال التالي: ١٢٣
- عدم مساهمة الدين في تطوير وسائل الحياة: ١٢٣
- هل للدين فائدة زائدة على الفطرة والعقل؟ ١٢٩
- المنطلق النظري: ١٣٤
- اعتراف روسو بقصور العقل والفطرة: ١٣٤
- الفطرة والعقل والعلوم الحديثة لا تجيب على أهم الأسئلة: ١٣٥
- توقف قيام المجتمع بالعدل والقسط على الدين: ١٣٧
- توقف الإلزام الأخلاقي على الدين: ١٤٢
- شروط المقنن لا تجتمع إلا في الله تعالى: ١٤٤
- العجز عن تمييز الموقف الصحيح: ١٤٧
- المنطلق الروحي والعلمي: ١٤٩
- دليل اختلاف النفس عن البدن: ١٥١
- الحجة إلى القدوة الصالحة: ١٦٤

المحطة الثالثة

في لزوم بعثة الأنبياء وإرسال الرسل

- الفرق بين الحسن واللزوم: ١٧١
- ما هو المراد من (اللزوم)؟ ١٧٤
- تطبيق قاعدة اللطف: ١٧٧
- المقدمة الأولى: في توضيح اللطف. ١٧٨
- عدم البخل في ساحة الله: ١٨٢
- نفي عبثية خلقة الإنسان: ١٨٣

المحطة الرابعة

في طرق إثبات صدق مدعي النبوة

- موقف علم النفس التحليلي من الرؤى: ١٩٣
- احتمال تأثير الشيطان في المنامات: ٢٠٠
- الفرق بين المنصب الشهودي والغيبى: ٢٠٥
- طرق إثبات صدق مدعي النبوة: ٢٠٦
- بحث حول المعاجز: ٢٠٨
- النقطة الأولى: في تعريف المعجزة، وما هو المقصود بالمعجزة؟ ٢٠٩
- شروط المعجزات: ٢١٣

- النقطة الثانية: في شروط المعجزة. ٢١٣
- سر اختلاف معاجز الأنبياء: ٢١٩
- كيفية دلالة المعجزة على الصدق: ٢٢٥
- النقطة الثالثة: في كيف دلالة المعجزة على صدق دعوى النبي. ٢٢٥
- القرآن الكريم فوق الشبهات: ٢٢٨
- كيف يكون القرآن دليلاً لغير العربي الفصيح؟ ٢٣٧
- إثارات لا تصمد أمام الرد العلمي: ٢٤٢
- القسم الأول: الشبهات العلمية: ٢٤٢
- القسم الثاني من الشبهات: هي الشبهات اللغوية. ٢٤٥
- تساؤلات حول المعجزة: ٢٥٠
- من هو الفاعل المباشر؟ ٢٥٠
- هل المعجزة باطلة لمخالفة للقانون الحتمي؟ ٢٥٣
- لو كانت المعجزة خارقة للعادة فكيف يعلم أنها من الله؟ ٢٦٦
- منافاة المعجزة لإخبار القرآن: ٢٧٠
- حساب الاحتمالات والمنهج العلمي في إثبات النبوة: ٢٧٤
- المقام الأول: يُبين فيه هذا الطريق بنحو مختصر. ٢٧٥
- المقام الثاني: في تطبيق هذا الطريق في نبوة النبي الخاتم ﷺ. ٢٧٨

المحطة الخامسة

النبوة فوق الشبهات

- هل كان القرآن من الله الذي يريد هداية الكل؟ ٢٩٧
- عالم الدنيا له نظام ذاتي قد يمنع وصول معالم الدين: ٣٠٥
- لماذا لا يخاطبنا الله مباشرة؟ ٣١١
- موانع تصديق المعجزة عند هيوم: ٣١٦
- هل الديانات حطت من قدر الله تعالى؟ ٣٢٧
- الجهة الأولى: وصفت الله تبارك وتعالى بما لا يليق به. ٣٢٧
- هل كان القرآن يقتبس من الكتب السابقة؟ ٣٣٦
- القسم الأول: معارف موجودة في كتب السابقين. ٣٣٧
- هل آية سورة الإسراء ٥٩ تنفي سائر معاجز النبي ﷺ؟ ٣٤١
- المحتويات ٣٦٧